نظـــرات
فـــى ســورة الفـــرقان

الأستاذ الدكتور

عبد الفتــاح عاشـــور

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

ورئيس قسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية جامعة الأزهر

دار البيـــــان

٢٠٠٠م



دار البيان

للطبع والنشر والاستيراد والتصدير

بطاقة ضريبية رقم ١٣٧٣٠ م. نصر ثان

ملف ضريبي ٥/٤٢/٢٤/٢٦٥٠

قـــتـــبـــة . حي الزهور . مـــدينة نصـــر / القـــاهرة . ت : ٤٠٤٠٢٦٨

عـــمـــارات الجبـــل الأخـــضـــر أمـــام نادي السكة . مـــدينة نصـــر . القـــاهرة . ت وفـــاكس : ٤٨٢٢٤٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾

(سورة النساء ٤/ ٨٢)

« تقديم »

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة القرآن ، فبالقرآن نحيا ، وعلى دربه نسير ، وعلى حداثه يذهب كل تعب ، ويهون في سبيل الله ما نلقى ، ونشعر معه وبه بالراحة ، والسعادة ،والأمان - وأشهد أن لا إله إلا الله : الإله المعبود ، والرب المقصود ، عرفناه فأحببناه فعبدناه ، ولم نعبد سواه ، والصلاة والسلام على نبينا ورسولنا وحبيبنا محمد -ﷺ- عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه ، بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح للجماعة ، وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به ، وعزروه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولئك هم المفلحون .

« أما بعد » :

فالقرآن بحر زاخر بالمعاني ، مليئ بالأسرار ، مشرق بالنور ، وكل آية بل كل كلمة من كلماته لؤلؤة نفيسة ، ودرة غالية ، من أي ناحية نظرت إليها أخذك بريقها وجمالها وحسن رونقها ، وعلى قدر صفاء ذهنك ، وإشراق قلبك ، وطهارة فؤادك ، يكون إحساسك بطعم القرآن ، فإن للقرآن حلاوة ، لا يتذوقها إلا أهل الإيمان الذين رسخت أقدامهم في مقام العبودية لله ، فعاشوا بالقرآن ، ومع القرآن : يرتلون آياته في خشوع وضراعة ، يقومون به الليالي ،ويرددون كلماته كل آن ، ويتخذونه لهم إماما وهاديا إلى الخيرات ، فينالون بذلك عز الدنيا وسعادة الآخرة ...

وعلى هذا فسوف أتناول سورة من سور القرآن العظيم ، هي سورة الفرقان ، لأفسرها تفسيرا تحليليا ، وهذا يعنى أننا سنغوص معا في بحار آياتها : نلتقط من جواهرها ، ونرتوي من نبعها ، ونقلب النظر في آياتها ، ونقف عند كل حرف من حروفها ، نحاول أن نفهم عن الله ما يقول لنا ، دون تعسف أو شطط، أو خروج عما أثر عن رسول الله-ﷺ - وما قاله أصحابه الأجلاء - رضوان الله تعالى عليهم - وما جاء عن التابعين ، مما صحت به الرواية ، هذا بعد معرفة سبب

النزول في الآية أو الآيات ، إن كان هناك سبب نزول ، ولابد من الوقوف - بأناة وصبر وبصيرة - أمام الأسرار البلاغية والتعبيرات القرآنية ، لنتعرف على ما في الآيات من أسرار وأنوار ...

والله أسأل أن يجعل هذا خالصا لوجهه ، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

والحمد لله رب العالمين ...

الثلاثاء ١٥ صفر ١٤٠٦هـ

٢٩/ ١٠/ ١٩٨٥م

عبد الفتاح عاشور

بين يدي السورة

قبل أن نقف أمام سورة الفرقان لنتدبر في آياتها ونلقي النظر على معانيها ، وما تحمله من روائع التعبير ، ووجوه الإصلاح ، وعمق الدليل ، وقوة الحجة ، نحب أن نتساءل . هل في سورة الفرقان آيات مدنية ؟ وعم تتحدث آياتها السبع والسبعون ؟ .

قال الجمهور : « إن سورة الفرقان كلها مكية ، وقيل : إنها مكية إلا الآيات الثلاث في أواخرها من قوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلـها آخر ﴾ - إلى قوله : ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾[1] . وقال الضحاك : إنها مدنية إلا أولها إلى قوله تعالى في الآية الثالثة : ﴿ ولا نشورا ﴾ فهو مكي والرأي الأول هو الذي تؤيده الأدلة ويرشد إليه سياق الآيات[2] ، فالآيات في حديثها عن الوحدانية والرسالة والبعث ومحاسن الأخلاق تحمل سمة القرآن المكي لا المدني ، فلا يلتفت إلى قول من قال بأن السورة مدنية ، كما أن من قال بأنها مكية إلا الآيات التي تحدثت عن القتل والزنا ، فإن ذلك من التشريع ، وهذا إنما كان في المدينة ، فنقول له : بأن تشريع الحدود هو الذي كان في المدينة أما تحريم القتل والزنا فقد جاء به الإسلام منذ اللحظة الأولى ، وقتل النفس وانتهاك العرض والاعتداء على الحرمات محرم في كل دين ، وإن كانت العقوبات التي يستحقها من ارتكب شيئا من ذلك لم ينزل بها الوحي إلا في المدينة حين أصبح للمسلمين دولة وسلطان وقوة استطاعوا بها أن يقيموا حدود الله ، ولذلك قال تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾[3] .

---

(١) الآيات من ٦٨ - ٧٠ .

(٢) انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٢٣- ٢٦ ، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني ٤/ ٥٩.

(٣) المائدة ٥/ ٣٢.

وقـــــال :

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا (أي في التوراة) أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[1] وفي قصة ابني آدم : ﴿قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[2]... إلى غير ذلك من الآيات التي تحرم القتل من لدن آدم ، وكان هذا في كل دين ، وكل أمة ، وهكذا الزنا فهو جريمة بشعة تنفر منها الطباع السليمة والفطر المستقيمة ، ولهذا أقول مع من قال من جمهور الأئمة بأن الآيات الثلاث التي تحدثت عن توحيد الألوهية وتحريم القتل وتحريم الزنا آيات مكية ، وكل سورة الفرقان مكية بما فيها هذه الآيات الثلاث.

عم تحدثت سورة الفرقان ؟ .

إننا إذا ألقينا نظرة على الآيات نجدها تتحدث عن ثلاث قضايا رئيسية ، هي مميزات القرآن المكي ، الذي وجه عنايته إلى بناء الإنسان من داخله ، قبل أن يخوض معه في التفصيلات ، ويقيم له الحدود والتشريعات ، ونظام الدولة والحكم ، لأنه بدون بناءهذا الإنسان يبقى أي بناء عرضة للانهيار ، لا يثبت أمام العواصف .

وهذه القضايا التي تحدثت عنها سورة الفرقان هي : التوحيد ،والنبوة ، والبعث ،وبإثبات هذه الحقائق،وغرس شجرتها في الكيان الإنساني،ينطلق الإنسان موحدا لربه في ذاته وصفاته وأفعاله ، مؤمنا بمحمد نبياورسولا،وبالكتاب الذي أنزل معه منهجا وسلوكا وطريقا ، وباليوم الآخر موعدا للقاء الله ، بما في

---

(1) المائدة ٥/ ٤٥.

(2) المائدة ٥/ ٢٧- ٣٠ .

ذلك اليوم من البعث والحشر ، والصراط والميزان ، والحساب ، والجنة والنار ، فيحيا هذا الإنسان قويا لا يعرف الضعف ، عزيزا لا يرضى بالذل ، يعمر الأرض بالحق والخير ، والعدل ، والحب ، والسلام .

١- وهذه هي القضايا التي تسوقها السورة فتمزج بين أجزائها مزجاً فريدا ، وتنتقل بك من غرض إلى غرض ، ومن موضوع لموضوع ، وهي بين هذا وذاك ، تذكر بما مضى من حديث ، وتؤكد وحدانية الله وهي تثبت نبوة رسول الله ﷺ ، وتتحدث عن رسول الله ﷺ ، وتطمئن فؤاده ، وتثبته على الحق الذي معه ، وهي تناقش قضية البعث والحساب والجزاء .

فهي - إذن - قضايا متشابكة ، تؤدي في النهاية إلى غاية واحدة هي : إيجاد الفرد المؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره.

٢- ففي بداية السورة تثبت ألوهية الإله الواحد الأحد ، وتنزهه عن الولد ، والشريك ، وتبين مدى ضعف الآلهةالتي عبدت من دونه ،وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

٣- وتنتقل إلى مناقشة المشركين في اعتراضاتهم وشبهاتهم التي أثاروها حول القرآن ،والرسول المبلغ له - ﷺ - فإذا شبهاتهم حماقة وجهالة ، والتواء عن الحق ، وإعراض عنه ، وسبب ذلك هو أن القوم لا يناقشون القضايا بعقل مفتوح ، وقلب يبحث عن الحق إنما يتناولون ذلك بأسلوب المكذب الذي يصر على تكذيبه : ﴿ بل كذبوا بالساعة ، وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ﴾ ..

٤- وهنا تصور الآيات مواقف الندامة والحسرات التي سيكون فيها هؤلاء المكذبون وما سيصيبهم من خزي حين يسأل الحق تبارك وتعالى من عبدوهم من دونه : ﴿ أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل ﴾؟

فتكون الإجابة : ﴿ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ﴾ .

٥- وتواصل الآيات ردها على شبه المعاندين بأسلوب الواثق من الحق الذي معه ، حين تنتقل باعتراضهم إلى البحث عن أسبابه ، فتتوعدهم - لذلك - بسوء المصير ، انظر معي إلى قول الله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ !! فبماذا أجابهم ؟ قال : ﴿ لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ﴾فبين لنا السبب الذي منعهم من الإيمان برسول الله - ﷺ - وبالقرآن العظيم ، وإنه الكبر والتعالي على الحق،ولهذا انتقل إلى تهديدهم، وبيان حالهم في الآخرة فقال : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ، وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾،وتختم هذه الجولة بهذه الشكوى من رسول الله -ﷺ - إلى ربه من إعراض قومه ، وتطمين الله له بأنه ناصره ومؤيده ، فهذه سنة الله مع رسله : ﴿ وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا القرآن مهجورا ، وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين ، وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾ ..

٦- وتسوق الآيات اعتراضا آخر للمشركين حول القرآن ، فقد اعترضوا على طريقة إنزاله ، وأنه نزل مفرقا ولم ينزل جملة واحدة ، فذكر ربنا سر إنزاله لهذا القرآن على هذا النحو فقال : ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا ﴾ ثم أخذ يتوعدهم ويذكر ما كان من أمر موسى ، وهارون ، ونوح ، وقوم عاد ، وثمود ، وأصحاب الرس ، وغير هؤلاء وكيف أبادهم الله وأهلكهم ، وأن هذا المصير ينتظر المكذبين لرسول الله ﷺ . وكم عميت أبصارهم ، وأظلمت قلوبهم، واتبعوا أهواءهم : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾

٧- وفي جولة من أدلة القرآن تضع يديك على الحقيقة نتراها كالشمس في رابعة النهار، يثبت ربنا بهذه الأدلة وحدانيته ، وقدرته ، وما اتصف به من صفات الجلال والكمال ، وهو بذلك - أيضا يطمئن رسوله - ﷺ -وأن هؤلاء المعاندين

له ، إنما هم في قبضة مولاه القوي القادر ، وما عليك يا نبي الله إلا أن تجاهد الكافرين بهذا القرآن جهادا كبيرا ، وأن تتوكل على الحي الذي لا يموت ، وأن تسبح بحمده ، وأن تترك هؤلاء لا تأسى عليهم فحسابهم على الله ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴾ .

وهذه هي الأدلة التي تسوقها سورة الفرقان : تراها في الظل ، وكيف مده الله ولو شاء لجعله ساكنا ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ﴾ . وتراها في الليل وظلمته والنوم وقطعه للإنسان عن الحركة والحس ، والنهار بعد الليل يشرق بنوره فتدب الحياة في الأحياء ، وكم في ذلك من آيات واضحات !! ونلمحها في الرياح تدفع السحاب فينزل الماء من السماء ، مصفى من ملوحته ، طهورا ، نقيا ، يحيى به الله البلاد والعباد ، ووزعه على أنحاء الأرض وفق حكمته ومشيئته ، لعل الناس تلتفت إلى هذه الظاهرة التي لا تغيب عن أحد ، والتي تدل على قدرة الله وحكمته ومشيئته ، : ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ .

كما تستطيع أن ترى شيئا من هذه الدلائل : في البحار ، والأنهار التي جعلها الله في هذه الأرض : ﴿ هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾ فلا يطغى هذا على ذلك ، فضلا من الله ورحمة .

وتلمسها فيما ترى من أبناء جنسك وكيف تم خلق هذا الإنسان ، وكان منه الأنساب والأصهار و الأقارب والأبناء والأجداد ﴿ وكان ربك قديرا ﴾ . وقبل أن تكمل الآيات حديثها عن هذه الآيات ، تتوقف لتذكر الرسول بوظيفته ، ولتحدد غايته له ، ولتأمره بالتوكل على الله ،و الانطلاق في سبيل ربه لا يخشى أحدا غيرخالقه ، وفي أثناء ذلك تصف الآيات رب العزة بعدة صفات لها مغزاها في هذا المقام : تصفه بالحي الذي لا يموت ، وبأنه الخبير بذنوب عباده ، والخبير بخلقه ، وبأنه خالق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وبأنه مستو على عرشه ، ومن صفاته ، كان جديرا بالطاعة ، وإخلاص العبادة له ، ولكن الكافرين

عمـوا عن الطريق : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحـمن ، قالوا : ومـا الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا ، وزادهم نفـورا ﴾ . وتعود الآيات تنزه الله عن عبث العابثين ، وجهل الجاهلين ، وتذكر بعض مظاهر قدرته وألوهيته في السماء التي جعل الله فيها بروجا ، وجعل فيها سراجا ، وقمرا منيرا ، وفي الليل والنهار وكيف يتعاقبان وفي ذلك عبرة وعظة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

٨- وفي قمة من يذكر ومن يشكر عباد الرحمن ، وهنا يأتي الحديث عنهم ، وعن صفـاتهم؛ ليكونوا مثلا حيا لمن أراد أن يقتدي ، ودليـلا على هداية الله لمن شاء من عبـاده ، وأن هذا أمرا ليس في مقدور أحد من الخلق ، فـما على رسول الله إلا أن يصـدع بالحق ، وأن يبلغ الرسـالة ، وأن يؤدي الأمانة ، والحـديث عن عباد الرحمن هنا ، وفي نهاية سورة الفرقان ، يعني أن من سار في طريق التوحيد، ومن نظر في دلائل القـدرة ، ومن استجـاب لنداء الله ، ومن انضـوى تحت راية رسـول الله -ﷺ- كان حريا أن يكون من عـباد الرحـمن الذين اتصـفوا بهـذه الصفـات العظيمـة فسـعدوا في الدنيـا والآخرة ، وفي ذلك تبكيت لأهل الـكفر الذين حرموا نعمة التوفيق بجهلهم ، وخسروا في دنياهم وفي أخراهم ، وكم في ذلك - أيضا - من تخفيف للآلام التي كثيرا ما كان يشعر بها النبي الرحيم ،وهو يرى إعـراض قومـه عن دعوة الحق . . .. فـهنا صـنف من الناس آمن ، وآمن إيمانا راسـخـا ، وما الحـياة إلا مزيج من هذا الازدواج : ليل ونهـار ، وصحـة ومرض ، ونور وظلام ، وقوة وضعف ، وخـير وشر ، وإيمان وكفر ، فمن آمن سـعد وفاز ، ومن كفـر شقي وخـسر ، وحـسبك أنك يا نبي الله بلغت مـا أوحى الله به إليك فـآمن بما أرسلت به هؤلاء الأفـذاذ من البـشـر ، وهذه هي صـفـاتهم وأحـوالهم الكريمة من التواضع ، ولين الجانب ، والعفو عن الجاهلين وقيام الليل ، والضراعة لله أن يصرف عنهم عـذاب جهنم ﴿ إن عذابها كان غراما ﴾ ، والاعتـدال في الإنفاق ، وتوحيد ألوهـية الله ، والبعد عما حرم الله من الـقتل ، والزنا ، وشهادة الزور ، والإعراض عن مجالس اللغو والفسوق والفجور ، والاستجابة لما جاء به كـتاب الله ، ودعـائهم الضـارع بأن يهب الله لهم مـن أزواجهم قـرة أعين ، وأن

يجعلهم للمتقين إماما ، ولا ريب أن من اتصف بهذه الصفات مستحق لفضل الله وإكرامه ، ولهذا يقول ربنا : ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما ﴾ .

وأخيرا يقرر الله حقيقة لها أهميتها وهي أن إكرام الله لمن أكرمهم إنما كان لعبوديتهم له ، وإخلاصهم في عبادته ، وأن إهانة الله لمن أهانهم إنما كان لكفرهم وخروجهم عن طاعته ، ولهذا يقول في ختام السورة : ﴿ قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ، فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ .

هذا وبالله التوفيق ...

التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ ﴾

مناسبة السورة لما قبلها :

كثيرا ما يعرض المفسرون لذكر مناسبة السورة لما قبلها ، فإن هذا القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة ، وكانت تنزل منه الآية أو الآيات فيدعو رسول الله -ﷺ من حضره من كتاب الوحي ليقول لهم : ضعوا هذه الآية أو الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا إلى أن اكتمل القرآن نزولا ، ونزل جبريل ؑ في رمضان من العام العاشر الهجري فقرأ مع رسول الله ﷺ القرآن بترتيبه الموجود في المصحف مرتين ، وبعده في ربيع الأول من العام التالي انتقل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى ، ولذلك ترى أن صدر سورة العلق من أول ما نزل إلا أنها في الجزء الأخير من القرآن ، كما ترى سورة البقرة من أوائل ما نزل في المدينة ومع ذلك فهي في بداية القرآن ، وهذا يدلك على أن وضع كل سورة في مكانها من المصحف ، إنما جاء للحكمة ومناسبة بينها وبين وضع سابقتها ، ولهذا قال كثير من الأئمة : إن ترتيب السور توقيفي ، يقول الشيخ ولي الدين الملوي : قد وهم من قال : لا يطلب للآي الكريمة مناسبة ، لأنها حسب الوقائع المفرقة ، وفصل الخطاب أنها على حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا ، فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ ، مرتبة سوره كلها ، وآياته ، بالتوقيف ، كما أنزل جملة إلى بيت العزة ، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر ، والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شئ عن كونها مكملة لما قبلها ، أو مستقلة ، ثم المستقلة ما وجه

مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جم ، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له[1] ، وإذا كنا قد اخترنا في ترتيب سور القرآن أنه بوحي من الله ، وأنه لم يكن باجتهاد من الصحابة ، وأن وضع سورة بعد سورة إنما كان لحكم وأسرار يبحث عنها ، كما نبحث عن مناسبة آية لما قبلها ، إذا كنا قد اخترنا ذلك ، فما هي مناسبة ذلك . فما هي مناسبة سورة الفرقان لسورة النور ؟

لعلك تلمح معي ما بين الفرقان والنور من تلاحم وترابط ، فمن أعطى النور الذي يبصر به الطريق استطاع أن يفرق بين الحق والباطل ، وأن يميز بين الطيب والخبيث ، وأن يختار - في وضوح - ما يسعده في أولاه وفي أخراه، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. [2]

والفرقان نور وبصيرة يقذف الله بهما في قلب المؤمن فينجو من المهالك ، ويفوز مع الفائزين ، ويفرق بين الحق والباطل ، وينظر إلى الدنيا بمنظار المؤمن البصير ، فلا تغره زخارفها ولا يلهيه متاعها ...

فإذا ما انتقلنا إلى شيء من التفصيل في مناسبة سورة الفرقان لسورة النور ، رأينا قول البقاعي : « لما ختم سبحانه تلك (أي سورة النور) بسعة الملك - وشمول العلم ، وتعظيم الرسول - ﷺ - ، والتهديد لمن تجاوز الحد ، افتتح هذه بمثل ذلك على وجه - مع كونه أضخم منه - هو برهان عليه فقال : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان ﴾ .. وينقل البقاعي عن الإمام أبي جعفر بن الزبير قوله في

---

(١) انظر : الاتقان في علوم القرآن : للسيوطي ٢/ ١٠٨ (النوع الثاني والستون في مناسبة الآيات والسور) وانظر : مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ عبد العظيم الزرقاني ١/ ٣٤٦، لتعرف أن الآراء في هذا الموضوع ثلاثة :

١- ترتيب السور توقيفي .

٢- ترتيبها : اجتهادي .

٣- ترتيبها : بعضه توقيفي ، وبعضه اجتهادي ، ولكل دليله .

(٢) سورة الأنفال ٨/ ٢٩.

« البرهان » : « لما تضمنت سورة النور بيان كثير من الأحكام كحكم الزنا ، ورمي الزوجات به ، والقذف ، والاستئذان ، والحجاب ، وإسعاف الفقير ، والكتابة ، وغير ذلك والكشف عن مغيبات من تغاير حالات تبين بمعرفتها ، والاطلاع عليها ، الخبيث من الطيب ، كإطلاعه سبحانه نبيه والمؤمنين على ما تقوله أهل الإفك ، وبيان سوء حالهم ، واضمحلال محالهم في قصة المنافقين في إظهارهم ضد ما يضمرون ، ثم كريم وعدم للخلفاء الراشدين : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم .... ﴾ ثم ما فضح الله تعالى به منافقي الخندق : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ... ﴾ فكان مجموع هذا فرقانا يعتضد به الإيمان ، ولا ينكره مقر بالرحمن ، ليشهد لرسول الله - ﷺ - بصحة رسالته ، ويوضح مضمون قوله : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم .. ﴾ مع عظيم قدره ﷺ وعلى جلالته، أتبعه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ... ﴾ وهو القرآن الفارق بين الحق والباطل ، المطلع على ما أخفاه المنافقون وأبطنوه من المكر والكفر ﴿ ليكون للعالمين نذيرا ﴾ فيحذرهم من مرتكبات المنافقين والتشبه بهم ، ثم تناسج الكلام ، والتحم جليل المعهود من ذلك النظام ،وتضمنت هذه السورة من النعي على الكفار ، والتعريف ببهتهم ، وسوء مرتكبهم ما لم يتضمن كثير من نظائرها ، كقولهم : ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام .. الآيات ﴾ وقولهم : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا .... ﴾ وقولهم : ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ... ﴾ وقولهم : ﴿ وما الرحمن .. ﴾ إلى ما عضد هذه وتخللها ، ولهذا ختمت بمقاطع الوعيد ، وأشد التهديد ، وهو قوله سبحانه : ﴿ فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ... ﴾[1] اهـ .

وقال العلامة الألوسي في بيان وجه المناسبة : « لما ذكر جل وعلا في آخر السورة السابقة وجوب متابعة المؤمنين للرسول -ﷺ- ، ومدح التابعين ، وحذر

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام إبراهيم البقاعي . المتوفى سنة ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠ م - تحقيق ودراسة من إعداد / محمد محمد أحمد إسماعيل : (من أول المؤمنون إلى آخر الشعراء) ، (رسالة ماجستير ص ٣٧٥ - ٣٨١ - ٣٨٣) .

المنافقين ، افتتح سبحانه هذه السورة بما يدل على تعاليمه -جل شأنه -عما سواه: في ذاته وصفاته وأفعاله ، أو على كثرة خيره تعالى ودوامه ، وأنه أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، إطماعا في خيره ، و تحذيرا من عقابه جل شأنه ، وفي هذه السورة - أيضا - من تأكيد ما في السابقة من مدح الرسول ما فيها فقال تبارك وتعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا .. ﴾ .(1)

وتستطيع أن تقول:لما بين سبحانه في سورة النور كثيرا من الآداب كالاستئذان والسفر وأحكام الحجاب وغير ذلك ، أراد أن يبين لنا الأسس التي تقوم عليها هذه الأحكام ، والتي تتركز في الإيمان بالله ربا واحدا ، والقرآن : منهجا وسلوكا ، والرسول : بشيرا ونذيرا ، وهذه هي سورة الفرقان التي ترسي هذه الدعائم وبدون هذه الدعائم لا قيمة لأي بناء مهما علا وارتفع .

الكلمات والإعراب :

« تبارك » : فعل ماض لا يتصرف ، فلا يأتي منه المضارع ولا الأمر ولا غيرهما ، ولا يستعمل إلا في حق الله تعالى ، وهو من البركة ، وهي الزيادة والنماء ، أو من البروك وهو ثبات الشئ واستقراره ، ومنه :برك البعير إذا ثبت واستقر في مكان ، والبركة سُمِّيت بذلك لثبات الماء فيها وعدم جريانه .

«نزل » : أي أنزله مفرقا حسب الوقائع والأحوال على امتداد ثلاث وعشرين سنة ، وهذا بخلاف الكتب السابقة فقد نزلت جملة واحدة ،قال تعالى : ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾(2) .

فالقرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في ليلة القدر

---

(1) تفسير الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي المتوفى سنة ١٢٧٠هـ ط الثانية . إدارة الطباعة المنيرية . الجزء ١٨ ص ٢٣٠.

(2) آل عمران ٣/ ٣ ،٤.

وهذا الإنزال يعبر عنه في القرآن « بأنزل » ثم نزل مفرقا مواكبا لمسيرة الرسالة من أول لحظاتها إلى انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وهذا اللون يعبر عنه « بنزل ».

« الفرقان » : هذه صفة من صفات كتاب الله عز وجل سمى بها القرآن لغاية فرقه بين الحق والباطل بأحكامه ، وبين المحق والمبطل بإعجازه ، أو لكونه مفصولا بعضه من بعض في نفسه ، أو في إنزاله »[1].

« عبده » : المراد به رسول الله محمد ﷺ ، والإضافة فيه إضافة تشريف

« ليكون للعالمين نذيرا » : اللام للتعليل واسم كان ضمير مستتر يعود على « عبده » أو على « الفرقان » أو على اسم الموصول في قوله : « تبارك الذي » . . هو الله سبحانه إذ الإنذار صفة من صفاته، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾[2].

والراجح : الأول وهو الذي يرجحه السياق .

وقوله : « للعالمين » قال قتادة : العالمون :جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم . وقال ابن عباس : العالمون : الجن والإنس ، دليله قوله تعالى : ليكون للعالمين نذيرا ، ولم يكن نذيرا ، وقال الفراء وأبو عبيد : العالم : عبارة عما يعقل وهم أربعة أمم : الإنس والجن ، والملائكة ، والشياطين ولا يقال للبهائم عالم ، لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة ... يقول الإمام القرطبي بعد أن ساق هذه الأقوال : والقول الأول أصح هذه الأقوال لأنه شامل لكل مخلوق وموجود ، دليله قوله تعالى : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ؟ قال رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ ثم هو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجده[3] . .

---

(١) تفسير أبي السعود المسمى : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٤/ ٧٧ .

(٢) الدخان ٤٤/ ٣.

(٣) انظر: تفسير القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ط دار الشعب ١٢٠ ، ١٢١ .

ويؤيد هذا الذي اختاره القرطبي ما روي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، قال : إله الخلق كله : السموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن ومن فيهن ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم [1]. وإذا كانت « من» للعاقل » و « ما » لغير العاقل ، فهل يفهم من قول ابن عباس شمول «من » للعقلاء وغيرهم ؟ يبدو أن هذا هو المراد ، لأن المقصود من رب العالمين في قوله: الحمد لله رب العالمين ، كل موجود سوى الله ، فكل موجود سوى الله مربوب لله الذي أعطى كل شئ حظه من الخلق والإيجاد والرعاية والعناية . ويبقى جمع العالمين على هذه الصيغة المختصة بالعقلاء ما سره ؟ فنقول : هذا من باب تغليب العقلاء على غيرهم . وقال الزمخشري في الكشاف : ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه ، وهى الدلالة على معنى العام .

« **نذيرا** » صفة مشبهة بمعنى منذر ، ويجوز أن تكون مصدراً بمعنى إنذار كالنكير بمعنى إنكار ، والإنذار هو : الإعلام المقترن بالتهديد والتخويف ، ويقابله التبشير .

« **الذي له ملك السموات والأرض** » : الذي : اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف ، أو بدل من قوله : (الذي نزل الفرقان ..) وما بعدها صلة .

« **وخلق كل شيء فقدره تقديرا** » : خلق الشيء إيجاده من العدم على غير مثال سابق ، وتقديره : تهيئته على أتم وجه ليكون معدا لما خلق من أجله ، وقادرا على أداء ما خلقه الله له .

« **واتخذوا من دونه آلهة** » : الضمير في قوله : واتخذوا ، يعود على المشركين المفهوم من قوله : « ولم يكن له شريك في الملك » أو من المقام .

« **لا يخلقون شيئا وهم يخلقون** » : هذه صفات للآلهة التي اتخذو ها معبودات لهم من دون الله (وسوف نقف عند هذه الصفات لنرى كيف نفرت

---

(١) انظر فتح القدير للإمام الشوكاني ١/ ٣١.

وعابت على المشركين عبادتهم لهذه الآلهة) .

المعنى الإجمالي :

في هذه الآيات المباركات يثبت الله أمورا ثلاثة :

١ -أنه الإله الواحد الأحد .

٢- وأن محمدا عبده ورسوله .

٣- وأن القرآن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد - ﷺ - فيقول سبحانه : تبارك ، وتقدس ، وتنزه الإله الذي أنزل الفرقان - أي القرآن ليفرق به بين الحق والباطل - على عبده ورسوله ونبيه محمد - ﷺ - ليكون هذا الرسول للثقلين من الإنس والجن نذيرا يخوفهم من الله وعقابه ، وهذا الإله الذي أنزل الفرقان على عبده هو الذي ملك السموات و الأرض ، لا شريك له في ذلك ، والذي لم يتخذ ولدا كما ادعى المشركون الذين قالوا بأن الملائكة بنات الله ، وهو المتفرد بالوحدانية إذ ليس له شريك في الملك ، وهو الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا فجاء وفق ما هيئ له ، وما خلق من أجله ، وإذا كانت هذه هي صفاته ، فلننظر في صفات الآلهة المدعاة والتي اتخذها المشركون آلهة عبدوها من دون الله ، هذه الآلهة لا يخلقون شيئا مهما كان تافها ، كيف وهي قد صنعت بأيدي من عبدوها وهذه الآلهة عاجزة كل العجز لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فسبحان الإله الواحد الأحد ، الضار النافع ، المحيي المميت الذي يبعث الناس من القبور .

نظرات في الآيات :

الآيات الثلاث تثبت الوحدانية ، والرسالة ، والقرآن وأنه من عند الله ، كما تشير إلى البعث والنشور ، وهذه هي الأهداف التى تسعى كلمات وآيات سورة الفرقان لإثباتها ... فلننظر كيف استطاعت الكلمات أن تعبر عن هذه الأهداف :

« **تبارك** » : من البركة وهي الزيادة والنماء أو البروك وهو الثبات والدوام

فالزيادة والنماء والكثرة : في الحسيات والمعنويات ، ومعناها أنه الإله الذي زاد خيره وعم فضله وأحاطت نعمه بالعالمين ، وفي ذلك دليل على ما يستحقه هذا الإله من تقديس وتعظيم ، ولذلك قال الفراء : إن تبارك وتقدس في العربية واحد ، ومعناهما العظمة وإنما أتى هذا الترابط بين تبارك وتقدس لأن من شملت رحماته وبركاته هذا الوجود كان جديرا بالتقديس والتعظيم .

أما الثبات والدوام فإنما أتى من البروك إذ كل شيء ثبت وأقام فقد برك ، تقول برك البعير ، وبرك الشيء أي ثبت وأقام في المكان ، ولهذا سميت البركة بركة لثبوت الماء فيها ، فكأنما قال : ثبت ودام الذي نزل الفرقان على عبده أي هو الحي الباقي الدائم الذي لا يموت ، قال النحاس : وهذا أولاها في اللغة .

والسورة حين تبدأ بهذا إنما تشير من البداية إلى المرتكز الذي يقوم عليه البناء كله ، لأنه ما دام الله عز وجل هو صاحب العطاء العظيم والفضل العميم وهو الحي الدائم الباقي فلابد أن يكون متصفا بكل صفات الكمال والجلال ، وأن يكون إنزاله للفرقان ، وإرساله لمحمد عليه الصلاة والسلام ، واختياره لهذا الرسول ليختم به الرسالات والنبوات ، فضلا منه ورحمة يجب أن تستقبل بالشكر لهذا الإله المنعم ، ولهذا كان إشراك المشركين ، وعنادهم لخاتم الأنبياء والمرسلين ، ورفضهم لكتاب رب العالمين عبثا ونكرانا وجحوداً لا يليق بالعقلاء من الناس حتى قال فيهم ربنا ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ .

﴿ الذي نزل الفرقان .. ﴾: أتى بالفاعل اسم موصول ولم يقل: تبارك الله ، مع أن القوم منكرون للقران ، وأن الذي أنزله هو الله ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا . أقول : أتى بالفاعل هكذا تنزيلا لإنكارهم منزلة العدم ، وكأن إنزاله للقرآن على رسوله أمر مسلم لا جدال فيه ،فكأنه قال : أنا الإله الجليل العظيم الكريم الحي الدائم الباقي فكيف يشك عاقل في القرآن

الذي أنزلته على عبدي ورسولي محمد ﷺ .

يقول الإمام الرازي : « قال أهل اللغة : كلمة « الذي » موضوعة للإشارة إلى الشيء عند محاولة تعريفه بقضية معلومة ، وعند هذا يتوجه الإشكال ، وهو أن القوم ما كانوا عالمين بأنه سبحانه هو الذي نزل الفرقان ، فكيف حسن ههنا لفظ الذي ؟ وجوابه : أنه لما قامت الدلالة على كون القرآن معجزا ظهر بحسب الدليل كونه من عند الله ، فلقوة الدليل وظهوره أجراه سبحانه وتعالى مجرى المعلوم... »[1] .

« وقال بعضهم : لا حاجة لما ذكر ، إذ يكفي في الصلة أن تكون معلومة للسامع المخاطب بها ولا يلزم أن تكون معلومة لكل سامع ، والمخاطب بها هنا هو رسول الله ﷺ ، وهو عليه الصلاة والسلام عالم بثبوتها للموصول ، وفي شرح التسهيل : أنه لا يلزم فيها أن تكون معلومة وأن تعريف الموصول كتعريف «ال» يكون للعهد والجنس وأنه قد تكون صلته مبهمة للتعظيم ..

يقول الألوسي : وما ذكر أولاً من تنزيلها منزلة المعلوم أبلغ لكونه كناية عما ذكر مناسبة للرد على من أنكر النبوة ، وتوحيد الله تعالى »[2].

وأتى بصلة الموصول : نزل ، ليدل على الطريقة التي نزل بها هذا القرآن وهو أنه نزل مفرقا ، وهذا ما أثار اعتراض المشركين فقالوا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ؟ فقال تعالى في الرد عليهم : كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا، وما نزل هذا القرآن على هذا النحو إلا لحكم وأسرار ، وكان على من عرف الله ربا حكيما عليما أن يدرك الحكمة في إنزال القرآن كذلك ، وفي اختيار كلمة «نزل » دون أوحى أو غيرها تعظيم للقرآن لأنه جاء من أعلى ، من فوق ، من عند الإله المستوي على عرشه استواء يليق بذاته ، من اللوح المحفوظ ، من صحف

---

(١) تفسير الفخر الرازي : مفاتيح الغيب . ط الأولى بالمطبعة الأميرية ج ٢٤ ص ٢٥.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي المتوفي سنة ١٢٧٠هـ ج١٨ ص ٢٣٢.

مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة ، من السماء حمله أمين الوحي جبريل ليبلغه إلى رسول الله ﷺ . وكم في ذلك من تكريم وتعظيم .

واختار من بين أسماء القرآن : « الفرقان » ليدل على ما في هذا الكتاب من توضيح للحق وتمييز له عن الباطل ، وبذلك يتبين المحق من المبطل ، ويهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة ، ولم يذكر الله سبحانه ما يكون فيه الفرقان ليبقى شاملا عاما في كل ما له علاقة بالقرآن من حيث إنزاله مفرقا ، وكونه آيات وسورا ، ومن حيث إعجازه الذي تحدى به أهل الفصاحة والبلاغة فمن الناس من آمن واستسلم للحق ومنهم من كفر عنادا وجحودا بعد وضوح الدليل ، وهو فرقان أيضا ؛به اتضحت المعالم وظهرت الحقائق وعرف الناس حدود مالهم وما عليهم ، يقول قتادة : الفرقان : هو القرآن أنزله على محمد وفرق به بين الحق والباطل ، فأحل حلاله ، وحرم فيه حرامه ، وشرع فيه شرائعه ، وحد فيه حدوده ، وفرض فيه فرائضه ، وبين فيه بيانه ، وأمر بطاعته ، ونهى عن معصيته »[1].

﴿ على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ :

وصف الله رسوله ﷺ بصفة العبودية ليبين أنه مبلغ عنه ، وليس له إلا أن يبلغ ما نزل عليه ، ولا يليق به أن يفتري على ربه كما ادعى المشركون حين قالوا : ﴿إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾ ، فإن العبودية : تذلل وخضوع واستسلام لله ، ورسول الله ﷺ قد بلغ النهاية في هذا قال تعالى : ﴿ قُلْ إن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[2] . ولذا وصف الله رسوله بهذا الوصف في أجل المواقف وأعظمها : وصفه به في إسرائه به فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ

---

(١) تفسير الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ ط الثالثة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م بمطبعة مصطفى الحلبي بمصر ٣/ ١٦٧ .

(٢) الزخرف ٤٣/ ٨١.

(٣)الإسراء .

لَيْلاً ﴾[٣] . وفي قيام رسول الله بالدعوة إلى ربه فقال : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾[١] .

وعند إنزال القرآن عليه كما هنا وكما في قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾. [٢]

ومع ما في الإضافة في قوله : « عبده » من تشريف وتكريم، ففيها كذلك رعاية وتطمين لرسول الله ﷺ وهل يترك السيد عبده نهبا للضياع وعرضة لسهام الأعداء ؟ وهل يترك الحبيب حبيبه لغدر الغادرين وسفاهة السفهاء ؟ وفي قوله : ليكون للعالمين نذيرا : دليل على عموم رسالته ﷺ وأنها للجن والإنس من يوم مبعثه إلى يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا [٣] وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[٤]. وقال :﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[٥] . وقال ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٦]. وقال ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾.[٧]وفي سورة الجن أيضا قوله : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾[٨] . أي

---

(١) سورة الجن ٧٢/ ١٩.

(٢)سورة الكهف ١٨/ ١.

(٣)سورة الأعراف ٨/ ١٥٨.

(٤)سورة الأنبياء ٢١/ ١٠٧.

(٥) سورة سبأ ٣٤/ ٢٨.

(٦)سورة الأحقاف ٤٦/ ٢٩- ٣١.

(٧) ، (٨) سورة الجن ٧٢/ ١، ٢، ١٩.

تزاحموا لسماع القرآن من رسول الله ﷺ ... وقال في سورة الرحمن : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1] . المرة تلو المرة ، وهو استفهام موجه إلى الجن والإنس .

وهذه الآيات كلها آيات مكية بما في ذلك الآية التي معنا في سورة الفرقان ، وهي بذلك ترد على الحاقدين الظالمين الذين ادعوا زورا وبهتانا أن رسول الله ﷺ كان أقصى ما يؤمله أن يؤمن به أهل مكة ، فلما اشتد أزره قليلا امتدت أحلامه فادعى - معاذ الله - أنه رسول للعرب ، ثم لما انتصر في غزواته ادعى أنه رسول للناس جميعا .

وقد جاءت السنة مؤكدة ما جاءت به هذه الآيات المكية : روى البخاري ومسلم عن جابر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم وبعثت إلى الناس عامة .. »[2] . وعن عكرمة قال : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول : إن الله تعالى فضل محمدا ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء، قالوا : يا ابن عباس فيم فضله الله على الأنبياء ؟ قال رضى الله عنه : إن الله تعالى قال : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، وقال للنبي ﷺ: « وما أرسلناك إلا كافة للناس » . فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس »[3] .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي ، ولا أقوله فخرا : بعثت إلى الناس كافة : الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي فهي لمن لم يشرك بالله شيئا » .

---

(١) الرحمن ٥٥/ في ثلاثين موضعا من السورة .

(٢) أخرجه البخاري في أول كتاب التيمم ، وفي باب قول النبي ،ﷺ « جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا » ومسلم في أول كتاب المساجد .

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٣٩.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ، ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار »[١] .

إلى غير ذلك من الأحاديث والآثار وهي كثيرة .

وإذا كنا قد عرفنا أن العالمين يطلق على ما سوى الله تعالى كما رجحه القرطبي وغيره فلنا أن نتساءل : هل أرسل رسول الله ﷺ لكل المخلوقات بما في ذلك الملائكة والجمادات ؟ بهذا قال بعض الأئمة ، ومنهم الإمام تاج الدين السبكي ، ومحب الدين الطبري وغيرهما : « وذلك لأنه ﷺ ما دعا جامدا ولا متحركا غير الإنسان إلا أجابه بما هو مقتضى :﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها .. الآية﴾ ، دعا غير مرة عدة من أغصان الأشجار فأتته لتسجد له ، ثم أمرها بأن ترجع إلى مكانها ، ففعلت ، ودعا الضب وغيره من الحيوانات العجم فأطاعته ، ودعا الأشجار غير مرة فسمعت ، وأمر الجبل لما رجف فأذعن ، وأرسل إلى نخل وأشجار يأمرهن بالاجتماع إليه ليقضي إليهن حاجة ففعلن ، ثم أرسل إليهن يأمرهن بالرجوع إلى أماكنهن فأجبن ، وغمز الأرض فنبع منها الماء ، وأرسل سهمه إلى البئر فجاشت بالرواء ، إلى غير ذلك مما هو مضمن في دلائل النبوة ، بل ولا دعا طفلا رضيعا إلا شهد له لكونه على الفطرة الأولى إلى غير ذلك مما هو دال على ظاهر الآية المقتضي لزيادة شرفه - ﷺ - من غير محذور يلزم عليه ولا نص يخالفه .. »[٢] .

يقول الألوسي : « وفائدة الإرسال للمعصوم وغير المكلف طلب إذعانهما لشرفه عليه الصلاة والسلام ، ودخولهما تحت دعوته ، واتباعه تشريفا على سائر المرسلين عليهم السلام »[٣] .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ط الثانية ١٣٩٢هـ ١٨٧٢ م ج٢. ص ١٨٦ باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي (رسالة ماجستير) لمحمد محمد أحمد إسماعيل المجلد الثاني ٣٨٠، ٣٨١.

(٣) روح المعاني للألوسي ١٨ / ١٨٨ .

لكن ما جاء به هذا الرسول من هذا القرآن بما فيه من دعوة للإيمان وما يتبعه من عمل وما يترتب على ذلك من ثواب وعقاب يدلنا على أنه مرسل لمن عنده القدرة على القبول والرفض وهما الإنس والجن ولهما أرسل رسول الله ﷺ وإن كان هذا لا يمنع من تشريف الله له وتكريمه إياه بجعل الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، كما أن استجابة الحيوانات والجمادات ومن لا يعقل لدعوته لا يعني أنه بلغها شيئا من القرآن إنما هذا من باب إكرام الله لرسوله وإظهار فضله وشرفه .

بقي أن نعرف : لماذا قدم « للعالمين » على متعلقه ؟ فنقول : إنما قدمه مراعاة للفواصل أو للتشويق أو لإفادة الحصر عند من قال بأنه ﷺ مرسل إلى الثقلين خاصة .

أما ختام الآية بقوله : « نذيرا » والاكتفاء بها عن « وبشيرا » كما ذكر ذلك في غير هذه السورة كقوله : ﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [(١)] . وكقوله : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [(٢)] . فإنما كان هذا الختام كذلك ، لأن المقام في السورة لتهديد المكذبين المعاندين المنكرين لرسالة الإسلام وفي هذا التهديد تطمين لرسول الله ﷺ لأنه يخوف هؤلاء المشركين وينذرهم بكل ألوان العذاب والهلاك في الدنيا والآخرة وهذا لا يكون إلا من الواثق من قوة ربه وشدة بطش إلهه بأعداء الله وأعداء رسله .

﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ :

في هذه الآية أربع صفات .. كل صفة منها تقرر حقيقة من الحقائق ، هي جزء من عقيدة أهل الإيمان ، وهي كذلك تأكيد وتدعيم لما جاءت له آيات هذه السورة من إثبات وحدانية الله ونبوة رسول الله ﷺ ، وأن يوم البعث حق لا شك فيه ، والصفة الأولى أو الحقيقة الأولى هي انفراده سبحانه بملكية السموات

---

(١) سورة الأعراف ٧/ ١٨٨.

(٢) سورة هود ١١/ ٢.

والأرض ، فليس له في هذا الملك شريك إنما هو ملكه وحده ، لا يمتلكه سواه ولا شاركه فيه أحد ، وهو سبحانه حين يقدم هذه الصفة في بداية الآية يريد أن يثبت أنه الإله الواحد الأحد بشيء لا ينكره المشركون ، فقد قال سبحانه : ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[1] .

فإذا سلم المشركون بأن السموات والأرض وما فيهن ومن فيهن ملك له وحده ، فكيف لا يستسلمون له بالعبودية والطاعة ، وكيف صرفوا عبادتهم لآلهة مدعاة لا تملك شيئا في هذا الوجود ؟ من هذا يتضح أن ما أخذه الإمام الفخر الرازي من قوله : الذي له ملك السموات والأرض غير صحيح فقد قال بأن «هذا كالتنبيه على وجوده سبحانه لأنه لا طريق إلى إثباته إلا بواسطة احتياج أفعاله إليه».[2] والواقع أن وجود الله لم يكن محل خلاف بل إن ملكيته وربوبيته للسموات والأرض كانتا محل تسليم من أهل الشرك ، إنما كان موضع الخلاف هو انفراده سبحانه بالألوهية وما يترتب على ذلك من إفراده بالعبودية ، ولذلك كثيرا ما تقرأ في القرآن كيف اتخذ الله من تسليمهم له بربوبيته وهيمنته دليلا يقودهم منه إلى رحاب ألوهيته وعبادته : إلها واحدا وربا معبودا ، اقرأ في ذلك الآيات التي ذكرناها من سورة المؤمنون وما بعدها وقوله : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[3] .

وقوله : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

---

(١) سورة المؤمنون ٢٣/ ٨٤- ٨٧.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ٤٦.

(٣) سورة يونس ١٠/ ٣١، ٣٢.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [1] .

وقوله في سورة الزخرف : ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ... الآيات ... وقوله في أواخر السورة أيضا : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [2] والآيات في هذا كثيرة .

ولأن الملك ملكه تراه كما قال سبحانه : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [3] .

وتراه يقرر هذه الحقيقة في كثير من الآيات فيقول : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [4] .

ويقول في سورة المائدة ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ......، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ...، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [5] .

ويقول : ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ...، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [6] . إلى غير ذلك مما يسوقه القرآن من إثبات ملكيته للسموات والأرض ليتخذها دليلاً على تفرده في هذا الوجود بالألوهية ، وقدرته على نصرة أوليائه وإهلاك أعدائه ، وكم في هذا من تطمين لصاحب الرسالة وحامل لوائها محمد عبد الله ورسوله

---

(١) سورة العنكبوت ٢٩/ ٦١- ٦٣ .

(٢) سورة الزخرف ٤٣/ ٩ - ١٤، ٨٧.

(٣) سورة آل عمران ٣/ ٢٦.

(٤) سورة البقرة ٢/ ١٠٧ ، والمائدة ٥/ ٤٠.

(٥) سورة المائدة ٥/ ١٧، ١٨، ١٢٠ .

(٦) سورة الحديد ٥٧/ ٢، ٥ .

صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ ... ولم يتخذ ولدا .. ﴾ :

« .. ولم يتخذ ولدا .. » هذه هي الحقيقة الثانية ، لو تأملت فيها ستجد أنها تحمل ردا مفحما لمن اعتقدوا هذا الاعتقاد الخاطئ ، ترى ذلك في قوله : « ولم يتخذ . » لأن اتخاذه للولد يعني أنه سبحانه عاجز يحتاج إلى من يساعده ، والعاجز لا يكون إلها ، والمحتاج لغيره لا يستحق أن يعبد ، وفي قوله : « ولدا » ردٌّ آخر لأن الولد لابد له من والدة ووالد ،وإذا كان لله ولد فمن أم هذا الولد ؟ وهل يمكن أن يكون لله زوجة ؟ ومن هي ؟ ولذلك قال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [1] . وإذا كانت له زوجة - كما يدعون - فقد نزل عن رتبة الألوهية لأنه سيكون كالبشر في شهواتهم ، وحاجتهم إلى الزواج ، وحنينهم إلى التناسل ، ولذلك كان القول بأن لله ولدا مماً يرتج له الكون أسفا وكمدا لحال هذا الانسان الجاحد المجاهر بكفره لربه : خالق السموات والأرض ، يقول تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا [2] (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [3].

وكلمة « الولد » تطلق على الذكر والأنثى ، والمشركون من العرب اعتقدوا أن الملائكة بنات الله وأنهم أجسام نورانية لطيفة لا ترى ، فبنوا لها الهياكل من الأحجار والخشب (الأصنام والأوثان) لتحل الملائكة في هذه الهياكل ، فإذا سجدوا لأصنامهم وعبدوها وتقربوا إليها قربتهم عن طريق الملائكة إلى الله زلفى

(١) سورة الأنعام ٦/ ١٠١.

(٢) الإد : كما قال الجوهري : الداهية والأمر النظيع ، وقيل الأد : العجب ، والإدة : الشدة ، والمعنى متقارب ، والمعنى يدور على الشدة والتثا[illegible] انظر فتح القدير ٣/ ٣٥١.

(٣) مريم ١٩/ ٨٨- ٩٣.

.. كما قال تعالى ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [1] وكما قال : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [2] . ويوم القيامة تتبرأ الملائكة من هؤلاء المشركين الذين زعموا هذا الوهم واتخذوا الملائكة وسائط بينهم وبين ربهم ، قال تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ..﴾ [3]. أما دعواهم بأن الملائكة بنات ، فهي دعوى لا دليل عليها ، إذ من أين لهم أن الملائكة بنات ؟ ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [4] والملائكة كما قال تعالى : ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾ [5] . فهم لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة . ثم لماذا جعلوا لله البنات مع أنهم يكرهون البنات : يقول تعالى : ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨)﴾ [6]. ويقول : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥)﴾ [7].

إلى غير ذلك من الآيات التي ترد على المشركين قولهم ومنها ما معنا من قوله : « ولم يتخذ ولدا .. » كما يرد الله بها على كل من ادعى البنوة لله من

---

(١) سورة الزمر ٣٩/ ٣.
(٢) سورة يونس ١٠/ ١٨ .
(٣) سورة سبأ ٣٤/ ٤٠، ٤١.
(٤) سورة الزخرف ٤٣/ ١١٩.
(٥) سورة الأنبياء ٢١/ ٢٦-٢٧.
(٦) سورة الزخرف ٤٣/ ١٦ - ١٨ .
(٧) سورة الصافات ٣٧/ ١٤٩- ١٥٥ .

اليهود الذين قالوا « عزير بن الله » وعلى النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله ، وأنت لو تدبرت فيما بين قوله : الذي له ملك السموات والأرض ، وقوله : ولم يتخذ ولدا ، من تناسق وترابط ، لتبين لك أن الصفة الأولى إذا سلمت - وهى مسلمة عند أهل الشرك - فلابد من التسليم بالثانية وهو أنه - جلا وعلا - ليس له ولد ، لأن من كان مالكا للسموات والأرض فالكل عبيده وعباده وهذا يتنافى مع كون واحد من هؤلاء ولدا له لأن الولد لا يكون عبدا لأبيه ، إنما يكون كأبيه إلها ، وهذا محال ولذا قال تعالى آمرا رسوله ﷺ : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ أي لو فرض - جدلا كما زعمتم - أن للرحمن ولدا فهذا الولد لا بد أن يكون إلها وأنا لذلك أول من يدين له بالعبودية والطاعة . يقول أبو السعود : « وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بشئونه تعالى وبما يجوز عليه وبما لا يجوز. وأولاهم بمراعاة حقوقه ، ومن مواجب تعظيم الوالد تعظيم ولده ... » (١).

ولكن ليس له ولد و لا يمكن أن يكون ذلك، ولهذا قال : ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥)﴾(٢). فترى أنه أثبت ربوبيته وألوهيته وحكمته وعلمه وملكه للسموات والأرض وما بينهما لينفي هذا القول الأخرق . الذي لا يقوم على منطق من عقل أو نقل ، وليس له برهان ولا دليل.

« **ولم يكن له شريك في الملك** » هذه هي الصفة الثالثة ، أو الحقيقة الثالثة التي تقررها الآية الكريمة ، وبها يرد الحق تبارك وتعالى : على من ادعوا البنوة

---

(١) تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضي القضاة أبي السعود محمد بن محمد العمادي المتوفى سنة ٩٥١ هـ . ط محمد على صبيح ج ٥ ص ٥٠.

(٢) الزخرف ٤٣/ ٨٢ - ٨٥ .

لله، لأن الابن شريك أبيه ووارثه بعد وفاته . ،قائم بأمره أو بعض أمره في حياته، وهذا كله محال على الله ، لما في ذلك من محظورات كثيرة منها:العجز والفناء ، والحدوث وغير ذلك ، كما يرد بها على الثنوية الذين « يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان .. » وعلى المجوس الذين « أثبتوا كذلك أصلين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر ، والنفع والضر ، والصلاح والفساد ، يسمون أحدهما : النور والآخر : الظلمة » « والمجوس الأصلية زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين بل النور أزلي ، والظلمة محدثة .. »(١) وهؤلاء وأولئك في ضلال مبين . كما ترد على عباد الأصنام الذين يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، والذين يقولون : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، والذين كانوا يقولون في طوافهم بالكعبة المشرفة

لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك

إلا شريك هو لك تملكه وما ملك

كما ترد هذه الحقيقة على من نسبوا لرسول الله ﷺ وآل بيته الصالحين من عباد الله تصريف هذا الكون وحراسته ، وحفظه نيابة عن الله أو معه ، كما ترى من وصفهم للسيدة الكريمة الطاهرة المباركة : زينب بنت علي بن أبي طالب رضى الله عنها وعن أبيها - بأنها رئيسة الديوان ، ومعنى هذا الوصف أنها تجتمع كل ليلة بأولياء الله في مصر ، لتوزع عليهم البلاد ، ليقوم كل واحد منهم بحراسة الأماكن أو المكان المخصص له .

فأين هذا من قول الله تعالى : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ (٢). ؟ وهل عجز ربنا القوي القادر حتى احتاج إلى السيدة زينب - رضوان الله عليها - لتعقد له هذا الاجتماع مع

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني (٤٧٩ - ٥٨٧ هـ) تحقيق محمد سيد كيلاني - ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م جـ١ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٤ .

البقرة ٢/ ٢٥٥.

أوليائه ليتولوا حراسة البلاد والعباد ؟

ومن اعتقد هذا الاعتقاد الفاسد لم يكتف بهذا إنما وقع في الشرك إلى أذقانه حيث توجه إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وإلى عباد الله الذين اعتقد فيهم الصلاح ، باكيا ضارعا طالبا الغوث ، والعون ، والمدد ، والشفاء ، والغنى، والولد وكأن من توجه إليهم يمتلكون هذا الوجود ، أو كأنهم شركاء لله في ملكه ، ومن حضر مجلس إنشاد لأرباب الطرق الصوفية يرى هذا التذلل لغير الله يقول قائلهم متوجها لرسول الله ﷺ :

يا رسول الله غوثا ومدد   يا رسول الله أنت المعتمد

يا رسول الله أنت لنا سند   يا رسول الله فرج كربنا

ما رآك الكرب إلا وشرد

فهل يطلب الغوث ، والمدد والسند وتفريج الكرب من رسول الله ، عبد الله ورسوله - صلوات الله وسلامه عليه - وهو كما قال له ربه : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) ﴾[1].

كما تسمع في إنشاد القوم قولهم :

على أعتابكم عبد ذليل

كثير الشوق ، ناصره قليل

يمد إليكم كف افتقار

ودمع العين منهمل يسيل

فهل تمد الأيدي تطلب الحاجات من غير الله ؟وهل يتناسب هذا مع توحيد ألوهية الإله ؟ وهل يمكن أن يتوجه عبد من عباد الله إلى عبد مثله يمد إليه كف

الأعراف ٧/ ١٨٨ .

افتقار في ضراعة وتذلل ، يسكب على أبوابه الدموع ، ويظهر أمام قبره الخشوع والخضوع والخنوع ، ويتعلق بأستاره ، ويمرغ جبهته على أعتابه ، ويعتقد أن باب ربه مغلق من دونه لا يفتحه إلاهذا الولي ، وأنه موصد من دونه لا يتوصل إليه إلا عن طريق هذا التقي النقي ؟ وماذا بقي للإله الحق من طاعة العباد له بعد أن صرفوا رجاءهم ونذرهم وذبحهم وقربانهم لغيره ، أو اتخذوهم وسائط يتقربون بها إلى الله ، والله لا يحتاج إلى هذه الوسائط ، فبابه مفتوح آناء الليل وأطراف النهار ، وهو سبحانه يمد يده بالليل ليتوب مسئ النهار ، ويمد يده بالنهار ليتوب مسئ الليل ، وهو القائل ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (1).

فالكل عبيده ، وليس لواحد من هؤلاء معه شركة ولا أمر ولا نهي ولا تصريف ولا تدبير ، وهل للعبد مع سيده شئ ؟ ولذلك يقول سبحانه ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28)﴾ (2).

ولذلك حكم الله بالكفر ، والظلم ، والفسق ، والجهل على من حكم بغير ما أنزل ، لأن من حكم بغير ما أنزل ادعى لنفسه - بغير حق - أن له أمرا ونهيا من دون الله أو معه ومن سلم له بهذا ورضى بحكمه ، ونفذ له ما أمر فقد اتخذه له إلها معبودا مع الله الحق أو من دونه ، والحاكم والمحكوم لذلك في خطر عظيم ، ولتقرأ في ذلك قول الله تعالى في سورة المائدة :﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44)﴾ . ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45)﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47)﴾ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50)﴾ (3).

---

(1) سورة البقرة ٢/ ١٨٦ .

(2) سورة الروم ٣٠ / ٢٨ .

(3) سورة المائدة ٥/ ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ .

وقوله في سورة التوبة : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ .[١]

« روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله -ﷺ - فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيسا في قومه طيئ ، وأبوه حاتم الطائي ، المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ قال ، فقلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال بلى إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم .

يقول ابن كثير : وهكذا قال حذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله» إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا ، وقال السدي : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. لهذا قال تعالى:﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا﴾أي الذي حرم الشيء فهو الحرام،وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع . وما حكم به نفذ ..»[٢].

وقد روى ابن جرير بسنده عن عدي بن حاتم أنه قال حين سمع الآية :

«يا رسول الله أما إنهم لم يكونوا يصلون لهم ؟ قال : صدقت ولكن كانوا يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ، ويحرمون ما أحل الله لهم فيحرمونه » وروى عن عطاء عن أبي البختري أنه قال في الآية ، انطلقوا إلى حلال الله

---

(١)سورة التوبة ٩/ ٣١.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٨ ، ٣٤٩و انظر تفسير ابن جرير الطبري جامع البيان جـ ١٠ ص ١١٤ ، ١١٥ ، الطبعة الثالثة .

فجعلوه حراما ، وانطلقوا إلى حرام الله فجعلوه حلالا ، فأطاعوهم في ذلك ، فجعل الله طاعتهم عبادتهم ولو قالوا لهم اعبدونا لم يفعلوا ... » وقريب من هذا قول ابن عباس لم يأمروهم أن يسجدوا لهم ، ولكن أمروهم بمعصية الله فأطاعوهم ، فسماهم الله بذلك أربابا »[1]. فمن جعل لنفسه حق التشريع من دون الله فهو طاغوت متجبرظالم ،ومن سلم له بهذا الحق ودان له بالطاعة و الولاء فقد خرج من رحاب الإيمان إلى حظيرة الكفر وضل ضلالا مبينا ،يقول تعالى :﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠)﴾ إلى أن يقول:﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾[2].

وهذه الطواغيت التي تفرض ألوهيتها على رقاب العباد تخرج وتخرج معها من أطاعها من النور إلى الظلمات ... من نور الإيمان وما يواكبه من نور الطاعة وهدوء البال واستقرار الحياة إلى ظلمات الكفر وما يتبعه من ذل الانحراف والتشتت والتمزق والضياع وغير ذلك يقول ربنا :﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)﴾[3].

يقول ابن جرير « الطاغوت : كل ذي طغيان على الله فعبد من دونه ، إما بقهر منه لمن عبده ، وإما بطاعة ممن عبده له ، إنسانا كان ذلك المعبود أو شيطانا ، أو وثنا أو صنما ، أو كائنا ما كان من شيء »[4].

---

(١) المرجع السابق .

(٢)سورة النساء ٤/ ٦٠ - ٦٥.

(٣)سورة البقرة ٢/ ٢٥٦- ٢٥٧.

(٤) جامع البيان : لابن جرير الطبري ٣/ ١٩ .

فليتق الله هؤلاء الذين يذرفون الدموع على أعتاب أصحاب القبور من المشهود لهم بالصلاح والخير ، وليطلبوا حاجاتهم ممن يقضى الحاجات ويفرج الكربات ، ويغيث الملهوف . ويجيب المضطر إذا دعاه ، وليعلموا أن الله ليس له شريك في الملك ، وليتق الله هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم آلهة ، فأحلوا ما حلا لهم ، وحرموا ما لم يوافق أهواءهم بغير علم ، وأقاموا هيئات سموها بالهيئات التشريعية فشرعوا ما شاء لهم هواهم ،فأحلوا الربا والزنا والخمروالعري و الخلاعة والمجون وجعلوا الرقص فنا تقام له المعاهد ، وتمنح فيه الأوسمة والشهادات التي وصلت إلى « الدكتوراه » وسموا الغناء والطبل والزمر واللهو العابث ترفيها وترويحا ، وجاءت قراراتهم تبيح التقاء المرأة بالرجل الأجنبي ما دام الأمر بعيدا عن الخيانة الزوجية وبرضا الطرفين ، إلى غير ذلك مما أملاه عليهم شيطانهم اللعين ، فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، وأحلوا قومهم دار البوار . ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾ .[1]

فليتق الله هؤلاء العابثون ، وليعلموا أنهم عبيد الله ، وأن حق التشريع ليس لهم ، إنما هو من خصائص الألوهية التي لها وحدها حق الأمر والنهي ، فمن أعطى لنفسه هذا الحق فهو طاغوت متجبر متكبر ، وكأنه يقول بلسان حاله : أنا شريك لله في ملكه ، أو أنا الإله الذي له في الخلق الأمر والنهي ، ومن اعترف لغير الله بهذا الحق ، فقد أضحى عابدا لغير ربه ، وأصبح مشركا مع إلهه غيره في ملكه ، فسبحان من لم يكن له شريك في الملك ، المتفرد بالتدبير ، المهيمن على خلقه القائل : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[2] . والقائل ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[3] .

---

(١) سورة محمد ٤٧ / ٩ .

(٢)سورة الأعراف ٧/ ٥٤.

(٣)سورة يوسف ١٢ / ٤٠ .

« وخلق كل شيء فقدره تقديرا » :

هذه هي الصفة الرابعة ، أو الحقيقة الرابعة التي تقررها الآية الكريمة وبها تكتمل الحلقة ويتقرر - بما لا يدع مجالا لمشرك أو ملحد - أن الله واحد أحد ، منزه عن الشريك والولد ، متصف بصفات الكمال والجلال .

وقد قال بعض المفسرين بأن قوله : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » رد على الثنوية ، ومن قال بأن النور مصدر الخير والسعادة . وأن الظلام : مصدر الشر والشقاء ، كما أنها ترد على المعتزلة الذين يقولون بأن الإنسان خالق لأفعال نفسه الاختيارية ، ومع تسليمنا بأن ما قالت به الثنوية وما قالت به المعتزلة باطل ، إلا أن قوله تعالى هنا : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » بعيد عن هذه القضية ، ولا يأتي في مجال الرد على هؤلاء وأولئك ، لأن المراد بالخلق هو الإيجاد من العدم لهذه العوالم المحسوسة ، ما علمنا منها وما لم نعلم ، ما نرى منها ، وما لا نرى ، والمراد بتقديرها ليس كما قيل : ما سبق به علم الله في الأزل من إيجاد الأشياء على وجه مخصوص - إنما تقديرها - : جعلها مهيئة على أحسن الوجوه وأعظمها لما خلقت له ، فالإنسان - مثلا - خلقه الله أي أوجده بعد أن لم يكن موجودا - هذا هو الخلق - ثم زوده بآلات الحس والإدراك والعقل والتفكير . ووهب له من القوى ما يجعله قادرا على القيام بما عهد إليه من أمر الخلافة في هذه الأرض من تعميرها والقيام على شئونها ، ونشر ألوية العدل والمحبة في ربوعها والطاعة والعبودية لخالقها وخالقه .. وهكذا ما ترى من مخلوقات في عالم : الحيوان ، والحشرات ، والطيور ، والنبات ، والأفلاك ، وما في السماء وما في الأرض كل شيء أوجده الله بعد أن لم يكن موجودا وجعله مستعدا لأداء المهمة التي خلق من أجلها .. يقول الإمام البيضاوي : « وخلق كل شيء » أحدثه إحداثا مُرَاعىً فيه التقدير حسب إرادته كخلقه الإنسان من مواد مخصوصة وصور وأشكال معينة ، « فقدره تقديرا » فقدره وهيأه لما أراد منه من الخصائص والأفعال ، كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم ، والنظر والتدبير ، واستنباط الصنائع

المتنوعة ، ومزاولة الأعمال المختلفة إلى غير ذلك .[1] ولما كان الخلق لا يخلو من تقدير قال بعض المفسرين : إن التقدير الثاني في قوله : فقدره تقديرا ، مراد به البقاء للأجل المسمى ، فالمعنى أن الله خلق كل شيء على وجه التمام والكمال فقدر لكل مخلوق أجلا مسمى عنده ، تقديرا لا خلل فيه ولا شبهة،ولا يتقدم ولا يتأخر والرأي الأول هو المتبادر من السياق ،ويبقى أن نقول ما قال أبو السعود:

بأن هذه الجملة « وخلق كل شيء »«جارية مجرى التعليل لما قبلها من الجمل المنتظمة مثلها في سلك الصلة ، فإن خلقه تعالى الأشياء على ذلك النمط البديع ،كما يقتضي استقلاله تعالى بإتصافه بصفات الألوهية يقتضي انتظام كل ما سواه كائنا ما كان تحت ملكوته القاهرة، بحيث لا يشذ عنها شيء من ذلك قطعا ، وما كان كذلك كيف يتوهم كونه ولدا له سبحانه ، أو شريكا في ملكه »[2].

« واتخذوا من دونه آلهة .. » :

في هذه الآية بيان لحقيقة الآلهة التي عبدها المشركون من دون الله ، بعد أن ذكرت الآية السابقة ما للإله الحق من صفات الجلال والكمال ، (بضدها تتميز الأشياء ..) فلنقف مع كل كلمة في الآية الكريمة لنرى ما فيها من أسرار وأنوار ، فكل كلمة فيها تثبت أن آلهتهم التي عبدوها ليست موضع عبادة ، وأنهم في عبادتهم لها انحرفوا عن النهج السديد والطريق الراشد .. فقوله : « واتخذوا .. » تعنى أن المشركين تكلفوا المشقة حتى وصلوا إلى هذا الحال من البعد عن الله ، ففطرتهم تدعوهم إلى الإيمان به ، لأن هذا هو العهد الذي أخذه الله على بني آدم يقول تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ

---

(١) تفسير البيضاوي :أنوار التنزيل وأسرار التأويل : لناصر الدين أبي الخير : عبد الله بن عمر البيضاوي ، المتوفى سنة ٧٩١ هـ - ط الأولى بمطبعة الحلبي ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩ م - ٢/ ١٠٩ ، ١١٠.

(٢) تفسير أبي السعود : المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : لأبي السعود محمد بن محمد العمادي ٨٩٦- ٩٥١ هـ ط محمد عليّ صبيح بمصر ، ج٤ ص ٧٨ .

الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [1]. ويقول ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [2] .

يقول رسول الله ﷺ : ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ،كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول :

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [3] .

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم [4]عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم» .

من هذا يتضح لك مدى ما في قوله : « واتخذو ...» من دلالة على معاناة القوم حتى خرجوا من نور الإيمان إلى ظلام الكفر ، وأن ما صنعوه بأنفسهم مخالف لفطرة الله التي فطرهم عليها ...

ومن هنا تعظم مسئولية الدعاة إلى دين الإسلام ، وتبدو مهمتهم مع عظمها سهلة ميسورة لأنهم حين يدعون الناس إلى هذا الدين إنما يعودون بهم إلى فطرتهم الأولى التى شوهتها التربية المغرضة ، وطمستها أتربة الضلال ، وغيرت معالمها وسائل القهر والكبت والتمويه والتشويه لكل ما أتى به دين الحق .

ولعلك تلمح أنه أتى بفاعل « اتخذ » ضميراً ولم يصرح به مع أنه لم يسبق

---

(١) الأعراف ٧/ ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢) الروم ٣٣٠ / ٣٠ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز في باب اللحد والشق في القبر ، وفي كتاب التفسير في تفسير سورة الروم في باب : لا تبديل لخلق الله ، وفي كتاب : القدر في باب : معنى كل مولود يولد على الفطرة .. وقد أخرجاه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ، واللفظ للبخاري .

(٤) اجتال القوم : حولهم عن قصدهم - واجتالهم الشيطان : استخفهم فجال معهم في الضلالة [انظر : المعجم الوسيط ١/ ١٤٩] .

له ذكر وإن كان السياق يدل على أنهم المشركون - « إشارة إلى استهجان نسبة هذا الفعل إلى فاعل معين، توبيخا لهم، وإرشادا إلى المبادرة من كل سامع إلى نفيه عن الله سبحانه »[1].

أما قوله « .. من دونه ...» فهذا يعني أنهم تجاوزوا الحق إلى الباطل، وتركوا النور إلى الظلام، وتخطوا الحقيقة إلى الوهم والخيال، إذ معنى «دون» أدنى مكان من شئ يقال هذا دون ذاك إذا كان أحط منه قليلا، ثم استعير للتفاوت في الأحوال والرتب، فقيل: زيد دون عمرو، أي في الفضل والمرتبة، ثم اتسع فاستعمل في كل تجاوز حد إلى حد، وتخطى حكم إلى حكم من غير ملاحظة وانحطاط أحدهما عن الآخر، فجرى مجرى أداة الاستثناء ..»[2] وكلمة «من» في قوله « من دونه » ابتدائية، فإن اتخاذهم لآلهتهم منشؤه وابتداؤه من تجاوزهم وتخطيهم لما تمليه عليهم فطرهم، وما جاءهم به رسولهم ﷺ.

يقول الإمام البقاعي: ولما كان علوه لا يحد، فكانت الرتب لا تحصى، نبه على ذلك بالجار فقال « من دونه »: أي بعد ما قام من الدليل على أنه الإله وحده من الحيثيات التي تقدمت « آلهة »[3].

وقوله: « .. آلهة ..» فيها من التبكيت لهم ما فيها، فهم حين تركوا لهم الحق، وقعوا في عبادة آلهة، متعددة، ولكم في تعدد الآلهة من تمزق وشتات: يقول تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾[4].

ويقول: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾[5]. إلى غير ذلك من الآيات التي تبين ما في تعدد الآلهة من

---

(١) انظر: نظم الدرر: للبقاعي ص ٣٨٥.

(٢) تفسير أبي السعود ١/ ٥٢.

(٣) نظم الدرر للإمام البقاعي ص ٣٨٥.

(٤) الزمر ٢٩ / ٣١.

(٥) الحج ٢٢ / ٣١.

حيرة وضياع ، وأن الطريق لسعادة الإنسان في عبادة الإله الواحد الأحد .

ولما كان المقام هنا لتوحيد الألوهية قال : واتخذوا من دونه آلهة .. لأن العرب كما ذكرنا كانوا يقرون بأن الله هو ربهم ورب العالمين ، ولكنهم كانوا ينكرون أنه الإله الواحد ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) ﴾ [1]. ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧) ﴾ [2] . وأساس العبودية ليس في الاعتراف بأن الله هو ولي كل نعمة ، وخالق كل شيء، ومالكه ومدبره ، وإنما فيها مايؤدي إليه هذا الاعتراف من التعلق به والحب له ، واللياذ بجانبه ، فكلمة الإله من : وله : إذا تحير ، والوله : استيلاء الحب على قلب المحب وعقله وفؤاده حتى لا يرى في الوجود سوى محبوبه ، ومن حب العبد لإلهه يحب رسوله ، ويحب ملائكته ، ويحب الصالحين من عباده لأن حبيبه يحب هؤلاء جميعا .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ... (١٦٥) ﴾ [3]. وفي قوله ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ قولان : أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله ، فيكون قد أثبت لهم محبة الله ولكنها ليست محبة خالصة إنما يشركون فيها مع الله أندادا ، والثاني : أن المعنى : يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ، ولكن محبة المؤمنين لربهم أعظم وأشد من محبة أصحاب الأنداد لآلهتهم ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يرجح القول الأول ، ويقول : إنما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له ، والقرآن يشهد برجحان هذا القول إذ

---

(١) الصافات ٣٧/ ٣٥، ٣٦ .

(٢) سورة ص ٣٨/ ٤-٧ .

(٣) البقرة ٢/ ١٦٥.

يحكى عن المشركين حسرتهم يوم العذاب وهم يقولون لآلـهتهم : ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) ﴾ [(١)]. ومعلوم أنهـم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية ، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم وأعطوهم ما لله وحده من حق التشريع والأمر والنهى ... [(٢)].

ومن حب العـبد لربه واسـتيـلاء هذا الحب على فـؤاده ، لا ينطق ولا يتحـرك ، ولاينام ولا يستـيقظ ، ولا يؤدي عملا من الأعـمال : إلا واسم ربه بين يديه فكل عمل لا يبدأ فيـه ببسم الله فهو أبتر (أى مقطوع عن الخيـر ، لا بركة فيه) وهذا الحب الذى يجعل العـبد يسكن إلى إلهه ويطمئن إليه ، ولـهذا قيل بأن الإله من أله إلى فـلان أى سـكن إليـه : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [(٣)].

كما أن المحب يلوذ بمحبوبه ويفزع إليه في كل مهامـه ، ولهذا قيل بأن الإله من أله إذا فـزع من أمر نزل به ، وآلهـه غـيره إذا أجـاره قال تعـالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾[(٤)]

فمن أحب إلهه تقـرب إليه بكل ألوان القربات : من صلاة وزكـاة وصيام وحج ومعـاملة وجهاد ، وذبح باسمـه ، ونذر له ، وقسم به وتعظيم له ، وتنفيـذ لأمره وانتهاء عمـا نهى عنه فإن صرف إنسان ما شيئـا من ذلك إلى غير ربه أو أشرك مـعه غـيره فـيه كـان كـافرا مـشركـا لا يغني عنه اعـترافـه وإيمانه بأن الله هو رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم .

وهذا ما جاءت به الآيات تقرره وتوضحـه وتبين أن المشركين اتخذوا ـ لجهلهم ـ من دون الإله الحق آلهـة لا تستحق العـبادة ، لأنهـا متـصفة بصـفات العـجز

---

(١) الشعراء ٢٦// ٩٧، ٩٨ .

(٢) انظر : المسلم في عالم اليوم ـ د. عبدالفتاح عاشور ، الفصل التاسع من الباب الثاني : محبة العبد لربه .

(٣) الرعد ١٣ / ٢٨ .

(٤) النمل ٢٧/ ٦٢ .

والنقص ، وهذه هي صفاتها كما ذكرتها الآية :
« لا يخلقون شيئا و هم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ... » .
فلننظر في هذه الصفات لنرى ما تدل عليه من عجز ومهانة ونقص .
وأول ما نلاحظه هو استعمال الفعل المضارع في قوله : لا يخلقون ... ولا يملكون .. ولا يملكون ... وهذا يعنى أن الخلق والملك لا يقع منها بأي حال من الأحوال ، فالفعل المضارع يدل على التجديد والحدوث .
أما قوله : وهم يخلقون .. فهي جملة اسمية تدل على الثبوت والدوام ، فهذه حقيقة ثابتة دائمة لا تتغير بتغير الزمان والمكان .
والأمر الثاني هو مجئ الفاعل في هذه الأفعال ضمير جمع للعقلاء ... وآلهتهم لا تعقل : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ؟ (١)

فاستعمال ضمير الجمع للعقلاء من باب التهكم بالعابدين لهم والسخرية منهم ، وربما لاستعمال هذا الضمير ملحظ آخر و هو أن من هذه المعبودات من يعقل ، كالملائكة ، وعزير ، والمسيح عليه السلام فيكون ذلك من باب التغليب .

والملاحظة الثالثة هى التنكير في قوله : شيئا .. وضرا ، ونفعا ، وموتا ، وحياة ونشورا، والتنكير هنا يدل على القلة ، فهم لا يخلقون شيئا من الأشياء وإن كان تافها حقيرا ، ولا يملكون دفع ضر أو جلب نفع مهما كان هذا الضر وذلك النفع في التفاهة والقلة ، كما أنهم لا يملكون موتا وهو انقضاء الحياة بأي شكل من الأشكال لأن الذى يتوفى الأنفس هو الله ، ولاحياة لأى كائن من الكائنات فواهب الحياة للأحياء هو الله ، ولا نشورا وهو إخراج الناس من القبور فإن الله وحده هو الذى يبعث من في القبور .

والملاحظة الرابعة في هذه الصفات : هي مجئ قوله تعالى : ﴿ ولا يملكون

(١)الأعراف ٧/ ١٩٥ .

لأنفسهم ضرا ... بعد قوله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون .. وهذا للرد على من توهم أن هذه الآلهة وإن لم تخلق إلا أنها قادرة على الضرر أو النفع ، فنفى الله عنهم ذلك وبين أن هذا خارج عن حدود طاقتهم وملكهم .

وإذا كانت هذه الآلهة لا تملك دفع ضر عن نفسها أوجلب نفع لها ، فهل تستطيع ذلك لغيرها ؟

كما تلاحظ أنه بدأ بالضرر قبل النفع : لأنه الأهم ، وفي دفعه نفع كذلك ، وذكر النفع بعد الضر ، لأنه ربما يملكون ذلك ولكنهم يتركونه عمدا لأن أحد لايريد ضر نفسه ... »[1] وأعاد قوله : ولايملكون ..مع الموت والحياة والنشور لما لذلك من عظيم الشأن ، وجليل الخطر ، وقوة القدرة .

وفى عطف هذه الصفات بالواو إشارة إلى أن كل واحدة منها كافية فى سلب الألوهية عنهم ، فكيف إذا اجتمعت .. وفى هذه الآية تذكرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد من هؤلاء الذين انتسبوا لدين الإسلام ومع ذلك يتمسحون بالأبواب ، ويقبلون الأعتاب ، ويستصرخون بأصحاب القبور ، ويرجون منهم أن يدفعوا ما نزل بهم من ضرر أو أن يحققوا لهم ما تهفو إليه نفوسهم من منافع ، و من أجل هذا يتقربون بذبائحهم ونذورهم إلى هؤلاء ، ويقسمون بهم لا يحنثون في أيمانهم ، وربما حنث الواحد منهم فى يمين حلفه بالله العظيم ولكنه يخاف سطوة شيخه وصاحب القبر أن يبطش به وأن ينزل نقمته وغضبه في مال أو صحة أو ولد وما درى هؤلاء أن ذلك من خصائص الألوهية وأن من اعتقدوا فيهم هذا الاعتقاد يبرأون إلى الله من ذلك ولو تدبروا لرأو كيف جرت حكمة الله في هؤلاء الصالحين فهذا عمر قتل بيد أبى لؤلؤة المجوسي ، وهذا عثمان الذى كانت تستحى منه الملائكة قتل بيد الثوار الغاشمين الظالمين وهو يقرأ كتاب الله ، وهذا علي رضى الله عنه قتله عبد الرحمن بن ملجم وهو يؤذن لصلاة الفجر بالكوفة ، وهؤلاء آل بيت رسول الله ﷺ

---

(١) أنظر نظم الدرر : للبقاعي ص ٣٨٦ .

(٤)

ﷺ وما حدث لهم : هذا الحسن يموت مسموما والحسين يموت في كربلاء عطشان مقتولا، وأهله الكرام يقادون أسرى ، وغيرهم وغيرهم رضي الله عنهم جميعا لم يستطع أحد منهم أن يدفع عن نفسه ضرا أو يجلب لنفسه نفعا ولم يستطع أحد أن يحفظ على نفسه حياته فكيف يطلب منهم مالم يستطيعوا أن يحققوه لأنفسهم . إن الله وحده هو الإله الحق وهو القادر على ذلك ، وبقدرته وحكمته وعلمه ورحمته أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا .

وإذا كانت آيات السورة في إثبات أن الله حق وأن ما أنزله على رسوله هو الصدق وأن الرسول المبلغ عن ربه النبي المرسل و الرسول المبشر المنذر ، وكانت الآيات الأولى من السورة قد أثبتت الحقيقة الأولى وهى أن الله واحد أحد فلننتقل مع الآيات إلى إثبات أن ما أنزل على رسوله هو الحق وأن ما ادعاه الكافرون في القرآن بهتان وزور وانحراف عن الطريق ..

يقول ربنا : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

الكلمات والإعراب :

« وقال الذين كفروا ...» الواو حرف عطف ، والجملة بعدها معطوفة على قوله : « واتخذوا من دونه آلهة ..»

والكفر : ضد الإيمان ، وأصله من الكفر ـ بالفتح ـ وهو الستر والتغطية ، ولهذا سمى الكافر كافرا ، لأنه : يستر الحق ولا يظهره ، وسمى الزارع كافرا ، لأنه يستر الحب بالتراب ، قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ (١) .

وقيل لليل كافرا لأنه يغطي كل شيء بسواده ، وسمى من جحد نعمة من النعم كافرا ، لأنه أخفاها ولم يظهرها ، ومنه قوله ﷺ في النساء بأنهن يكفرن

---

(١) الحديد ٥٧/ ٢٠ .

العشير ، وقيل : تكفر بالشيء، وتكفر في سلاحه ، دخل فيه ،وهكذا نجد معاني كلمة الكفر تدور على ستر شيء وإخفائه وعدم إظهاره .

« .. إن هذا إلا إفك افتراه .. » اسم الإشارة للقرآن الكريم ، وإن : بمعنى «ما» أي ما هذا إلا إفك افتراه ، من باب قصر الموصوف على الصفة . والإفك: هو الكذب المصروف عن ظاهره ، وهو أسوأ أنواع الكذب ، وإفك : كضرب، و علم ، إفكا : بالكسر ، و الفتح ،و التحريك ، وأفوكا : كذب »[1].

وافتراه : أى اختلقه والجملة صفة للإفك : أى ما هذا القرآن إلا كذب اخترعه واختلقه محمد ليس له أساس من الواقع .

« وأعانه عليه قوم آخرون .. » الجملة معطوفة على « افتراه » .

« ..فقد جاءوا ظلما وزورا....»الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها « لكن لا على أنهما أمران متغايران حقيقة ـ يقع أحدهما عقيب الآخر ، أو يحصل بسببه ، بل على أن الثاني هو عين الأول حقيقه ، وإنما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري ، و«قد» لتحقيق ذلك المعنى ، فإن ما جاءوه من الظلم والزور هو عين ما حكى عنهم ، لكنه لما كان مغايراً له في المفهوم ، وأظهر منه بطلانًا رتب عليه بالفاء ، ترتيب اللازم على الملزوم تهويلا لأمره ... »[2].

وقوله : ظلما : مفعول به لجاء ، أو منصوب بنزع الخافض ، أو حال ، فيجئ فيه ما في قولك : جاء زيد عدلا ، من الأوجه . وقوله « زورا» معطوف على « ظلما » والزور : هو الكذب والباطل ، وسمي زورا : لانحرافه وميله عن الحق ، والزور هو الميل ومن ذلك قوله تعالى في أصحاب الكهف : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ [3].

---

(١) انظر القاموس المحيط ٣/ ٣٠٣ ، والمعجم الوسيط ١/ ٢١ .

(٢) تفسير العلامة أبي السعود ٤/ ٧٩.

(٣) الكهف ١٨/ ١٧.

فمعنى : تزاور عن كهفهم : تميل عنه فلا تدخل إليه .

« **وقالوا أساطير الأولين** » الأساطير : جمع أسطارة وأسطورة ، والسطر : [بإسكان الطاء وفتحها] الخط والكتابة والجمع : أسطار ، كسبب وأسباب ، وجمع الجمع أساطير ، و الأساطير : ما سطره الأوائل مما لا أصل له [1]. إنما هي محض الخيال ، أو كما يقول ابن فارس : فأما الأساطير فكأنما أشياء كتبت من الباطل فصار اسما لها مخصوصا بها .

يقال : سطر فلان علينا تسطيرا : إذا جاء بالباطل [2].

و« اكتتبها » أى أمر غيره أن يكتبها له ، لأنه كان أميا لايقرأ ولا يكتب ، وجملة : اكتتبها : خبر ثان ، وأساطير : خبر أول ، والمبتدأ محذوف تقديره : هذه أو هو أو هي أساطير ، ويجوز أن يكون « أساطير » مبتدأ ، وجملة اكتتبها: خبر .

« .. **فهي تملى عليه بكرة وأصيلا** .. » الفاء حرف عطف والجملة بعدها معطوفة على : اكتتبها ، ومعنى تملى عليه : أى تلقى عليه تلك الأساطير ليحفظها ، وبكرة : أول النهار ، وأصيلا : آخر النهار .

« .. **قل أنزله الذى يعلم السر في السموات والأرض .. إنه كان غفورا رحيما ..** » .

السر : هو كل ما خفى مما لا سبيل إلى العلم به عن طريق الوحي . إنه كان غفورا رحيما : أى كان أزلا وما يزال غفورا واسع المغفرة رحيما : تحيط رحمته بكل مخلوقاته .

المعنى الإجمالي :

في الآيات الثلاث الأولى أثبت الله ألوهيته والتي كان من آثارها أنه نزل

---

(١) انظر : مختار الصحاح ص ٢٩٨ .

(٢) معجم مقاييس اللغة : لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المتوفى سنة ٣٩٥ هـ / تحقيق وضبط عبد السلام هارون ط الثانية ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٧٠ م - مصطفى الحلبي جـ ٣ ص ٧٢ ، ٧٣ .

الفرقان على عبده محمد ليكون هذا النبي للعالمين نذيرا ، وفي هذه الآيات الثلاث التالية يرد على أهل الكتاب ما قالوه في هذا الرسول والقرآن الذى أنزل معه ، فيحكى قولهم الذى ادعوا فيه أن القرآن كلام مختلق مكتوب اصطنعه محمد واستعان في ذلك بأهل الكتاب ، ويرد عليهم بأن هذا الذى جاءوا به ظلم وبهتان وزور وافتراء على الله وعلى رسوله وعلى كتابه ، كما ذكر لنا قولهم بأن ما في القرآن من قصص وحكايات منقولة عن الأولين ، من و حي الخيال ، جاء محمد بمن يكتبها له ثم تليت عليه مرة بعد مرة فحفظها وتلاها على الناس مدعيا أنها وحي من ربه ،. والله ـ عزوجل ـ يدحض هذه الشبهة وسابقتها ببيان أن هذا القرآن ليس كما زعموا ، إنما أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض وأنهم بقولهم هذا مستحقون لنقمة الله العاجلة ، وعذابه الذى لايرد عن الظالمين ولكنه أمهلهم ليتوبوا عن كفرهم : « إنه كان غفوراً رحيما .. » .

نظرات في الآيات :

« وقال الذين كفروا .. » :

في الآية السابقة قال : واتخذوا من دونه آلهة .. فكان الظاهر أن يقول هنا : وقالوا إن هذا إلا إفك .. ، ولكنه عدل عن ذلك ليبين لنا السبب الذى جعلهم يقولون في القرآن العظيم الذى لا ينكر صدقه إلا جاحد مكابر ، وليكون هذا السبب ذما لهم ، وتشنيعا عليهم ، وتهويلا لما قالوه في القرآن ، والسبب هو : الكفر ، وقد عرفنا أن كلمة الكفر تدور على ستر شيء ما ، ومحاولة إخفائه ، وهؤلاء هم الكفرة ستروا الحق وجحدوه وأنكروه وغالبوا فطرتهم التي تدعوهم للإيمان وأنكروا شمس القرآن الساطعة ، ونورها الوهاج ، وقالوا فيه ما قالوا ، ولو رجعوا إلى الحق ، وتركوا فطرتهم كما خلقها الله لنطقت ألسنتهم قائلة : إن للقرآن لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة . وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ، هكذا قال الوليد بن المغيرة المخزومي في لحظة صفت فيها فطرته . وأصغت إلى نداء الحق واستولى عليها نور هذا القرآن ، ولكنها عادت

تلتوى وينطق صاحبها بالكفر قائلا : ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)﴾ (١). و لكن من الذي قال ذلك ؟ هل هم كفار مكة جميعا ؟ أو واحد منهم ؟ أوجماعة ؟ قيل بأن ذلك جماعة من غلاة الكفرة وهم : النضر بن الحارث ، وعبد الله بن أمية ، ونوفل بن خويلد . ومن على شاكلتهم .

وقيل : قائل ذلك هو النضر بن الحارث ، وإنما جعل القول لهم جميعا لأنهم رضوا بما قال . بقي أن نعرف بأن اختيار كلمة « الكفر » تعنى أنّ مواقفهم ليست نابعة من عقيدة راسخة إنما هي المكابرة والعناد ، ولو تركوا هذه المكابرة لانضموا تحت راية الإيمان ، و في هذ ا ما يطمئن حملة دعوة الإسلام ، وبين لهم أن ما يبذلونه في سبيل إعلاء كلمة الله لابد أن يصل إلى غايته بإذن الله ، وأنهم ـ وإن وجدوا كثيرا من النصب والتعب في دعوة الناس إلى دين الحق ، فإن النصر حليفهم ، ومما يدلهم على أن الكفر غير أصيل في النفس البشرية أن الكثير من الكفرة يدخلون كل يوم ـ من أول عهد النبوة وإلى يوم الناس هذا ـ في دين الله أفواجا ، ومن دخل في هذا الدين قل أن يخرج منه ، وما ذلك إلا لما يشعر به من آمن بالله من حياة ، فيها كل ما تعنيه وما تحمله كلمة الحياة : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾ (٢).

« .. إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ..» .

هذا القول : أراد به المشركون التشويش على القرآن والرسول المبلغ له ، ليصرفوا أنفسهم وغيرهم عن الاستجابة لدعوتهم ، فلننظر ما تحمله هذه الألفاظ والعبارات من معان تحقق لهم ما أرادوه : أشاروا للقرآن باسم الإشارة هذا » للحط من شأنه ، والاستهانة به ، وقصر صفة شنيعة أتوا بها نكرة لتفيد التهويل ، وكأنهم قالوا : ما هذا القرآن إلا كذب مفترى ، وكأنه في نظرهم لا

---

(١) المدثر ٧٤/ ٢٤، ٢٥.
(٢) الأنعام ٦/ ١٢٢

يحمل إلا هذا الكذب ، وليس فيه سواه ، واختاروا من الكذب - الذى حصروا فيه القرآن - لونا مقيتا ، هو الكذب الذى يقلب الحقائق ويغيرها بل إن الكذب نفسه هو المقلوب الذى لا يعرف ظاهره من باطنه ، وهذا ما تشير إليه كلمة «الإفك» وأضافوا لذلك أمرا عجيبا بعيدا عن كل تصور يمكن أن يتفوه به من عنده أدنى مُسْكَة من عقل ذلكم هو قولهم بأنه افتراه ، فهل يعقل أن يكذب الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه ، والافتراء : ليس مجرد اختلاف واختراع لكلام لا حقيقة له ، إنما هو كذلك ولكنه بلغ الغاية في الإختلاق والإختراع ، حتى ليدعو من يسمعه إلى أن يتعجب ويدهش ، ثم زادوا على هذا شيئا يدعوا إلى العجب فقد ادعو بأن هناك من أعان محمدا على تأليف ما يدعيه من الوحي ، وهو أمر يدعوا إلى العجب حقا ، لأنه لو كان هذا القرآن منسوبا لواحد من البشر لأضحى في الذروة من الشرف والكرامة والمنزلة ،ومن الذى يرفض أن يكون هذا القرآن منسوبا إليه ، فيقال هذا من تأليف فلان ؟ ولكن أنى لبشر أن يأتي بمثل هذا القرآن بل أين للإنس والجن القدرة على أن يأتوا بأقصر سورة فيه ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) ﴾ (١).

ومما يدل على بعدهم عن الحقيقة ادعاؤهم بأن الذين أعانوه هم قوم من أهل الكتاب ، فكيف وهذا القرآن أعجزهم وهم الفصحاء البلغاء ؟ كيف يقال بأن الأعاجم أعانوا محمدا على اختراع و تأليف هذا القرآن ؟

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ (٢).

---

(١) يونس ١٠ / ٣٨، ٣٩ .

(٢) النحل ١٦/ ١٠٣ .

وأهل الكتاب الذين عناهم المشركون إما أن يكونوا اليهود فقد كانوا موضع تقدير من المشركين يقولون أهل الكتاب الأول . أو هؤلاء الذين أسلموا من أهل الكتاب كعداس ، وعائش مولى حويطب بن عبد العزى ، و يسار مولى العلاء بن الحضرمي ، و جبر مولى عامر .. وغيرهم ، وهذا الذى قاله المشركون بعيدا عن الحق والحقيقة ، ولهذا قال تعالى : « فقد جاءو ظلما وزورا » بعد أن ساق قولهم في معرض التعجيب منه ، ورتب عليه هذا الحكم المؤكد بقد . والمجئ بالظلم والزور ـ سواء قلنا بأن « ظلما » منصوبة بنزع الخافض أو على المفعول أو على الحال ـ مما يستحق منك أن تتأمل في هذه الصورة لأناس يحملون على عاتقهم شيئا محسوسا ، ويأتون بين أيديهم بشيء ملموس ، فإذا بهذا الشيء هو الظلم والزور !! وأى زور؟ إنه ظلم هائل ، لا يقدر قدره ، وزور أى كذب كبير لا يبلغ أحد غايته ،و هذا ما تلمحه من التنكير في قوله :ظلما وزورا .

« وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة و أصيلا » .

بعد أن ادعى المشركون أن القرآن كلام مكذوب مختلق ، استعان محمد ﷺ في تأليفه بقوم آخرين من أهل الكتاب أراد الحق- تبارك وتعالى - أن يبين لنا وهما أخر من أوهامهم التي تصوروها في كيفية الاستعانة بغيره فقال : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها..الآية ».

ولنتوقف عند قوله : اكتتبها ، فهي تعنى أنه ﷺ بحث عمن يكتبها له لأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وإذا كان قد جاء بمن يكتب له القصص فماذا يقول المشركون فيما في القرآن من علوم ومعارف ووجوه « الإصلاح للبشر، وألوان من علم الغيب في الحاضر والماضي والمستقبل وهي أمور لا قدرة لمحمد ولا لغيره من البشر بل ولا من الجن أن يأتوا بشئ منه بل ولا شيء من قصص القرآن ولابأقصر سورة من هذا القرآن العظيم ؟

ولننظر مرة أخرى في قولهم « فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » لنرى ما في الفاء من ترتيب وتعقيب فهو بمجرد أن حصل على من يكتبها له فكتبت بدأ في

حفظها على الفور ، والجملة بعد الفاء جملة اسمية وهذا يعنى دوام هذه الحالة وثبوتها واختيار الفعل المضارع « تملى » في الإخبار عن المبتدأ « هى » يدل على تجدد هذا الفعل وحدوثه المرة تلو المرة ، وفي اختيار هذين الوقتين معناه الاستخفاء عن عيون الناس فهو يختار وقت هدوء الحركة في الصباح الباكر وعند دخول الليل حتى لا يراه أحد . أو أرادوا أنه ﷺ يحفظ في الصباح ما سيقوله في يومه ، ويحفظ من المحفظ آخر النهار ما يردده في ليلته ،و هذه جرأة عظيمة منهم على رسول الله ﷺ الصادق المعصوم وافتراء على الله وعلى كتابه وهل يمكن لإنسان أن يستخفي بهذا الأمر فيأتي بالعلماء والكتاب لينسخوا له من الكتب الأوائل ثم يجلس أمام محفظ يحفظه هذا الذي كتبوه ، ويبقى أمره سرا هذه السنوات ؟ « إن هذا لا يقوله من له مسكة من عقل ، فإن من المعلوم الذي لا يخفى على عاقل أن إنسانا لو لازم شيئا عشرة أيام بكرة وعشيا ، لم يبق منه من يعرفه ويطلع على أحواله أحد حتى عرف ذلك منه ، فلو أنكره بعد لافتضح فضيحة لا يغسل عنه عارها أبدا ، فكيف والبلد صغير والرجل عظيم شهير وقد ادعوا أنه مصر على ذلك إلى حين مقالتهم وبعدها لا ينفك ، وعيروه بأنه معدم يحتاج إلى المشي في الأسواق وهو يدعوهم إلى المعارضة ولو، بسورة من مثله ، وفيهم الكتاب والشعراء والبلغاء والخطباء ، وهم الأكثر منه مالا ، وأعظم أعوانا فلا يقدرون .. »[1] .

ولذلك أمر الله نبيه -ﷺ- أن يرد عليهم ادعاءهم وأن يرشدهم إلى الحق وأن يرغبهم ويرهبهم فقال له : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ، إنه كان غفورا رحيما ﴾ وهذا الأمر لرسول الله ﷺ « قل» يعني عدة أمور : أولها : التحدي لهؤلاء المكذبين المعاندين ، وثانيها : الثقة في الحق الذي مع هذا النبي العظيم ، وثالثها : أن هذا القرآن ليس مخترعا من عند محمد ﷺ إنما هو وحي من الله نزل على عبد الله يؤمر من ربه فيقول له : قل كذا وكذا ،

(١) نظم الدرر للبقاعي ص ٣٨٩.

ورابعها : دقة رسول الله ﷺ وأمانته فيما بلغ عن ربه إذ لم يخف حرفا واحدا ولا كلمة من القرآن إنما بلغ ما أوحاه الله إليه كما سمعه من ملك الوحي جبريل عليه السلام : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [١] وبهذا تستطيع أن ترد على من افترى على الله كذبا ، وادعى بأن كلمة « قل » يجب أن تحذف من القرآن بحجة أنها أمر لرسول الله ﷺ لا أمر لنا ، وهو رأي مأفوف ، لم يخطر ببال أحد عبر القرون من أي عدو من أعداء الإسلام على كثرتهم وشدة عدائهم .

وفي التعبير عن فاعل « أنزل» بأنه « الذي يعلم السر في السموات والأرض أبلغ الرد على المشركين ، فهو يقول لهم بأن هذا القرآن نزل من مكنون علم الله ، أنزله الإله الحكيم العليم الذي لا تخفى عليه خافية في السموات أو الأرض ، وهو لذلك ليس كما ادعيتم ، إنما جاء بأوجه الإصلاح لبني الإنسان ، وحمل من الخير للبشرية ما لا يحيط به الجنان ، وأخبر عن غيب في الماضي والحاضر والمستقبل مما لا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق الوحي الإلهي الذي تمثل في هذا القرآن .

وفي التعبير عن علم الله بالفعل المضارع « يعلم » دليل على مواكبة هذا العلم لكل حركة وسكون في هذا الوجود ، وإحاطة الإله العليم بها .

قال تعالى : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾ [٢] وقال سبحانه : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩)﴾ [٣] .

وقال ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ

---

(١) سورة الحاقة ٦٩ / ٤٤- ٤٧ .

(٢)سورة الأنعام ٦/ ٥٩ .

(٣)سورة غافر ٤٠ / ١٩ .

فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) ﴾ [١] . إلى غير ذلك من الآيات التي تبين كيف أحاط علم الله بهذا الكون : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [٢].

وكلمة « السر » تعني كل ما غاب عنا مما لا سبيل لمشاهدته أو معرفته ، فكم في السموات والأرض من عوالم وأسرار استأثر الله بعلمها ولم يطلع عليها إلا من شاء من خلقه وهناك الزمان في ماضيه ، وفيه من الأسرار الكثير ، كم من الأمم البائدة ، والأحوال الغابرة ، وخلق السموات والأرض وما كان من ذلك كله ، وهذا لا سبيل لمعرفته إلا عن طريق الإخبار به من علام الغيوب،قال تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[٣].

وهناك غيب الحاضر في عوالم الملائكة والجن والسموات والأرض والجنة والنار والقبر وما فيه ، وكله وأمثاله حاضر وواقع ولكن الطريق إليه مسدود إلا إذا دل عليه من يعلم السر وأخفى ، أما غيب المستقبل ، فقد أخبر القرآن عن الكثير مما سيقع فوقع كما أخبر لم يتخلف منه خبر واحد ، وهناك الكثير مما تحمله الأيام ويأتي به الزمان . ويحدث في كل لحظة وآن ، وهو قبل وقوعه غيب وسر من أسرار الله .

والليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة .

قال تعالى : ﴿إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير ﴾ . وهذه مفاتيح الغيب كما قال رسول الله - ﷺ - ، وعلمها عند ربي ، لا يعلمها إلا هو ، ولذا كان - جل وعلا- يعلم السر في السموات

---

(١) الحديد ٥٧ / ٤ .
(٢) الملك ٦٧ / ١٤ .
(٣) الكهف ١٨ / ٥١ .

والأرض ... فعلمه بالجهر من باب أولى فسبحانه من إله عليم خبير ...

أما ختام الآية بقوله : إنه كان غفورا رحيما « فهو تذييل قصد به ترغيب هؤلاء المشركين في مغفرة الله ورحمته ، وكأن سائلا سأل فقال : يا رب ماذا لو تاب هؤلاء عن شركهم ، وكفوا عن طغيانهم ، وعادوا إلى صوابهم ، ودخلوا في دين الإسلام ؟ .

أو هذا تذييل قصد به ترهيب القوم وزجرهم ، وكأن سائلا سأل فقال : يا رب هؤلاء المعاندون الظالمون لماذا لم تعاجلهم بالعقوبة مع أنهم مستحقون لها فقال « إنه كان غفورا رحيما » ولعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده، وقد حدث ، ولعل الله يشرح صدور بعضهم فيصبح جنديا من جنود الله ، وقد كان فهو يقول لهم : بادروا بالتوبة والرجوع إلى الله قبل فوات الأوان وإلا لعاجلتكم بالعقوبة التي تستحقونها ولا يغرنكم إمهالكم لأن إمهالكم لحكم عالية وأسرار عظيمة فإن الله كان غفورا رحيما ؟ .

وبعد أن ذكر أباطيلهم في القرآن ، وما كان من قولهم في كيفية تلقي رسول الله ﷺ لهذا القرآن ، وبعد أن أبطل أقوالهم ، وانتقل إلى ما قالوه في شخص رسول الله ﷺ ، ليبين مدى حماقتهم فيما ادعوه فقال : ﴿وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ .

الكلمات والإعراب :

« وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟» .

« ما » استفهامية مبتدأ واللام حرف جر ، واسم الإشارة « هذا » مجرور باللام ، و« رسول » بدل من اسم الإشارة ،و الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر

المبتدأ ، وفصل حرف الجر عن اسم الإشارة في قوله : « مال هذا ...» سنة متبعة موافقة للرسم العثماني ، وقوله « يأكل الطعام » في محل نصب حال من الرسول، وقوله : « ويمشي في الأسواق معطوف على : يأكل الطعام ، والمقصود من الاستفهام الإنكار والنفي فكأنهم قالوا : إن صح ما يدعيه من الرسالة فما باله لم يخالف حاله حالنا ؟ وكيف يكون رسولا مع أنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟

« ..لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا .. » :

لولا : أداة تحضيض ، وأنزل فعل ماض في معنى المضارع أي هلا ينزل إليه ملك .. بدليل قوله : أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ، فقد عطف على « أنزل » قوله : أن يلقى .. أو تكون وقوله : فيكون : منصوبة على جواب التحضيض « لولا وقرئ : فيكون ، بالرفع وهذا يخرج على أحد وجهين : إذ العطف على « أنزل » فهي في معنى المضارع ، أو هي خبر لمبتدأ محذوف تقدير فهو ، وتكون الجملة الواقعة جوابا للولا تقديرها : فهو يكون معه نذيرا .

« .. أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها .. » :

طلبوا أولا أن يكون الرسول ملكا حين قالوا متعجبين : مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ثم تنزلوا عن هذا إلى طلب أن يكون معه ملك يساعده ويسانده ويعضده ، ثم تنزلوا عن هذا إلى طلب أن يلقى إليه كنز فلا يحتاج بعده إلى الضرب في الأسواق ، والعمل وكسب العيش ، وأخيرا نزلوا إلى طلب أن يكون له بستان فيه من الثمار ما يكفيه ويغنيه عن غيره .

« .. وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ... » :

أظهر في موضع الإضمار فقال : وقال الظالمون : ليبين السبب الذي حملهم على قول ما قالوا :والمسحور هو : المغلوب على عقله ، الذي لا يعي ما يقول ، وقيل : المسحور الذي له سحر ، والسحر هو الرئة ، ومن كان كذلك لا يصح – في زعمهم – أن يكون رسولا.

« انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » :

الأمثال : هي الأقوال النادرة ، والاقتراحات الغريبة ، وهذه هي أقوالهم ومقترحاتهم التي حكاها الله عنهم حين تنظر فيها تراها أغرب من الخيال ، وكأنها القصص الغريبة التي يتندر بها وتسير بها الركبان .

« فضلوا » أي انحرفوا عن القصد ، ولم يستطيعوا إليه الوصول وأصل الضلال : ضياع الشيء وذهابه في غير حقه ، ولذلك قالوا : أضل الميت ، إذا دفن، وضل اللبن في الماء إذا : استهلك فيه ولم يعد نه أثر [١] .

« فلا يستطيعون سبيلا» أي لا يجدون طريقا للطعن في نبوتك إلا بهذا الطريق الملتوي الذي يدل على جهلهم وحماقتهم .

« تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار، ويجعل لك قصورا » :

تبارك : أي كثر خيره ، و« ذلك » إشارة إلى ما اقترحوه ، وجنات : بدل من « خيرا » والمراد بها : جنات الدنيا لا الآخرة ، لأن جنات الآخرة ، سبقت مشيئة الله أنها لرسول الله ﷺ ، أما جنات الدنيا ، وبساتينها ، وحدائقها وما في الدنيا من قصور ومتاع ، فإن رسول الله ﷺ قد رفضها ، واختار طريق الإقلال من متاعها وزينتها ، وعرضت عليه الجبال أن تكون ذهبا فأبى ، ونام على حصير حتى أثر في جنبه الشريف - إلى آخر ما هو معلوم من سيرته صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله : « ويجعل » بالجزم ، معطوف على موضع جعل ، فإن موضعها الجزم جوابا للشرط ، وقرئ « بالرفع » على الاستئناف « وقد تقرر في علم الإعراب أن الشرط إذا كان ماضيا ، جاز في جوابه الجزم والرفع ، فجاز أن يكون جعل ههنا

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ٣٥٦ .

في محل جزم ورفع ، فيجوز فيما عطف عليه أن يجزم ويرفع » [1] .

« والقصور » جمع قصر : وهو كل بناء فخم واسع ، مبني من الحجارة ، وإنما سمي بذلك لأن الساكن به مقصور عن أن يوصل إليه ، لأن من معاني القصر : الحبس ، يقال : قصرته : اذا حبسته ، وهو مقصور ، أي محبوس .

قال الله تعالى : ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ ، وامرأة قاصرة الطرف : لا تمده إلى غير بعلها ، كأنها تحبس طرفها حبسا ، قال الله سبحانه:(فيهن قاصرات الطرف) [2] .

المعنى الإجمالي :

بعد أن قرر الله وحدانيته ، وأثبت ألوهيته ، بدأ يقرر رسالة رسوله ، وأن الكتاب الذي معه حق لا ريب فيه ، فساق اعتراضاتهم وشبهاتهم حول القرآن ثم ردها بقوله :﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ وفي الآيات التي معنا يسوق اعتراضاتهم حول حامل هذا القرآن ، وكيف تعجبوا من أن يكون الرسول من البشر : يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ثم ما كان من طلبهم أن يأتي ملك من السماء يشهد له بالرسالة ويؤازره فيها فإذا لم يكن هذا ولا ذاك فلا أقل من أن يكون لهذا النبي كنز يلقيه له ربه فلا يحتاج إلى عمل وطلب للرزق ، وإذا لم يكن له هذا الكنز فليكن له بستان فيه من الثمار ما يغنيه عن الكد والتعب ، وهي مطالب تدل علي غاية ظلمهم وتعنتهم ، ومن أبرز ألوان ظلمهم اتهامه ﷺ بأنه رجل مسحور مغلوب على عقله فلا يصح لذلك اتباعه . وهذا التعنت الذي لا يوصل إلى الحق قادهم إلى الضلال ولهذا لم يستطيعوا الوصول إلى الطريق الواضح المستقيم ، والله عز وجل يرد عليهم وهو يطمئن رسوله فيبين بأن الإله الذي فاض خيره على العالمين إن شاء جعل لك أفضل وأعظم من هذا الذي اقترحوه حدائق وبساتين تجري من تحتها الأنهار ، ويجعل

---

(١) فتح القدير :للشوكاني ٤/ ٦٣ ، ٦٤.

(٢) انظر : معجم مقاييس اللغة ٥/ ٩٦ ، ٩٧ ، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٤٥ .

لك قصورا مشيدة عظيمة لا قصرا واحد، ولكنه ما شاء ذلك لحكم سامية ظهرت آثارها فيما رأت الإنسانية من حال هذا النبي الزاهد العظيم ..

نظرات في الآيات :

« وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » .

المقصود من هذا القول وما بعده تكذيب رسول الله ﷺ فيما جاء به عن ربه ، وتنفير الناس من دعوته ، وقبل هذه الآيات كانت حملتهم على القرآن ، واتهام رسول الله ﷺ بأنه يأتي بمن يكتب له هذا الذي يدعي أنه وحي من الله ، ثم يجلس بين يدي معلم محفظ ، يتلو عليه الآيات حتى يحفظها ، وليس هذا من عند الله كما زعم .

وهنا يتعجبون في أسلوب ساخر منكر من رسول الله الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وقد ظنوا لفهمهم العاطل وفكرهم الباطل أن الرسل لا يمكن أن يكونوا من البشر إنما يجب أن يكونوا من الملائكة ، يقول الإمام الشهرستاني : كانت الفرق في زمان إبراهيم الخليل عليه السلام راجعة إلى صنفين اثنين ، أحدهما : الصابئة ، والثاني : الحنفاء ، فالصابئة : كانت تقول : إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ،ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط ، لكن المتوسط يجب أن يكون روحانيا لا جسمانيا ، وذلك لذكاء الروحانيات وطهارتها، وقربها من رب الأرباب ، والجسماني بشر مثلنا يأكل مما نأكل ، ويشرب مما نشرب ، يماثلنا في المادة والصورة . قالوا : ولئن أطعمتم بشرا مثلكم، إنكم إذا لخاسرون ... الخ ما قال رحمه الله »[1] .

ولذلك أمر الله رسوله أن يقول لهم ردا على مقترحاتهم في سورة الإسراء : ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ . وبين أن هذا الفهم الخاطئ هو الذي صد الناس عن الإيمان بالله ورسله فقال : وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشرا رسولا ؟ وقد رد عليهم فقال : ﴿ قل

(١) الملل والنحل : للشهرستاني ١/ ٢٢٣٠، ٢٣١.

لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ (١) .

وهذا المعني هو ما نجده في سورة الأنعام أيضا من قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ (٢) .

ومن قبل العرب كان الكثير من الأمم السابقة ، فهؤلاء قوم نوح كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٢٤) ﴾ . ومثلهم قوم هود ، قال تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) ﴾ .

وهذا هو فرعون وملؤه قالوا لموسى وهارون : ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) ﴾ (٣) .

وفي سورة إبراهيم يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) ﴾ (٤) .

وكم في هذه الآيات من عبر وعظات ،ودروس نافعات .

---

(١) الإسراء ١٧ / ٩٥ .

(٢) الأنعام ٦/ ٩ .

(٣) المؤمنون ٢٣/ ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٧ .

(٤) إبراهيم ١٤/ ٩ - ١١ .

فهـذا الموقف من أهل مكة في ردهم لرسالة رسول الله ﷺ ، مـوقف قديم ، أوحى به الشيطان إلى أتباعـه فتخيلوا واعتـقدوا أن الرسول لا يمكن أن يكون من البشر ولابد أن يكون روحانيا ، فانحرفوا عن القصد وضلوا سواء السبيل .

وأنت ترى في قـولهم هذا غاية التـعدي لحـدود الأدب ، فهم يشـيرون إلـيه باسم الإشـارة « هذا » وهو اسم إشارة للقـريب للحط من شأنـه وتحقيـره ، وأتوا بصفة الرسـالة ، سخرية منه وتهكما به ، وإلا فـهم غير معتـرفين ولا مؤمنين بأنه رسول حتى يصفوه بهذا الوصف .

وجاءوا بقولهم : يأكل .. ويمشي ، ليقـولوا بأن هذه عادته التي تتكرر دائما ، وليست حالة عابرة ، ومثل هذه العادات التـي تدل على البشرية ولا تجعل له ميزة على غيره من الناس لا تجتمع مع ما يدعيه من أنه رسول من عند الله .

وهذا هو سبب النزول يوضح لنا مطالب القوم ، وسوء فهمهم ، فقد أخرج ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عـباس رضي الله تعالى عنهما أن عـتبـة ، وشيـبة ابني ربيـعة ، وأبـا سفـيان بن حـرب ،والنضر بن الحـارث ، وأبا البختري ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأباجهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية ، وأمـية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيه بن الحجاج ، ومنبـه بن الحجاج، اجتمـعوا فقال بعضـهم لبعض : ابعثوا إلى مـحمد وكلموه وخاصـموه حتى تعذروا منه فبعـثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجـتمعوا لك ليكلموك ، فـجاءهم عليه الصـلاة والسلام فقـالوا : يا محمـد إنا بعثنا إليك لنعـذر منك ، فإن كـنت إنما جئت بهـذا الحـديث تطلب به مـالا جمـعنا لك من أموالنا ، وإن كنـت تطلب الشرف فنحن نسـودك (أي نجعلك سيـدا علينا) وإن كنت تريد ملكا ملكناك ، فـقال رسـول الله ﷺ ما بي مما تقـولون ، ما جئـتكم بما جـئتكـم به أطلب أموالـكم ، ولا الشرف فـيكم ، ولا الملك علـيكم ، ولكن الله بعـثني إليكم رسـولا، وأنزل علي كـتـابا ، وأمرني أن أكـون لكم بشـيـرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقـبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في

الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله عز وجل بيني وبينكم ، قالوا : يامحمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضنا عليك ، فسل لنفسك ، فسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة تغنيك عما تبغي ، فإنك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم ، فقال لهم رسول الله ﷺ ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله تعالى بعثني بشيرا ونذيرا ، فأنزل الله في قولهم ذلك ، « وقالوا مال هذا الرسول .. الخ » . وأنزل قوله :﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) ﴾ [١] .

« لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ؟ أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ؟» .

لقد تعجبوا أولا من إرسال رسول من البشر : يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ولكنهم يرون واحدا منهم يأتيهم بآية بينة ، وعلامة واضحة ، ومعجزة ظاهرة تشهد له بصحة ما يدعيه من الرسالة ، فهل يمكن أن يكون هناك من البشر رسل ، يتلقون الوحي بطرف الملائكية والروحانية ، ويلقونه إلى الناس بطرف البشرية ؟ .

ومع وضوح هذه الحقيقة وأن الرسل للبشر لابد أن يكونوا من البشر ومن المحال أن يكونوا ملائكة ، إلا أن القوم كغيرهم من الأمم السابقة ما زالوا

(١) الآيات من سورة الإسراء ١٧ / ٩٠ - ٩٣ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٣/ ٦٢ ، ٦٣ ، وروح المعاني : للألوسي ١٨ / ٢٣٧.

يعيشون في هذا الوهم ، ويطلبون المحال ، إلا أن هذه الصورة ، وهذا المطلب : أن يكون الرسول ملكا ، بدأت تهتز لما يرون من صدق رسول الله ﷺ ، ولهذا بدأوا يتنازلون عن اعتقادهم الأول في أن الرسول لابد أن يكون من الملائكة إلى طلب أن يكون معه ملك يساعده ويسانده ويؤيده ويشهد له فيما يبلغ عن ربه ، وما علم هؤلاء الحمقى لأن رؤية الملك على صورته أمر لا قبل لهم به ، لأن الملائكة خلق عظيم من مخلوقات الله ، لهم من الصفات ما يجعل الإنسان غير قادر على رؤيتهم إلا بإذن خاص من الله سبحانه ، واستعداد روحاني يستطيع أن يتلقى عن هؤلاء الملائكة ، كما كان من حال رسل الله عليهم السلام ، وهذا رسول الله ﷺ حين نظر إلى جبريل وقد بسط أجنحته في الأفق فسد الأفق خر مغشيا عليه ، وكان-عليه السلام - حين يتلقى الوحي يتفصد عرقا في اليوم البارد، ويجد لذلك شدة عظيمة ، ومن المعلوم أن ملك الوحي كان يخترق السبع الطباق في لمح البصر ، ينزل بهذا القرآن إلى رسول الله ﷺ ، وأنه عليه السلام كان يصيح في المكذبين للرسل صيحة تهلكهم ، وهو الذي حمل قرى قوم لوط على جناحه ثم كفأها على ما فيها ومن فيها بعد أن نجى الله لوطا ومن آمن معه .

وهذا إسرافيل - عليه السلام - ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، فأى قدرة لهؤلاء الملائكة؟ وهل في مقدورالإنسان أن يراهم كما خلقهم الله ؟ وهل ما طلبه المشركون من وجود ملك مصاحب لرسول الله ﷺ مطلب صحيح ؟ أو هو محض الخيال والوهم ؟ .

وانظر مرة أخرى إلى قولهم : (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا). لترى أن هذه الفقرة من الآية أتت تجيب على سؤال مقتضاه : إذا كنتم قد رفضتم الإيمان بحجة أن هذا الرسول بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وليس ملكا، فهل لكم أن تسلموا بأن الرسول يمكن أن يكون من البشر بعد أن رأيتم صدقه وأمانته ؟ فقالوا : لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ؟ أو يلقى إليه كنز؟ أو

تكون له جنة يأكل منها ؟ فبدأوا هذا المطلب بأداة التحضيض« لولا » لحثه -عليه السلام - على تحقيق ذلك ، وأتوا بكلمة « أنزل إليه » ، فأفادت كلمة «الإنزال » أنه من السماء ، ولا يعنيهم من أنزله إنما هم يريدون ملكا من أي منزل، وهذا ما تفهمه من مجئ الفعل مبنيا للمجهول ، أما قوله « إليه » فهي تفيد الوصول والانتهاء إلى رسول الله ﷺ ، ومرادهم أن الملك : بدايته من السماء ، ونهايته : في الأرض عند محمد -عليه السلام - فهو باق على صورته الملائكية من لحظة نزوله إلى مجيئه ، ومما يؤكد هذا اختيارهم لكلمة « تلك » دون كلمة رسول مثلا، فمعناها أنه ما زال على ما كان عليه من صفة الملائكة ، أما الفاء في قوله : « فيكون » فهى تفيد الترتيب والتعقيب ، وهي تعني في هذا المقام أن الملك بمجرد نزوله سيباشر مهمته على الفور وهي تأييد لمحمد فيما يقوله ويخبر به عن ربه ، واختيار الفعل المضارع « يكون » للدلالة على استمرار هذا الملك ، وبقائه مع رسول الله ﷺ ، وملازمته له ، وعدم تركه بصعوده إلى السماء أو خفائه عنه وعنا وقتا من الأوقات، ودل على هذا أيضا قولهم : « معه » فهى تفيد المصاحبة والملازمة وقد بلغ من عتوهم أن اقتصروا على الإنذار فقالوا : « فيكون معه نذيرا» أي يكون هذا الملك مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه نذيرا ، ينذرهم ويخوفهم عذاب الله ، وليتهم ذكروا أن الملك ينذرهم ويبشرهم ، ولكنهم اختاروا الانذار وحده وأنهم بذلك يسخرون مما يحذرهم ويخوفهم به النبي المصطفى ﷺ .. والنذير : صفة مشبهة تدل على ملازمة هذه الصفة للملك ، فكأنهم قالوا : بأن الإنذار علامة بارزة وصفة ثابتة لهذا الملك الذي سينزل على رسول الله ﷺ ، وهو تعنت يدل على مدى جرأة القوم على ربهم وعلى رسولهم وفي قولهم : أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها : تلمح تخبطهم ، وانتقالهم في مطالبهم من حال إلى حال ، فهم يريدون بهذا المطلب أن يقولوا : بأن صفة الرسالة لا تتناسب مع ما يقوم به الرسول ﷺ من سعي على رزقه ، وعمل من أجل الحصول على قوته ، فليكن عنده من المال ما يكفيه وزيادة ، وهذا يتمثل في إلقاء كنز إليه ، أو في امتلاك حديقة غناء ، وجنة فيحاء فيها الظل

والثمر يستريح فيهـا ويأكل من ثمارها شأنه في ذلك شأن الملوك وأصحاب الجاه والسلطان .

فانظر معي إلى قصور نظرهم ، ومدى ضيق أفقهم وكيف انحصرت همتهم في هذه الدنيا ، وما فيها من مال ومتاع ، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)﴾ [1] .

وفي التعبير عن الإلقاء وحصول الجنة بالمضارع للدلالة على استمرار هذا الأمر فهم يطلبون شيئا لا ينفد ، وفي مجئ الإلقاء في صيغة المبني للمجهول ما يدل على أنهم لا يبحثون عن المصدر الذي يلقي إليه هذا الكنز ، إنما هم يريدون أن يروا مالا متدفقا وليكن هذا المال من أي جهة كانت ، وإن كانت آية سورة هود قد دلت على أن هذا الإلقاء من جهة السماء وذلك قوله تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[2] .

ومع ما في كلمة الكنز من معاني الكثرة ، تأتي نكرة لتفيد الكثرة العظيمة التي بلغت النهاية ، إن كانت هناك نهاية للمال المجموع المكنوز ، كما أتت كلمة « جنة » نكرة أيضا للدلالة على عظمها وأنها جنة تليق بمقام العظماء من الناس : أصحاب الجاه والسلطان .

« وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » .

ولا ريب أن من طلب ما سبق على سبيل التعنت لا على سبيل البحث عن الحق ظالم بين ظلمه ، فإن من يطلب الحق لا يسلك هذا الطريق المظلم ، ولا

(١) الزخرف ٤٣/ ٣١ -٣٥ .
(٢) هود ١١/ ١٢.

ينحرف عن الغاية المنشودة ، ولكن القوم عموا عن الطريق من البداية ، وراحوا يتمحلون الأعذار ، ويضربون الأمثال ، ويراوغون بعيدا عن كل دليل صادق ، ولهذا عدل عن قوله : « وقالوا .. إلى : وقال الظالمون ... » ليبين أن هذا الذي قالوه من الظلم الذي أصبح صفة من صفاتهم ، وسمة بارزة في حياتهم ، ومن أبين الظلم وأشده ما تراه في هذه القولة الشنيعة التي قالوها لأتباع رسول الله ﷺ ولكل من حدثته نفسه باتباع هذا الرسول « إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » ..

والمسحور هو الذي غلب على عقله فأصبح يهذي بما لا يعرف ، أو المسحور هو الساحر الذي « صارالسحر له طبعا فهو يفرق بما جاء به بين المرء وزوجه وولده ، ونحو ذلك ، وعبروا بصيغة المفعول إشارة إلى هذا ، وهو أنه لكثرة ما يقع منه من ذلك صار وكأنه ينشأ عنه عن غير اختيار » .[1]

والمعنى الأول تراه كذلك في سورة الإسراء بهذا النص : « إن تتبعون إلا رجلا مسحورا »[2] .

قالوها لمحمد ﷺ وأصحابه ، وقال فرعون لموسى عليه السلام :

« .. فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا »[3] .

وقالها أصحاب الأيكة لشعيب عليه السلام :﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) ﴾[4] .

ومعنى المسحرين : أي الذين سحروا مرة بعد مرة ، فازداد خبلهم وهذيانهم ، وهي حالة قريبة من الجنون ، وكثيرا ما اتهم أهل الضلال أنبياء الله بهذا الجنون ، لينفروا الناس من الإيمان بهم ، ترى ذلك في كثير من الآيات : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) ﴾[1] .

---

(١) نظم الدرر : للبقاعي ٣٩٦ .
(٢) الإسراء ١٧ / ٤٧ .
(٣) الإسراء ١٧ / ١٠١ .
(٤) الشعراء ٢٦ / ١٨٥ ، ١٨٦ .

وفي سورة القلم يقول : ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾ . وقد رد عليهم هذا في أول السورة فقال ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [2] .

وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١٨٤﴾ [3] .

وهذه التهمة : تهمة الجنون وجهها فرعون لموسى ، وقالها قوم نوح لنوح عليه السلام وقالتها عاد لهود وهكذا كل الأمم مع أنبيائها حتى قال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [4] .

أما وصفه عليه السلام بالسحر فقد رأينا قولهم بأنه مسحور ، وقالوا في القرآن بأنه سحر مبين وقالوا في رسول الله ﷺ بأنه ساحر كذاب ، وقد قيل هذا أيضا للأنبياء من قبله : قالها فرعون لموسى وهارون ، وقالها بنو إسرائيل لعيسى عليه السلام ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ ﴾ [5] .

فقول المشركين في رسول الله ﷺ هنا : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ، ليس بالأمر الجديد في تاريخ الرسالات والمرسلين ، وهو قول بشع ظالم يدل على الحمق والجهل المبين ، ولم لا يكون قولا ظالما أحمقا جاهلا ،وقد قصروا الاتباع على رجل مسحور ؟ والاتباع : هو اللحوق ،واللحوق التزام ومتابعة ، وقد رأى

---

(١) سورة الحجر ١٥ / ٦ .

(٢) سورة القلم ١-٤ .

(٣) سورة الأعراف ٧ / ١٨٤ .

(٤) سورة الذاريات ٥١ / ٥٢ ، ٥٣.

(٥) سورة الصف ٦١/ ٦ .

المشركون ما في أصحاب رسول الله ﷺ من الحب له ، والتعلق به ، وملازمته ، فهو أعز عليهم من أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وأهليهم ، فعبر المشركون عن هذا الحال بقولهم : إن تتبعون .. ثم أرادوا أن ينفروهم من هذا الذي لزموه وأحبوه فوصفوه بأنه رجل مسحور ، وفي اختيار كلمة رجل وتنكيرها سوء أدب إذ كيف يعبر عن العلم الخفاق والشمس الساطعة ، والنور الباهر ، والقرشي الهاشمي ، والنبي العظيم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه - كيف يعبر عنه بذلك، ولكن القوم أرادوا - قاتلهم الله - لرسول الله ﷺ تصغيرا وتحقيرا ، ثم وصفوا هذه النكرة بوصف أثيم وهو أنه عليه السلام : مسحور ، أي سحرا هائلا جعله يتكلم بما لا فائدة له عندهم ، وما فائدة النور للعميان ، والصياح للنجدة لمن أصيب بالصمم ، وصدق الله إذ قال : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) ﴾ (١). وبعد أن ذكر القرآن ما قالوه في الله ، وفي كتابه ، وفي رسول الله ﷺ ، مما تقشعر منه الأبدان ، وتأسى القلوب ، أخذ يسلي النبي الكريم، ويذهب عنه ما يجد من حزن لعدم إيمان قومه فقال : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ وهذا الالتفات من الغيبة والحديث عنهم وعن شبهاتهم - إلى مخاطبة الرسول ﷺ فيه إيناس له ، وتسلية ، وتثبيت ، وتطمين ، وعناية وحفاوة به عليه السلام ، ولهذا قدم ذكره فقال : انظر كيف ضربوا لك الأمثال ، فقدم قوله : « لك » على « الأمثال» وساق شبهاتهم في معرض التعجب ، وأتى بكلمة « الأمثال » ليدل على عدم استقرارهم على حالة واحدة ، فهم يريدونه تارة ملكا ، وأخرى بشراً معه ملك ، ومرة ثالثة غنيا من الأغنياء صاحب مال وكنوز ، ورابعة صاحب حديقة مثمرة يأكل منها وأخيرا اتهموه بأنه مسحور غلب على عقله ، لا يدري ما يقول مما يدل على

---

(١) سورة النمل ٢٧ / ٧٩ - ٨١ ..

تخبطهم فيما ساقوه من حالات عجيبة تستحق أن تكون مثلاً وأمثالا لغرابتها التي فاقت كل خيال ، وليس هذا شأن من يطلب الحق ، فإن من يطلب الحق تكفيه المعجزة ، ومعجزة رسول الله ﷺ هي القرآن الذي يشهد له بأنه مرسل من عند ربه ، ومن تأمل القرآن علم أنه لا يمكن أن يكون من عند بشر ، إنما لابد أن يسلم بأنه من عند خالق القوى والقدر ، العليم الخبير ، ولكن الظالمين لا يريدون الوصول إلى الحقيقة الواضحة الساطعة، إنما يريدون إثارة الشبهات لحجب نور الحق عن القلوب ، لذا تراهم لا يستقرون على شيء وإن كان في نفسه باطلا ، ولهذا قال تعالى ﴿ فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ ، والضلال : ضياع الشيء وذهابه ، ومن ذلك قولهم : أضل الميت : إذا دفن ، ذاك كأنه شيء قد ضاع ، وقولهم : ضل اللبن في الماء ، اذا لم يبق له أثر [1] ، فالفاء في قوله « فضلوا » سببية ، ومتعلق «ضلوا» محذوف لارادة العموم ، ومعنى الضلال قد اتضح لنا ،فيكون المعنى : أن هؤلاء المشركين بحماقتهم وضربهم للأمثال ، وما أثاروه من الافتراضات والمجادلات والمماحكات ، أضاعوا أنفسهم وأهلكوها ، وانغمسوا في الباطل ، وانحرفوا عن القصد ، ولم يهتدوا إلى شيء يوصلهم إلى بر الأمان ، وينقذهم مما هم فيه من تشتت وضياع ، والفاء الثانية في قوله : فلا يستطيعون سبيلا تفسيرية ، توضح لنا كيف ضلوا ، وأنت ترى معي : استعمال الفعل المضارع : « يستطيعون » . الذي يدل على التجدد والحدوث ، وتنكير « سبيلا » الدال على العموم ، لتصور لنا هذه العبارة قوما حائرين لا يستطيعون في الحال ولا في المآل الوصول إلى طريق-أي طريق- يوصلهم إلى ما يبتغون ، وما يحبون ، فهم لذلك كمن ضرب في بيداء موحشة ، يشعر فيها بالوحشة والانقطاع ، ويمكن أن يتوصلوا إلى سبب واحد معقول يقدح في نبوة محمد ﷺ .

والمراد - كما يقول العلامة الألوسي - « نفي أن يكون ما أتوا به قادحا في نبوته - ﷺ - ونفي أن يكون عندهم ما صلح للقدح قطعا على أبلغ وجه ، فإن

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ٣/ ٣٥٦.

القدح إنما يكون في القدح بالمعجزات الدالة عليها ، وما أتوا به لا يفيد ذلك أصلا، وأنى لهم بما يفيده »[1] .

وإذا كان القوم قد تاهوا في بيداء الضلالة ، وعموا عن طريق الحق ، ولم يهتدوا إلى وسيلة يطعنون فيها في هذا الرسول العظيم ، فهل ما اقترحوه من الثراء والجاه والمال والجنات أمر صعب المنال ، لا يمكن أن يتحقق هنا يأتى قوله : ﴿ تبارك الذي - إن شاء - جعل لك خيرا من ذلك : جنات تجري من تحتها الأنهار، ويجعل لك قصورا ﴾ ليبين أن هذا أمر راجع إلى مشيئة الإله الذي فاض خيره ، وعم فضله على خلقه ،وقد سبقت مشيئته أن يكون رسوله على هذا الحال من حياة الكفاف ، يجوع يوما، ويشبع يوما ، ويمر عليه وعلى أهله الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال وما يوقد في بيته نار ، ليضرب المثل العالي في القدرة على الانتصار على النفس ، ولتسري دعوته تخترق حواجز القول ، وتستولي على الأفئدة دون ضغط من هنا أو هناك ، وربما لو كان من البداية صاحب سلطان أراده من أتاه مؤمنا : حماية وسندا وقوة ، ولكنها دعوة الإسلام، بزغ فجرها دون أن يصاحبها عرض من أعراض الحياة ، وحتى من اشترطوا في إسلامهم أن يوليهم رسول الله ﷺ بعض ما يفتح الله به عليه إذا ما نصره الله ، رفض الرسول هذا المطلب ، وبين لهم أنه عبد الله ورسوله وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، وبعد أن استقرت دعوته ، والتفت حولها القلوب ، فتح الله له البلاد ، وساق له الأموال ، ومكن له ولأصحابه في الأرض ، ومع ذلك بقى زاهدا في أعراض الدنيا ، لا يستطيع أن يبيت وفي بيته دينار ولا درهم قبل أن ينفقه في سبيل الله ، وبهذا جمع الله له بين الأمرين ، ولله الحكمة البالغة .

يقول صاحب الظلال - عليه رحمة الله - والله لم يرد لرسوله -ﷺ- أن يكون له كنز ، ولا أن تكون له جنة ، لأنه أراد أن يكون قدوة كاملة لأمته ، ينهض بتكاليف رسالته الضخمة الهائلة ، وهو في الوقت ذاته يسعى لرزقه كما يسعى

---

(١) روح المعاني : للألوسي ١٨ / ٢٣٩ .

رجل من أمته ، فلا يقولن أحد من أمته يكد لعيشه : لقد كان رسول الله ﷺ مكفي الحاجة ، لا يعاني صراع العيش ، ومن ثم فرغ لعقيدته ورسالته وتكاليفه ، فلم يعقه عائق مما أعاقني ، فها هو ذا رسول الله - ﷺ - يعمل ليعيش ، ويعمل لرسالته ، فلا أقل من أن ينهض كل واحد من أمته بنصيبه الصغير من تكاليف هذه الرسالة - وقدوته أمامه - لقد انهال المال بعد ذلك على رسول الله - ﷺ - كي تتم التجربة من جانبها الآخر ، وتتم القدوة ، فلم يدع هذا المال يشغله أو يعطله ، فكان كالريح المرسلة في جوده ، حتى يستعلى على فتنة المال ويرخص من قيمته في النفوس ، كي لا يقولن أحد بعد ذلك : إنما نهض محمد - ﷺ - برسالته لأنه عاش فقيرا لا يشغله من المال شاغل ، فها هو ذا المال يأتيه غزيرا وفيرا ، ، ولكنه يمضي في دعوته كذلك ، شأنه يوم أن كان فقيرا . » [1].

ولو عدنا إلى الآية نتأملها، ونتدبرها ، ونقف عند كلماتها لوجدناها لمسة حب ، ويد حنان تزيل عن الرسول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ما وجد من حزن لإعراض قومه ، وانصرافهم عن الحق واتهامهم له وللنور الذي جاء معه، وتبدأ الآية بقوله : « تبارك » وقد عرفنا معناها في أول السورة ، وهي هنا تلفت الأنظار إلى أن الخير الذي فاض على الخلائق ، والبركات التي حلت بهم ، مردها إلى الله وحده ، وأن من بيده خزائن السموات والأرض هو الإله القادر على أن يحقق لرسوله أكثر وأعظم مما اقترحه هؤلاء المكذبون ، وفي التعبير عن هذا المعنى بالماضي دليل على ثبوت هذه البركة وثباتها وأنها دائمة أبدا ، وفي مجئ الفاعل اسم موصول وصلته « إن شاء جعل لك خيرا .. الخ » ما يناسب المقام ، فإن المقام هو الرد على المعاندين وتطمين رسول رب العالمين . وفي قوله : « إن شاء » لفتة قوية إلى أن ما يرونه من عدم توفر المال أو البستان الذي طلبوه عنوانا ودليلا على الرسالة ليس له من سبب إلا مشيئة الله التي اقتضت حكمته أن يكون نبيه هكذا لحكم وأسرار لا تخفى على من تدبر واعتبر ، وقوله : جعل

---

(١) في ظلال القرآن : للشهيد سيد قطب ط . التاسعة - دار الشروق ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م المجلد الخامس ج١٩ ص ٢٥٥٣.

لك خيـرا .. » كم في خطاب نبي الله بقـوله تعالى : « جـعل لك .. » من إيناس وتطمين ؟ وكم في تنكير كلمة « خيرا» من تكثير للخير وتعظيم ؟ وبعدأن أطلق هذا الخبـر ليشمل كل خـير يمكن أن يخطر على بال ، عمـد إلى ما طلبوه فـقال : جنات تجرى من تحتها الأنهار ،وهم قد طلـبوا جنة ، فذكر لهم : جنات ووصفها بأنها تجري من تحتها الأنهـا ر » والأنهار جمع نهر ، وهو الماء العذب ، وليست - إذن - نهرا واحدا إنما هي أنهار ، وفي قوله « تجري » دلـيل على استمرار جريانها وتجدده ، وفي قـوله « من تحتهـا » إشارة إلى ما فـيها من أشجـار باسقة وقـصور عظيمـة ، كأنهـا غرف الجنة التي قـال الله فيـها : ﴿ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ (١) .

وإذا كان الكنز الذي طلبوه لينفق منه رسـول الله ﷺ فيظهر بمظهر الأثرياء ، فقد قال الله تعالى : ويجعل لك قصورا » فإن القصور هي مظهر الثراء والأثرياء لا الكنوز المدفـونة والتـي قد لا يـراها أحـد من الناس - وأنت ترى أنه عـبـر في جـانب الجنات « بجعـل » وفي القصـور : بيـجعل «وما ذلك إلا لما تحـتاج إليـه القصـور من تجديد دائم حتى تسـتمر على مـا هى عليه من أبهة وعظمـة بخلاف الجنات . كمـا أن في استعمـال المضارع إشارة إلى هذا ولله الحـمد والمنة ، وانظر إلى استعمال كلمة « قصورا » ،وما تحمله كلمة القصر من محتويات القصور من الخدم والحـشم وما شـابه ذلك ، وهى ليست قـصرا إنما هي « قصـور » ولعل من قالوا « مال هذا الرسول .. » امتـدت بهم الأعمار إلى أن رأوا ما فتح الله به على رسوله مـن أرض خيبـر ووادي القرى وغـيرهمـا وما كان يأتيـه من المال ، ورأوا كذلك ما فتح الله على أصحاب هذا الرسول من كنوز كسرى وقيصر وغيرهما ، وكيـف أن الرسول عليـه السلام فـهم من هذه الآية وأمثـالها أن الكـريم إذا وعد وفى،وأن هذا الشرط لابد أن يتـحقق فـتصرف فـيما وعـده الله به تصرف الملاك فيما يمتلكون ، فوعد سراقـة يوم الهجرة أساور كسرى ، وأعطى تميم الداري بلد الخليل من أرض الشـام من مملـكة الروم ، وأعطى خـزيم بن أوس الذي يقـال له

---

(١) سورة الزمر ٣٩ / ٢٠ .

«شويل » كرامة بنت عبد المسيح بن بقيلة من سبي الحيرة من بلاد العراق من مملكة فارس، وكل منهم قبض ما أعطاه - له الرسول - ﷺ - عندما فتحت هذه البلاد فكانت معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ .

ولكن لماذا وصل الأمر بكفار مكة إلى هذا التبجح وهل وقفوا عند حد في تكذيبهم وعنادهم ؟

هنا تأتي الآيات التالية تجيب عن مثل هذه التساؤلات ، وتخوف هؤلاء المشركين ، وتنذرهم وتتوعدهم ، وتبين سوء مآلهم فتقول :﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً (١٣) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (١٤) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً (١٦)﴾.

الكلمات والإعراب :

« .. **بل كذبوا بالساعة ..** » « بل » حرف ابتداء -كما قال ابن هشام ، فما بعدها - إذن - بداية كلام جديد ، وقال الزمخشري ، وأبو حيان : هي حرف عطف ، فقوله : كذبوا بالساعة ، معطوف على قوله : وقالوا ما لهذا الرسول .. وسواء كانت حرف ابتداء أم حرف عطف فهي للإضراب الانتقالي من جملة إلى أخرى ، أهم من الأولى .

و« الساعة » ليست هي الوقت المحدد بستين دقيقة ، إنما المراد بها يوم القيامة، وسميت بذلك لوقوعها بغتة ، أو لسرعة الحساب فيها ، فإن الله هو أسرع الحاسبين .

« ..وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا » :

« وأعتدنا » أي هيأنا وأعددنا ، والكلمة في أصلها تدل على الحضور

والقرب ، قال الخليل : يقولون هذا فرس عتد : أي متى شاء صاحبه ركبه [1] .

والسعير : النار المشتعلة شديدة الاشتعال ، والسعير : فعيل بمعنى مفعول ، من سعرت النار إذا أوقدتها ، والمسعور : المجنون ، والحريص على الأكل وإن ملئ بطنه [2] .

« .. إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا » :

هذه الجملة الشرطية صفة لسعيرا ، والتأنيث في قوله : رأتهم لأن السعير النار ، والنار مؤنثة ، وقيل لأن السعير علم لجهنم ، « وكفى بجهنم سعيرا » [3] .

والتغيظ : إظهار الغيظ ، والغيظ أشد الغضب .

والزفير : إخراج النفس بعد مده ، وقال الراغب : هو ترديد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه ، وشاع استعماله في نفس صوت ذلك النفس [4] .

« ...وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين ، دعوا هنا لك ثبورا » .

« مكانا »أي في مكان ، فهو منصوب على الظرفية ، و« منها » بيان تقدم فصار حالا و« ضيقا » صفة لمكانا ، تبين شدة العذاب ، فإن الكرب مع الضيق ، والروح مع السعة ، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض ، و«مقرنين » حال من الضمير في « ألقوا » ومعنى : « مقرنين » جمعت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ، وقيل : مقرنين مع الشياطين في السلاسل ، كل كافر مع شيطانه ، وفي أرجلهم الأصفاد (أي القيود) ومعنى : دعوا هنالك : أي نادوا في ذلك المكان الرهيب وفي ذلك الوقت العصيب فقالوا : ياثبوراه ، والثبور هو الهلاك ، فهم ينادون الويل والهلاك يقولون : احضر أيها الهلاك فهذا أوانك لنخلص من هذا العذاب ، أو هذا من باب التمني ، فهم يتمنون ذلك ، ولا

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ٤/ ٢١٦ ، ولسان العرب : لابن منظور ط دار المعارف ٤/ ٢٧٩٤ .

(٢) انظر : القاموس المحيط : للفيروز آبادي ٢// ٤٩ ، ٥٠ ، والمعجم الوسيط ١/ ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٣) سور النساء ٤/ ٥٥ .

(٤) روح المعاني : للألوسي ١٨ / ٢٤٢ .

(٥) انظر تفسير البيضاوي : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢/ ١١١ ، وروح المعاني ١٨ / ٢٤٣ .

مجيب .

« لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا » :

قوله تعالى : لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا ... الآية ، على تقدير قول :

إما منصوب على أنه حال من فاعل « دعوا » أي دعوا مقولا لهم ذلك ، وإما لا محل له من الإعراب : على أنه معطوف على ما قبله ، أي إذا ألقوا منها مكانا ضيقا دعوا هنالك ثبورا فيقال لهم : لا تدعوا .. الخ ، أو على أنه مستأنف وقع جوابا عن سؤال مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل ، فماذا يكون عند دعائهم المذكور؟ فقيل : **يقال لهم ذلك :**

« قال الفراء : الثبور : مصدر ، ولذلك قال : ثبورا كثيرا ، لأن المصادر لا تجمع ألا ترى أنك تقول : قعدت قعودا طويلا ، وضربته ضربا كثيرا ، قال : وكأنهم دعوا بما فعلوا كما يقول الرجل : واندامتاه ، وقال الزجاج في قوله تعالى: « دعوا هنالك ثبورا ثم قال لهم : لا تدعوا ثبورا ، مصدر فهو للقليل والكثير على لفظ واحد » [1] .

« قل أذلك خير .. » اسم الإشارة إلى السعير وما فيها من أهوال تلحق هؤلاء المكذبين ، وما فيه من معنى البعد إنما هو البعد الرتبي ، الذي يدل على أن هذا العذاب بلغ الغاية في الشدة والفظاعة ، وكثيرا ما يقابل القرآن ، بين الجنة والنار، والثواب والعقاب ، اسم التفضيل « خير » يقصد به التهكم والتقريع لأنه لا خيرية في السعير حتى تعقد بينه وبين الجنة مفاضلة ، وقال ابن عطية : حيث كان الكلام استفهاما جاز فيه مجئ لفظ التفضيل بين الجنة والسعير في الخير ، لأن الموقف جائز له أن يوقف محاوره على ما شاء ليرى هل يجيبه بالصواب أو بالخطأ ، وإنما منع سيبويه وغيره من التفضيل إذا كان الكلام خبرا ، لأن فيه مخالفة الواقع ، وأما إذا كان استفهاما فذلك سائغ ، وقال أبو حيان:إن« خير » هنا ليس للدلالة على الأفضلية بل هو على ما جرت به عادة العرب في بيان

(١) لسان العرب : لابن منظور ١/ ٤٦٩.

فضل الشيء وخصوصيته بالفضل دون مقابل كقول حسان :« فشركما لخيركما الفداء »،« وقولهم : الشقاء أحب إليك أم السعادة ، والعسل أحلى من الخل ، وقوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام (السجن أحب إليّ) ولا اختصاص لذلك في استفهام أو خبر »[1] .

« أم جنة الخلد التي وعد المتقون ، كانت لهم جزاء ومصيرا » :

إضافة الجنة إلى الخلد ، لمدح هذه الجنة بالبقاء الأبدي الذي لا ينقطع ، أو للدلالة على خلودها ، أو لتمييزها عن جنات الدنيا ، فقد طلب المشركون ذلك لرسول الله ﷺ فبين الله لهم أن هناك ما هو أعظم مما طلبوا ، هناك جنة الخلد التي وعد المتقون ، ولا مانع من أن تكون الإضافة لهذه المعاني الثلاثة ، وقد وصفت هذه الجنة بأنها التي وعد المتقون ، أي وعدها الله المتقين ، والكريم إذا وعد وفى ، والمتقون ، الذين اتقوا الشرك ، إذ لا يبقى في النار من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، وقد قال تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [2] . والذي يدل على هذا المعنى مقابلة المتقين بالكافرين في الآيات ، أو المتقون : الكاملون في الإيمان ، الذين اتقوا الشرك ، واتقوا المعاصي ، رسخت أقدامهم في طاعة الله، وفي ذلك ترغيب في التقوى لمن آمن ليزداد إيمانا وهداية ، وترغيب كذلك لمن لم يؤمن حتى يؤمن إيمانا راسخا فيه بعيد عن كل معاصي الله عز وجل .

أما قوله : « كانت لهم » فمعناه :« كانت لهم في علم الله أو اللوح المحفوظ أو لأن ما وعده الله في تحققه كالواقع »[3] .

وقوله : « جزاء ومصيرا » أي جزاء على أعمالهم بمحض الفضل من الله لا

---

(١) روح المعاني ١٨ / ٢٤٦ .

(٢) سورة النساء ٤/ ٤٨ ، ١١٦.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١١١.

على طريق الإيجاب ، ومصيرا ، يصيرون إليه ، وينتهون عنده ، ويستقرون فيه ، والتنكير فيهما لإفادة التعظيم ، وجملة « كانت لهم جزاء ومصيرا » في موضع الحال من الضمير المحذوف العائد على الموصول في « وعد المتقون » بتقدير قد أو بدونه ،ويجوز أن تكون بدلا من « وعد المتقون » وتفسيرا له ، وأن تكون استئنافا في موضع التعليل » [1] .

« لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا» :

الجار والمجرور « لهم » متعلق بمحذوف خبر مقدم ، و« فيها » متعلق بما تعلق به « لهم » و« ما » اسم موصول : مبتدأ مؤخر و « يشاءون » صلة الموصول لا محل لها من الإعراب ، و« خالدين » حال من أحد الضمائر في قوله : لهم فيها ما يشاءون ، ورجح بعضهم الضمير في قوله : يشاءون ، لقربه ، والجملة إجابة عن سؤال تقديره : وماذا لأصحاب الجنة إذا صاروا إليها واستقروا فيها ؟

والخلود الأول إثبات لخلود الجنة ، وما في الآية إثبات لخلود أصحابها ومن فيها ، وقوله « كان وعدا مسئولا » أي مسئولا عنه ، ولا يسأل إلا عن شيء عظيم، فهو كناية عن عظم الجنة وما فيها ، أو أن السؤال حقيقة حيث يقول المؤمنون : ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[2] وتقول الملائكة ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾[3].

المعنى العام للآيات :

في هذه الآيات يبين الله -سبحانه - سبب تكذيب كفار قريش لرسول الله - ﷺ - وأن تكذيبهم لم يقف عند حد ، وأن إعراضهم عن هذا الرسول ، ورفضهم لرسالته وما جاء به من قرآن ، مرد ذلك كله إلى أنهم كذبوا بالبعث بعد الموت وما بعد البعث من حساب وجنة ونار ، وما علم هؤلاء التعساء أن الله أعد

---

(١) روح المعاني ١٨ / ٢٤٦ .
(٢) سورة آل عمران ٣/ ١٩٤ .
(٣) سورة غافر ٤٠ / ٨ .

لمن كذب بيوم القيامة نارا حامية مهولة مخيفة تتحرق ، وتتلمظ ، وتظهر في غضب غيظها قبل أن يقبلوا عليها فما بالك إذا ألقوا فيها ؟ إنهم إذا ألقوا فيها ، أودعوا مكانا ضيقا لتزداد تعاستهم وجمعت أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال وهنالك ينادون بكل آلامهم أن يهلكهم الله ويميتهم فتأتيهم الإجابة تقطع كل أمل لديهم ، تقول لهم : هذا يوم لا ينفع فيه أن تدعوا هلاكًا واحدا ، فكل نوع من العذاب الذي ترون يحتاج إلى طلب للهلاك ، وفي لحظات هذا الترهيب الذي يهز القلوب تأتي المقارنة ، ويأمر الله رسوله أن يسألهم : أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون ؟ وهل في هذا العذاب الأليم خير ؟ وأين هذا من الجنة وما فيها من نعيم لا يفنى ولا يزول ، وعد الله بها أهل التقوى جزاء ما قدموا من صالح الأعمال ، مستقرا يسعدون فيه كل السعادة ، يطلبون فلا يرد لهم طلب ، وهم في هذه الجنة خالدون ، بهذا وعدهم ربهم الكريم وهم لذلك يسألونه ما وعد ، فهل يعقل ويدرك ذلك المكذبون المعاندون ؟

نظرات في الآيات :

هذه الآيات تخويف للمعاندين ، وتطمين للرسول ﷺ ، فلنتدبر ذلك مع كل حرف وكلمة وعبارة في هذه الآيات البينات :

« **بل كذبوا بالساعة ...** » هذا هو موطن الداء ، ومكمن البلاء : التكذيب بالساعة ، إنه إنكار لأمر واضح تدل عليه كل الشواهد ، لو تدبروا في أنفسهم وفيما حولهم ، وفيما بين أيديهم لأدركوا عن قرب أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ، والآيات في هذا الباب كثيرة ، ولكن إذا كانوا قد وصلوا إلى هذه المرحلة من التكذيب فإن ما قبله من الكفر بالله ، وبرسوله ، وبكتابه ، وإن كان في حد ذاته في غاية من الحماقة والجهل ، فإن تكذيبهم بيوم القيامة أشد حماقة وجهلا ، وهو الذي فعل بهم ما فعل ، إنه جعلهم يعيشون في حدود دنياهم ، لا تمتد أنظارهم إلى ما بعدها ، فأصبحت مظاهر الثراء والأبهة ، والكنوز والجنان ، والملبس والمطعم والمشرب هي كل غايتهم ، وهي كذلك

عندهم مظهر العظمة والفخر والخيلاء ، ولذلك طلبوا ما طلبوا ، ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ .[1] إنهم كما قال الله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾[2].

وأمثال هؤلاء لا يؤبه بهم ، ولا يحزن عليهم ، إنهم لم ينكروا قدرة الله على إعطائك ما اقترحوه من الجنات والكنوز ، ولم يكذبوك لأنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق بل إن أساس الانحراف في حياتهم أنهم كذبوا بيوم الدين ، فكان من أمرهم ما كان .

ولو نظرت إلى التعبير بالماضي في قوله : ﴿ كذبوا بالساعة ﴾ لعلمت أن هذا التكذيب قد استقر في وجدانهم ، وتوارثوه جيلا بعد جيل فلم يستطيعوا منه فكاكا ، وعاشوا لا يعرفون ولا يدركون ماذا يكون من حالهم بعد موتهم فضلوا في بيداء الحياة ، واجترأوا على الإنكار ، وتطاولوا على من جاء يهديهم بعد ضلالة ويرشدهم إلى الطريق المستقيم .

وفي اختيار التعبير « بالساعة » عن يوم القيامة ، ترهيب وتخويف لأنها تعني أن وقوعها أمر لابد منه . فلكل شيء زمن يحل فيه ، ويوم القيامة هو الموعد المحدد والساعة الموقوتة التي يجمع فيها الخلائق أمام رب العالمين ليحاسبهم ، كما يوحي هذا التعبير بقصر وقت يوم القيامة ، وسرعة انقضائه كما تنقضي ساعة من الزمان ، وإن كان مع قصره أطول على الكافرين من ألف سنة أو خمسين ألف سنة لما فيه من الأهوال ، كما يشعر أيضا بمدى قدرة الله وإحاطته بأمور خلقه ، وأن حسابهم لن يستمر طويلا ، إنه ساعة ، أي وقت قصير لأن الله لا يشغله شأن عن شأن فسبحان أسرع الحاسبين ، جل وعلا .

« ... وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ... » عرفنا أن « عتد » تدل في أصلها

---

(1) سورة الزخرف ٤٣/ ٣١.

(2) سورة محمد ٤٧ / ١٢.

علي حضور وقرب وفي القرآن : « هذا ما لدي عتيد » أي حاضر معدقريب التناول ، والذي هيأ العير وأعدها وجعلها حاضرة قريبة من الكافرين الله القوي القادر ، وهذا ما تدركه من إسناد الفعل لضمير الجمع ، وهو للتعظيم فإن الله واحد أحد ، وفي التعبير بالماضي دلالة على أنها معدة بالفعل - لا كما يدعي بعضهم - من أن وجودها قبل يوم القيامة عبث لا يليق بحكمة الحكيم ، وقد أعاد ذكر التكذيب بالساعة ، ليبين أن هذا هو حكم الله في كل من كذب بالساعة فيدخل فيه المكذبون برسول الله ﷺ دخولا أوليا ، كما أعاد ذكر الساعة فأظهر في موضع الإضمار للتشنيع عليهم ، ولبيان أن التكذيب بالساعة عنوان الجحود ، ومعاداة المرسلين وأنه السبب البارز الذي من أجله دخل من دخل النار، أما قوله : سعيرا فهي كلمة تحمل من التخويف الشيء الكثير ، فهي أولا نكرة والتنكير - كما قلنا - يفيد التهويل ، وثانيا : ما في هذه الكلمة من دلالة على عدم الاكتفاء بشيء : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١).

وقد ورد ذلك في الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : يلقى في النار ، وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول قط ، وروى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ، فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتي ، أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : أنت عذابي ، أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحد منهما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله - وفي رواية - حتى يضع تبارك وتعالى رجله - فتقول : قط ، قط ، قط فهنالك تمتلئ ، ويزوي بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحدا ، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها

---

(١) سورة ق ٥٠/ ٣٠.

(٢) رواه البخارى ٨/ ٤٥٨ في تفسير سورة (ق) باب قوله تعالى : « وتقول هل من مزيد » ، وفي التوحيد : باب ماجاء في قول الله تعالى : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » ومسلم في الجنة : باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء ، والترمذي في صفة الجنة ، باب ما جاء في احتجاج الجنة والنار.

خلـق » [٢] ومعنى قولها قط ، قط ، قط ، أي حسبي وكفاني .

فالنار - إذن - في حـالة نهم دائم لقد أصابهـا السعار فـهي كالمجنون يندفع إلى غيـره في غير روية وتفكر ، إنهـا جهنم تتقـد وتسعر وتلتـهم في جنون وقوة ورهبة هؤلاء الكافرين ، إنهم وقودها يقول تـعالى وهو يتحدى الكافرين أن يأتوا بأقصر سورة في القرآن : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [١]. ويقول ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [٢]. ومما يزيد هذا الهول هولا ورهبة قوله تعالى :

﴿وإذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا﴾ وهذه الآية وما بعدها وصف « لسعيـرا » ، يبدأ بحـرف الشرط « إذا » في الآيتين وهو يدل على تحـقق الوقوع ، فرؤية جهنم لهم وسماعهم لتغيظها وزفيرها أمر لا ريب فيه ، وإلقاؤهم فيها على النحو الذي ذكرته الآية لا شك فيه .

وانظر مـعي إلى التعبير القـرآني « رأتهم من مكان بعـيد » يصـور لك كأن جهنم لهـا عينان تبصـران في قوة ، تلمحـهم وهم في بعد سـحيق ، وهـم في هذا البعد يسمعون صوت تغيظها وغضبها وزفيرها ، ولا مانع من إرادة الحقيقة وأنها ترى وتتغـيظ وتزفر ، وقد رأيت في الحـديث السابق ما احـتجت به الجنة والنار ، وما قاله رب العزة لكل منهما ، يقول الإمام البيضاوي :

« وإن الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية أمكن أن يخلق الله فيها الحياة ، فترى ، وتتغيظ ، وتزفر » [٣]. ويقول الإمام الألوسي : وإسناد الرؤية إليها حقيقة على ما هو الظاهر ، وكذا نسبة التغيظ والزفير فيما بعد ، إذ لا امتناع في أن يخلق

---

(١) سورة البقرة ٢/ ٢٤ .

(٢) سورة التحريم ٦٦/ ٦.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١١١.

الله تعالى النار حية مغتاظة زافرة على الكفار ، فلا حاجة إلى تأويل الظواهر الدالة على أن لها إدراكا كهذه الآية وقوله تعالى : ﴿ ويوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ (١).

وقد ورد في السنة ما يؤيد ذلك : روى الشيخان عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي - ﷺ - قال : اشتكت النار إلى ربها فقالت : رب ، آكل بعضي بعضا ، فأذن لها بنفسين : نفس في الشتاء ، ونفس في الصيف ، فهو أشد ما تجدون من الحر ، وأشد ما ترون من الزمهرير (٢). وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يخرج عنق من النار يوم القيامة ، له عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ولسان ينطق ، يقول : إني وكلت بثلاثة : بمن جعل مع الله إلها آخر ، وبكل جبار عنيد ، وبالمصورين » (٣). وفي رواية : أن رسول الله - ﷺ - قال : من كذب علي متعمدا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا ، قيل : يا رسول الله ، أولها عينان ؟ قال : أما سمعتم قول الله تعالى : ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ﴾ يخرج عنق من النار ، له عينان تبصران، ولسان ينطق فيقول : وكلت بمن جعل مع الله إلها آخر ، فلهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطهم فيحبس بهم في جهنم » (٤).

ففي هذا ما يدل على أن الرؤية والتغيظ والزفير على الحقيقة ، وليس من باب التمثيل « وقد جاء في الآثار ما يدل على شدة زفيرها - أعاذنا الله تعالى منها- ففي خبر أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس :

---

(١) روح المعاني ١٨ / ٢٤٢.

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة ، ومسلم : في المساجد ، باب إستحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة .

(٣) أخرجه الترمذي : في صفة جهنم : باب ما جاء في صفة النار ، وإسناده حسن ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب ، والعنق : الطائفة من الناس ، والمراد به : طائفة من النار كالعنق .

(٤) هذه الرواية ذكرها السيوطي في الدر المنثور إلى قوله :
أما سمعتم قول الله تعالى .... وذكر الآية ، ونسبه للطبراني وابن مردويه من حديث أبي أمامة ، ويشهد لصحة هذا الحديث ، الحديث الذي قبله والحديث المتواتر : من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، ومعنى : « ويحبس بهم في جهنم » : يغشيهم في النار ، ويلقيهم فيها ، ويتأخر عنهم .

إنها تزفر زفرة لا يبلقى أحد إلا خاف »[1].

« وزعم بعضهم أن زفيرها صوت لهيبها واشتعالها ، وقيل : إن كلا من الرؤية والتغيظ والزفير لزبانيتها ونسبته إليها على حذف المضاف، ونقل ذلك عن الجبائي ، وقيل إن قوله تعالى : « رأتهم » من قوله ﷺ :

« إن المؤمن والكافر لا تتراءى نارهما ، وقولهم : دورهم تتراءى وتتناظر ، كأن بعضها يرى بعضا ، على سبيل الاستعارة بالكناية والمجاز المرسل ، والحمل على الحقيقة أبلغ في التهويل وأولى بالاعتبار والنظر [2].

أما قوله : **« من مكان بعيد ... »** فهو يدل على تحفز جهنم واستعدادها لاستقبالهم ، وكيف تلمحهم من بعد سحيق دون سواهم ، وما ذلك إلا لأنهم يدفعون إليها دفعا ويساقون إليها سوقا ، في ذلة ومهانة وصغار ، وهو لون من العذاب النفسي قد يزيد على ما يلقونه من العذاب البدني ، والله عز وجل يجمع لهم بين ألوان كثيرة من العذاب ليزداد حزنهم وتعظم حسراتهم ، وكيف لا تزداد أحزانهم وحسراتهم وهم يرون المؤمنين وقد بدت لهم الجنة قريبة منهم ، تستعد لاستقبالهم،قال تعالى :﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [3]،وقال ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [4].

وفي قوله : **﴿ سمعوا لها تغيظا وزفيرا ﴾** ترى أن بعد المكان لم يمنع من سماع صوتها وتغيظها فكلهم آذان تسمع ، فهذا هو مصيرهم المحتوم المشئوم ، وقد سبق أن بينا بأن هذا التغيظ وهذا الزفيرعلى حقيقته ، وهم يسمعون هذا الصوت

---

(١) انظر روح المعاني ١٨ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، وجامع البيان : لابن جرير الطبري المجلد ٩ج١٨ ص ١٨٧.

(٢) انظر : روح المعاني ١٨ / ٢٤٣.

(٣) سورةالشعراء ٢٦/ ٩٠-٩١

(٤) سورة ق ٥٠/ ٣١-٣٥ .

رغم بعد المكان ، وهذا يدل على مدى شدة هذا التغيظ وهذا الزفير ، ولعل هذا ما يشير إليه التنكير في قوله : تغيظا وزفيرا ، ومن رحمة الله بأهل الإيمان أنهم لا يسمعون حسيسها ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) ﴾ (١) .

وبعد أن قطع المكذبون المسافات الطويلة في ذلة وصغار ، يسمعون أصوات اللهب تنبعث من جهنم في غيظ وزفير ، ينتظر هؤلاء المعاندين فماذا يكون حالهم إذا وصلوا إليها ، وبعد أن أقحموا فيها ؟ يصور ذلك قوله تعالى :

﴿وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين ، دعوا هنالك ثبورا ، لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا ، وادعوا ثبورا كثيرا .. ﴾ .

وكل كلمة في الآيتين تضيف ألوانا من الكرب والهول والألم لا تحيط بها العبارات : تبدأ الآية : بإذا ، وهي تدل على تحقق الوقوع - كما بينا - وإلقاء الشيء : طرحه في مكان ما دون اكتراث ، وذلك لهوانهم على الله ، قال تعالى :

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) ﴾ (٢) .

إنهم يلقون فيها أفرادا وأفواجا ، في عنف وقوة ، يصور ذلك قول الله تعالى : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التي كنتم بها تكذبون ،

---

(١) سورة الأنبياء ٢١/ ١٠١ - ١٠٣.

(٢) سورة الملك ٦٧ / ٦- ١١.

أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ..... ﴾ والدع بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم ، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ثم يقذف بهم في النار ! ! فيالـه من منظر رهيب ، وحال عجيب ، وصورة للذلة والاستهانة بهؤلاء الظالمين .

ثم تأمل معي قوله : ﴿ وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين ﴾ لترى الصورة البشعة للمكان الذي صاروا إليه ، وقد كنا نقرأ في سورة الملك قوله تعالى : ﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور ﴾ ولكن الأمر هنا يزداد ترهيبا : في اختيار كلمة « مكانا » وهي نكرة ، ووصف هذا المكان بالضيق ، وتقديم قوله : «منها » لتكون حالا من « مكانا » وأصل التعبير: واذا ألقوا في مكان ضيق منها ، فبادر إلى ذكر « منها » ليوحي باختيار مقصود لموضع محدد في النار ، فمع أن النار كلها على سعتها تضيق بمن فيها ، وفي كل جزء منها عذاب وبلاء ، وصراخ وعويل وبكاء ، إلا أن اختيار مكان معين موصوف بالضيق الشديد ليكون فيه هؤلاء عذاب من لون آخر ، ومما يزيد هذا العذاب عذابا ونكالا ما تلمحه في قوله : « مقرنين » فإلى أى شئ قرنوا ؟ هل قرنت وجمعت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [1] . أو قرنوا مع الشياطين في السلاسل ، كل كافر مع شيطانه ، وفي أرجلهم الأصفاد؟ وفي سورة الزخرف قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾ [2].

ومع ذلك تبقى كلمة « مقرنين » على إطلاقها لتذهب النفس في تصورها

---

(١) سورة إبراهيم ١٤٤ / ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة الزخرف ٤٣/ ٣٦ - ٣٨.

كل مذهب ، ولترسم مشهدا من الألم يضاف إلى ما سبق من مشاهد التعاسة والشقاء ، مما يدفع القوم إلى أن يصرخوا من كل كيانهم يطلبون الموت ، ويتمنون الهلاك ، وهذا ما تراه في قوله تعالى : « دعوا هنالك ثبورا » وكم تحمل « هنالك» من الدلالات على ما في هذا المكان الذي صاروا إليه من الضيق والكرب والبعد عن كل لون من ألوان الراحة ، وما في هذا الوقت الذي اجتمع فيه الكرب من كل جانب فلم يجدوا لهم مهربا إلا أن يدعوا الهلاك لينزل بهم : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨)﴾ [١].

ومما يزيد في آلامهم انقطاع آمالهم حين يأتيهم الرد على دعائهم : « **لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا** » وتقييد النهي والأمر باليوم لمزيد التهويل والتفظيع ، ويجوز أن يكون لتذكيرهم بالساعة التي أصابهم ما أصابهم بسبب التكذيب بها ، ففيه زيادة إيلام لهم » [٢].

وفي هذا النهي « لا تدعوا ... » وذلك الأمر : « وادعوا .. » إقناط لهم وتهكم بهم إذْ دلهم على ما يخصهم من هذا الذي نزل بهم ، ومن المعلوم أنه لا يخلصهم ، إذْ ما فائدة العويل والصراخ والدعاء بالهلاك والويل هل يخفف عنهم شيئا ؟ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)﴾ [٣] .

لقد أطبق عليهم الهلاك من كل جانب ولكنهم باقون في العذاب أبد الآبدين ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ

---

(١) سورة الزخرف ٤٣/ ٧٧ ، ٧٨ .
(٢) روح المعاني : للألوسي ١٨ / ٢٤٥.
(٣) سورة غافر ٤٠ / ٤٩ ، ٥٠ .

مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [١]. فنعوذ بالله من ذلك .

وبعد هذه الصورة الموحية لأهل النار وما يحيط بهم من ألم وشقاء وما يلاقون من ذلة وهوان تأتي الصورة المقابلة لأهل الجنة وما يلقون من لذة وسعادة وتكريم وحسن لقاء ليكون في هذا التقابل الدرس النافع ، والعلاج الناجع ، والحث على الاختيار ، ولن يختار العقلاء من الناس إلا ما فيه عزتهم وسعادتهم، ولذلك أتى قوله تعالى : ﴿ **قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون** .. الآية وما بعدها ﴾ .

ومع ما في هاتين الآيتين من تقريع وتهكم بالمكذبين المعاندين ففيهما كذلك إيناس وتسلية للرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه - وللمؤمنين معه ، وكما صورت الحروف والكلمات في الآيات السابقة عظيم جزاء الكافرين وهوله وشدته صورت فى هاتين الآيتن كذلك عظم جزاء المؤمنين وروعته ونداوته .... فإنه مما يزيد الظالمين غما وحزنا ، أن يروا ما أنعم الله به على المؤمنين من جنات فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فلننظر في الآيتين مرة أخرى لنضيف إلى ما مضى من مباحث بعض ما تحمله الآيتان من أسرار وأنوار :

« قل أذلك خير .. » ومرة أخرى نؤكد ما تعنيه كلمة « قل » من أن هذا الأمر لمحمد ﷺ يعني : أنه عبد مأمور ، ورسول مبلغ عن ربه ، وأنه لم يكتم شيئا مما أوحاه الله إليه ، كما يعني هذا الأمر مدى عناية الله برسوله ، حيث خاطبه ليلقنه حجته ، ولخفف عنه ما يجد من ألم ، وليؤنسه بخطابه له .

والله عز وجل يأمر رسوله أن يقول لهم مقرعا ومبكتا ، ليظهر لهم مدى ما هم فيه من حماقة وجهل وغفلة وأوهام : ﴿ أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون .... ﴾ ؟

---

(١) سورة إبراهيم ١٤ / ١٦ ، ١٧ .

وقد أشـار إلى ما سبق من عذابهم ومـآلهم بقوله : ذلك ، وهـو اسم إشارة للبـعيـد ، للدلالة على أنه بلغ الغـاية القصـوى في بعده عن كل خـير ، والنهـاية العظمى في الشـدة التي لا تصل إليهـا العبارات ، وهل يقـارن هذا بجنة الخلد .. إلا أن يكون الموقف للتقريع والتهكم فحـسب ، إذ لا خير في هذا العذاب ، وقد وصف الجنة بأنها خالدة ، كما وصف من فيهـا بأنهم خالدون فيها وأنها وعد من الله الكريم للموحدين من عباده ، الذيـن استجابوا لله وللرسول ، وأن هذه الجنة بما فيها كـانت لهم جزاء : على ما قدموه من صالح الأعمال ، ومـصيرا : صاروا إليه واستقروا فيه ، فـإلى أين صار هؤلاء وأولئك ؟ إنه مصير : إما إلى الجنة وإما إلى النار ، ومـا الدنيـا إلا أيام تنقـضي ، ولحظات تمر ، ثـم تكون النهـاية الأبدية والقرار النهائي ، وبينهـما حياة برزخية في القبور ، ولـذلك قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩)﴾ [١].

وإذا كان أصحاب النار قد حيل بينهم وبين مـا يشتهون ، فإن أصحاب الجنة لهم ما يشاءون ، إذ في الجنة : ما تشتـهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وكل واحد في الجنة راض بالمنزلة التـي هو فـيهـا ، راض عـمـا أنعم الـله عليـه به ، وراض عن ربه ، والسعـادة أساسهـا الرضا ، ولهـذا لا يقال بأن أهل الجنة لا يطلبـون ولا يشاءون منازل الأنبـيـاء ، لأن هذا لا يرد لهم عـلى بال ، كـمـا لا يقـال بأنهم لا يطلبـون الشفاعة فيمن لا شفاعة لهم كأهل الشرك والنفاق .

لأن أهل الجنة أعظـم الناس أدبا مع ربهم ، إنهم كـانوا كـذلك في الدنيـا ، وهكذا يكونون في الآخـرة ، فمـعنى﴿ لهم فيـها مـا يشا ءون﴾ أى من النعـيم ، يقول البيضاوي : « ولعله يقصر همم كل طائفة على ما يليق برتبتها ، لأن الظاهر أن الناقص لا يدرك شيئا مما هو للكامل بالتشهي ، وفيه تنبيه على أن كل المرادات لا تحصل إلا في الجنة » أ هـ ، البيضاوي .

وقوله : ولعله يقصر .. الخ ، جواب عما يقال إن عموم الموصول يقتضي أنه اذا شاء أحد رتبة من فوقه كالأنبياء نالها ، فلم يبق بين الناقص والكامل تفاوت ،

---

(١) سورة غافر : ٤٥/ ٣٩ .

ويقتضي أنه إذا شاء أحد الشفاعة لأحد من أهل النار كأبيه أو ولده فإنها تقبل شفاعته مع أن عذاب الكافر مخلد ، وتقدير الجواب : أن المراد : لهم ما يشاءون مما يليق برتبهم ، وأنه تعالى لا يلقي في خواطرهم أن ينالوا رتبة من هو أشرف منهم ، ولا يلتفتوا إلى حال غيرهم .. » [1].

وانظر مرة أخرى إلى قوله : « خالدين » لتلمح مدى هذا الفضل ، إذ لا ينقص النعم في الدنيا إلا الإحساس بأنها مفارقة لأصحابها أو أنهم مفارقوها لا محالة ، ولكن نعم الآخرة ليست كذلك إنها نعم باقية وأصحابها باقون فيها يتنعمون بها ، بهذا وعدهم ربهم ، « كان على ربك وعدا مسئولا » وكم في ذلك من إيناس وتطمين وبشرى للمؤمنين ..

وما زالت الآيات تهدد المنكرين وتتوعدهم ، وتنتقل بهم من تهكم وتقريع إلي إنذار ووعيد ، يقول تعالى :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)﴾.

الكلمات والإعراب :

« ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ..... » الواو : حرف عطف ، ويوم: منصوب ، وفي نصبه وجهان: أنه مفعول لفعل مقدر تقديره : أذكر ، وهذا الفعل معطوف على قوله : « قل أذلك خيرا ... » والثاني : أنه ظرف لفعل مؤخر تقديره : ويوم يحشرهم يكون من الأهوال والأحوال ما لا يخطر لهم على بال ، والحشر : الجمع مع سوق ، وكل جمع حشر ، والمراد هنا جمع الناس يوم القيامة والواو في قوله : « وما يعبدون » حرف عطف ، و« ما » اسم موصول معطوف

---

(١) الفتوحات الإلهية للعلامة : الجمل ٣/ ٢٤٨ .

على مفعول يحشرهم ، وهذه الواو ليست للمعية وإن كان بعضهم قد أجاز ذلك، والعبادة : الطاعة مع التذلل والخضوع .

« .. فيقول : أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل »

الفاء حرف عطف ويقول ، فعل مضارع مرفوع بالضمة والفاعل ضمير مستتر وجملة أأنتم أضللتم عبادي .... الخ مقول القول .. وجملة فيقول .. معطوفة على جملة « يحشرهم » والقائل هو الله سبحانه .. يقول ذلك للمعبودين ومعنى أضللتم : أي أوقعتموهم في الضلال بأمركم إياهم بعبادتكم ؟ والإضافة في قوله : عبادي : « للترحم أو لتعظيم جرمهم لعبادة غير خالقهم ، أو لتعظيم أمر إضلالهم بدعوتهم إلى عبادتهم مع كونهم عبادا لله عز وجل » (1) والعبودية هنا ليست عبودية الطاعة والتذلل والخضوع مع الحب الذي يسيطر على جوانح العباد وقلوبهم وأرواحهم لخالقهم ، إنما هي عبودية التسخير والملك والهيمنة والقهر فكل المخلوقات مسخرة بأمر ربها ، مملوكة له ، له عليها الهيمنة التامة فهي مقهورة له يصرفها كيف يشاء ... واسم الإشارة « هؤلاء » اسم إشارة للقريب وهو بدل من « عبادي » أو نعت له .. والسبيل : هو الطريق ، والإيمان والإسلام والقرآن وما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه وإنما أتى مفردا لأنه طريق واحد لا يتعدد ، أما طريق الشيطان فليس طريقا واحدا إنما هى طرق كثيرة من دخلها ضل ولم يصل إلي غاية قال تعالي : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (2) . والسبيل مفعول به لضلوا ، وأصله : ضلوا عن السبيل فحذف الجار مبالغة وذلك لأن ضله بمعنى فقده وضل عنه بمعنى خرج عنه والأول - كما ترى - أبلغ لأنه يعني أنه لا وجود له أصلا - والاستفهام في قوله : أأنتم أضللتم .. استفهام تقريعي تبكيتي لهؤلاء العبدة الجهلاء.

---

(1) روح المعاني ١٨ / ٢٤٨ .

(2) سورة الأنعام ٦/ ١٥٣ ، وانظر في هذا كتابي : الوصايا العشر : دراسة مقارنة - لآيات من أواخر سورة الأنعام ص ١٩٥ وما بعدها .

« قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء .. » .

قالوا : أي قال المعبودون : سبحانك ، والتسبيح تنزيه لله عما وصفه به المبطلون وهى هنا كلمة تعجب مما قيل لهم ، أو كناية عن كونهم موسومين بتسبيحه تعالى وتوحيده فكيف يتأتى منهم إضلال عباده أو هو على ظاهره من التنزيه والمراد تنزيهه تعالى عن الأضداد ، وهذا التسبيح منهم تمهيد وتوطئة لقولهم : « ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ... » ومعنى ، ما كان ينبغي لنا :أي ما صح وما استقام . وقوله : من دونك : مفعول ثان ، وأولياء ، مفعول أول ، ومن زائدة لتأكد النفي ، والأولياء : جمع ولي ، والواو واللام والياء أصل واحد يدل علي القرب ، وعلى هذا فالولي يطلق على كل من ولي أمرا أو قام به وعلى النصير والمحب والصديق والحليف والتابع والمتبوع وغير ذلك .

« .. ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا » .

لما تضمن كلامهم أنا لم نضلهم ولم نحملهم على الضلال حسن هذا الاستدراك ، ومعنى « متعتهم وآباءهم » أي أنعمت عليهم بإطالة العمر وسعة الرزق وسائر أنواع النعم هم وآباءهم من قبل .. « والذكر » هو لتذكر لآلائك ونعمك وآيات ألوهيتك ووحدانيتك أو الذكر : هو ذكر الله ، والإيمان به ، وتوحيده ، « وبورا » أي هالكين وقيل: بور :فاسدين ، في لغة الأزد ، ويقولون : أمر بائر أي فاسد وبارت البضاعة ، اذا فسدت ، وقال الحسن : بورا : لا خير فيهم ، من قولهم ، أرض بور : أي معطلة لا نبات فيها ، وقيل : بورا : أى عميا عن الحق ، والجملة إعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله ، وقال الخفاجي : ؤي حال بتقدير « قد أو معطوفة على مقدر ، أي كفروا وكانوا : أو على ما قبلها [1] .

فقد كذبوكم بما تقولون .. « الآية » : في الكلام حذف ، والتقدير : فقال الله

---

(١) انظر : روح المعاني : للألوسي ١٨ / ٢٥٠ .

عند تبرؤ المعبودين مخاطبا للمشركين العابدين لغير الله فقد كذبوكم أى فقد كذبكم المعبودين بما تقولون أى في قولكم إنهم آلهة .. وقال بعضهم الفاء فصيحة والتقدير قال تعالى : إن قلتم أيها المشركون إنهم آلهة فقد كذبوكم بما تقولون ، والباء : بمعنى « في» و« ما » مصدرية ويجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف أى في الذي تقولونه . وقيل الخطاب للمعبودين أى فقد كذبكم المشركون في قولكم سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، حيث زعموا أنكم آلهة ، وقيل الخطاب للمؤمنين في الدنيا أى فقد كذبكم المشركون في الدنيا حين دعوتموهم إلى توحيد الله والإيمان به ... وقوله : فما تستطيعون صرفا ولا نصرا : أي لا تملكون أن تصرفوا عنكم العذاب حين نزل بكم ولا نصر أنفسكم من الله حين عذبها وعاقبها وقوله : ومن يظلم منكم : أي من يدم على شركه فإن الشرك ظلم عظيم .. نذقه عذابا كبيرا ، والعذاب الكبير هو عذاب النار... نجانا الله منها .

المعنى العام :

في هذه الآيات يذكر الله رسوله ﷺ ويذكر معه كل المؤمنين بحال المشركين يوم الحشر حين يجمع الله الجمع ويقف هؤلاء المشركون مواقف الخزي والندامة والحسرات حين يواجهون بالحقيقة المرة ، إذ يسأل الله المعبودين من دونه عمن كان سببا في إضلال هؤلاء العباد أأنتم الذين دعوتموهم إلى هذا فلبوا دعوتكم أم هم الذين ضلوا بأنفسهم ؟ فيقولون :سبحانك يا ربنا نحن عبيدك الموحدون لك ، المقدسون لك ، المنزهون لك عن الشريك والنظير ، فكيف ندعو هؤلا ء إلى عبادتنا ؟ إنما هؤلاء القوم غرهم بالله الغرور ورأوا أنك قد أنعمت عليهم بنعمك وغمرتهم وآباءهم من قبل بألوان من فضلك فلم يشكروا هذه النعم بل انغمسوا في الشهوات ونسوا أن يذكروك وأن يوحدوك وأن يعبدوك ، وكانوا في سابق علمك قوما لاخير فيهم ينزل بهم الهلاك والعذاب الذي يستحقونه .. وهنا يلزم الله المشركين الحجة : فهؤلاء هم الذين عبدوهم من دونه يكذبونهم في هذا

الإدعاء الباطل ولا يستطيعون أن يصرفوا عنهم العذاب الذي لابد أن ينزل بهم ، ولا أن ينصروهم منه إن وقع .... وهذا هو جزاء كل من ظلم نفسه : بحرمانها من معرفة الله ، وظلم ربه : بإشراك آلهة معه في عبوديته :"ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ....

نظرات في الآيات : -

« ويوم يحشرهم . الآية » في الآية وما بعدها تسلية لرسول الله ﷺ ومن معه بتذكيره وتذكيرهم بحال هؤلاء التعساء يوم القيامة وما يصيرون إليه من خزي وندامة فإن الدنيا ليست د ار جزاء ، إنما الجزاء هناك في الآخرة حيث تكشف الأستار وتبدو الحقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، وقد اختار الله من مواقف يوم القيامة يوم الحشر وأتى بالفعل مضارعا « يحشرهم » لرسم صورة لقوم يساقون في تزاحم وفزع ، وهذه هى صورة الحشر ، وإن كان الله يذهب الخوف عن أهل الإيمان والإخلاص ويضاعفه لأهل الكفر والنفاق ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) ﴾[1] ..

وقد روى الترمذي بإسناد حسن عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف :

صنفا مشاة (أى على أقدامهم ، وصنفا ركبانا ، وصنفا على وجوههم ، قيل يا رسول الله : وكيف يحشرون على وجوههم ؟ قال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادرا على أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك » .

وروى البخاري ومسلم عن قتادة عن أنس رضى الله عنه - أن رجلا قال يا رسول الله : قال الله تعالى : ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ﴾ .

---

(١) سورة مريم ١٩ / ٨٥ - ٨٧ .

أيحشر الكافر على وجهه ؟ قال رسول الله ﷺ : أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه ؟ قال قتادة : بلى وعزة ربنا .. وفي سورة مريم نقرأ قول الله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [١] .

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تظهر هؤلاء في موقف الحشر وما يصيبهم فيه من ذلة ومهانة [٢] ..

وانظر إلى قوله : « وما يعبدون من دون الله .. » لترى أن هذه الآلهة المدعاة لا تستحق العبادة ، فهي لا تعقل ولا تدرك ما يدور حولها ، ومن يعقل منها كالمسيح وعزير والملائكة وغيرهم ، كأنها لا تعقل هذا ، لأنها لا ترضى به ولا تقره ، وهذه الآلهة من جهة أخرى في مرتبة لا تؤهلها لأن تعبد ، فهي عابدة لربها ، عاجزة عن دفع الضر عن نفسها فضلا عن غيرها ..

وهذا بعض ما يفهم من قوله : « .. من دون الله .. » وفي اختيار لفظ الجلالة هنا ، ما يرشدك إلى أن هذا الاسم الذي جمع كل صفات الكمال يجب أن يكون هو المعبود وحده .. وبمجرد جمعهم وحشرهم يتوجه الحق سبحانه بالسؤال لهؤلاء المعبودين قائلا ، أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل؟

والسؤال سؤال تقرير لهم . ليبكت الكافرين ويؤنبهم ويلزمهم الحجة ؟ ولعلك تلحظ معي أن السؤال لا عن الضلال إنما عن المضل من هو ؟ وعمن ضل ما سبب ضلاله ؟ : هل ضل بنفسه أو أضله غيره ؟ ولذلك أتى بالضمير بعد

---

(١) سورة مريم ١٩ / ٦٨ - ٧٢ .

(٢) اقرأ في ذلك : الفصل الأول من الباب الثاني : إن الله يحب المتقين - من كتابي : المسلم في عالم اليوم ص ٧١ - وما بعدها .

همزة الاستفهام وأم فقال : أأنتم .. أم هم ..

يقول البيضاوي : « وأصله أأضللتم أم ضلوا ، فغيّر النظم ليلي حرف الإستفهام المقصود بالسؤال وهو المتولي للفعل دونه لأنه لا شبهة فيه وإلا لما توجه العتاب »[1] أما قوله : أأضللتم . أم هم ضلوا .. فقد عرفنا أن الضلال ضياع الشئ وذهابه[2] ، فهؤلاء القوم ضاعوا وتاهوا في بيداء الحياة وذهبوا ولم يبق لهم أثر ، إنهم مجرد أشباح تتحرك ، خاوية من الحياة ، وما الحياة الحقة إلا بالإيمان ولذلك قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[3] . وقال : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾[4] .

ولو عقلوا لعلموا أسباب هذا الشقاء الذي خيم عليهم ، وتلك التعاسة التي حلت بهم ، وأن سبب ذلك كله هو أنهم ابتعدوا عن مصدر النور ، وانحرفوا إلى طرقات موحشة مظلمة كلها خطر وهلاك ، وأنه لم تكن هناك قوة سيطرت عليهم وألجأتهم إلى هذه الحياة الشقية التعسة إنما هم الذين اختاروها بمحض إرادتهم ... يتضح ذلك من إجابة المعبودين على هذا السؤال في قوله : قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء .. وقبل أن نتوقف عند هذه الآية أحب أن ألفت نظرك إلى المبالغة في قوله : ضلوا السبيل ، فإن الفعل « ضل » لا يتعدى بنفسه - كما سبق أن ذكرنا - إنما يتعدى بحرف الجر فيقال: ضل عن السبيل ، ففي حذف حرف الجر مبالغة تدل على مدى إنحراف القوم الذي فاق الحدود ... والسبيل هو الطريق ، وفي تعرفه « بأل » العهدية هنا دلالة على أنه الطريق الذي لا يخفى على أحد ، أنه في ضمير كل إنسان لأنه جزء من

---

(١) تفسير البضاوي : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢/ ١١٢.

(٢)انظر ص ٧٦ عند قوله : فضلوا فلا يستطيعون سبيلا .

(٣) سورة الأنعام ٦/ ١٢٢ .

(٤) سورة النمل ٢٧ / ٨٠ .

فطرته وتكوينه . إنه الإسلام والإيمان وما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

ونعود إلى قوله : « قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء .. الآية ، لنرى أنها إجابة عن سؤال مفهوم من الكلام السابق تقديره : حين سأل الله المعبودين بقوله : أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ، ماذا قالوا ؟ فأتى الجواب : قالوا : سبحانك ... الخ ، وفي هذا الفصل البياني إيقاظ للمشاعر وتحريك للقلوب حين تسمع قضية من القضايا فتتساءل فيأتيها الجواب بعد السؤال ليرسخ وليثبت في النفس أيما رسوخ وثبات .. « وكان الظاهر أن يعبر بالمضارع لمكان « يقول » أولا ، وكأن العدول إلى الماضي للدلالة على تحقق التنزيه والتبرئة وأنه حالهم في الدنيا ، وقيل : للتنبيه على أن إجابتهم بهذا القول هومحل الإهتمام فإن بها التبكيت والإلزام فدل بالصيغة على تحقق وقوعها »[1] . وانظر إلى هذه الإجابة لترى أنها لم تكتف بالقول بأن هؤلاء المشركين هم الذين ضلوا بأنفسهم حين عموا عن الطريق وانحرفوا عن الحق إنما زادت على ذلك تنزيها للإله العظيم ، وبيانا لما عليه هؤلاء المعبودين من طاعة لمولاهم وأنه من المستحيل أن تصدر منهم دعوة لأحد بأن يعبدهم من دون الله ، كما زادت توضيحا لأسباب إنحراف المشركين : « ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا » .

والله عز وجل يسأل عيسى عليه السلام في موقف الحساب كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾[2] . الخ ما قال عليه السلام فيما قصه الله عنه ويسأل الملائكة قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ

---

(١) روح المعاني : للألوسي ١٨ / ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٢) سورة المائدة ٥/ ١١٦.

كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١)﴾ (١) .

وهنا القائل ذلك كل ما عبد ومن عبد من دون الله . الحي منهم والجماد ، المطيع والعاصي ، في هذا الموقف الكل يتبرأ ويتعجب مما نسب إليه وينزه الله عما لا ينبغي إليه ، ، فالأنبياء والملائكة والصالحون من عباد الله يقولون : سبحانك ما كان يصح لنا ذلك وما يعقل أن نفعله وأنت أعلم بذلك منا وهذا كقوله تعالى :﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)﴾ (٢).

والجمادات ينطقها الله يوم القيامة فتوحد الله وتنزهه وتقول : ما كان يتصور منا أن نتخذ من دونك من أولياء نعبدهم ولا أن ندعو أحدا لعبادتنا لأنا لا نقدر على ذلك ، والعصاة والظالمون والمتجبرون كفرعون الذي قال أنا ربكم الأعلى يعترفون بعجزهم ويقولون : ما كان ينبغي لنا أن نعبد معك أو من دونك ولكن هؤلاء هم الذين أنزلونا هذه المنزلة بمجرد دعائنا لهم ، يقول إبليس فيما ذكره الله عنه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ﴾ (٣).

وتدبر قولهم : ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء .. » فهذه الصلة بين العباد والإله الذي عبدوه صلة المحبة التي ربطتهم بربهم وجعلت الإله الكريم يحبهم كما أحبوه وينصرهم كما نصروه ، يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) إلى أن يقول :﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ

(١) سورة آل عمران ٣/ ٧٩ .

(٢) سورة إبراهيم ١٤ / ٢٢.

مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ [1] .

وإذا كانوا قد تعلقوا بإلههم وأحبوه من كل قلوبهم ، فكان حبه وحب رسوله وحب كتابه أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم وأموالهم وأهليهم ... فمن المحال أن نعبد غيرك فكيف ندعو غيرنا لما لم نفعله ، ويجوز أن يكون المعنى كما ذكرنا ما كان يصح منا أو يتصور أن نتخذ من دونك أتباعا يعبدوننا ، فإن المولى كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع ، والتبعية القلبية ،الشعورية لا تكون إلا عن محبة وتعلق بين المتبوع والتابع ...

أما قولهم : « ولكن متعتهم وأباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا » فهى بيان لأسباب انحرافهم ، إنها النعم التي منّ الله بها عليهم هم وأباؤهم . نعمة المال والصحة والأمن والولد ، هذه النعم التي غمرتهم فصرفتهم عن شكر المنعم فلم يذكروه بتوحيده ، ولم يذكروا أنهم ملاقوه ، ومع ذلك دانوا بالحب والعبودية لآلهة مدعاة لا تملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا . وهنا خطر الابتلاء بالنعم فالله عز وجل كما يبتلي بالنقمة يبتلي بالنعمة كما قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [2] . فالنعمة كثيرا ما تطغي أصحابها ولذلك ترى أن المترفين في كل زمان هم دعاة الفساد والانحراف وسبب هلاك الأمم إلا من عصمة مولاه بالإيمان الصادق ، والذكر الدائم الدائب، وعلم أن هذه النعم وسائل وليست غايات . وسائل لإسعاد الآخرين كما هى وسائل لإسعاد أصحابها وأن دوامها بالشكر لها: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [3] .

ومن نسى الله فلم يذكره عرى عن الخير وأصبح كالأرض التي لا تنبت ، كالح الوجه ، لا يبدو فيه أثر لرواء الإيمان ، إنه كالثمرة الفاسدة التي لا يأبه بها

---

(١) سورة محمد ٤٧ / ٧-١١.

(٢) سورة الأنبياء ٢١/ ٣٥.

(٣) سورة إبراهيم ١٤ / ٧ .

أحد ، ومصيرها إلى أن تلقى لا فائدة منها . . وفي تنكير « بورا » ما يدلك على أن هذا الذي تحمله كلمة « بورا » من المعاني قد بلغ في كل معنى منه غايته ومنتهاه .

أما قوله : « فقد كذبوكم بما تقولون .. » فترى فيها الالتفات من خطاب المعبودين إلى خطاب العابدين تبكيتا لهم وإلزاما للحجة عليهم ، والفاء الفجائية في هذا المقام لها مدلولها ، فالهول المفاجأة التي تجعلهم لا يحيرون جوابا ، وسواء كانت القراءة بالتاء في « تقولون » أو بالياء فالمعنى متقارب ، فعلى قراءة التاء يكون المعنى : إن قلتم أيها المشركون إنكم عبدتموهم لأنهم آلهة فقد كذبوكم في قولكم هذا وشهدوا لله بالوحدانية ، وعلى قراءة الياء« يقولون»يكون المعنى : إن قلتم إنهم آلهة فقد كذبوكم بقولهم هذا ، وشهادتهم تلك حيث قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ...

وهذه المعاني التي تحملها الآية مسبوقة « بقد» المحققة المقربة ، فهذا أمر محقق قريب الوقوع بل هو مباشر لسؤال الله للمعبودين من دونه وجوابهم عليه ويأتي قوله : فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ، مرتبا بالفاء على قوله « فقد كذبوكم بما تقولون » ومباشرا له ليعمل في النفس عملها ولينقلهم إلى حالة من اليأس والقنوط . وهم يرون تخلي هذه الآلهة المدعاة التي دانوا لها بالطاعة والولاء عنهم ، وتنكشف لهم الحقيقة المرة وهم يرون عجزهم عن صرف العذاب عنهم بأي حيلة من الحيل وعجزهم عن إنقاذ أنفسهم منه إن وقع ، ويالها من مواقف مخزية فيها من الندامة والحسرة والضياع ما فيها ... !!

وإذا كانت الفاء لترتيب عدم الاستطاعة على ما قبلها من التكذيب فليس هذا على « معنى أنه لولاه لوجدت الاستطاعة حقيقة بل في زعمهم حيث كانوا يزعمون أنهم يدفعون عنهم العذاب وينصرونهم ، وفيه ضرب تهكم بهم »[1] .

---

(١) روح المعاني : للألوسي ١٨ / ٢٥٣.

وقد قرأ حفص « فما تستطيعون » - بالتاء ، وقرأ الباقون بالياء : فما يستطيع هؤلاء الذين ادعيتم لهم الألوهية أن يدفعوا عنكم العذاب ولا أن ينقذوكم منه كما كنتم تتصورون ذلك وتعتقدونه كما قال تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (١). أما التنكير في قوله « .. صرفا ولا نصرا .. » فإنه يفيد أن دفع العذاب عنهم لن يتحقق بأي حال من الأحوال : لا قبل وقوعه ولا بعد وقوعه ، لا بالذات ولا بالواسطة ، وزيادة في زجر المشركين في الدنيا ، وبيانا للسبب الذي من أجله استحقوا عذاب الله قال سبحانه : « ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا » وأي ظلم بعد الشرك بالله؟ قال تعالى فيما قصه عن لقمان عليه السلام : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٢) .

وهذا الظلم من الكافر لنفسه إذ حرمها من معرفة ربها ومنعها من توحيده ، ولربه : اذ لم يعطه حقه من العبودية والوحدانية والطاعة له ولرسل ربه : إذ عاندهم وطاردهم ورد قولهم واتهمهم بالسحر والجنون وغير ذلك : ولأتباع هؤلاء الرسل : حين وقف لهم بالمرصاد وتعقبهم في كل طريق وحاول اطفاء نور الله وكذب بآياته إلي غير ذلك من مظاهر ظلم الكافرين وهو كثير (٣). وأول من دخل في ذلك هم هؤلاء المكذبون بالقرآن ، الرافضون لدعوة التوحيد ، المعاندون لرسول الله ﷺ ممن ذكر الله طرفا من ، مواقفهم فيما سبق من آيات السورة ..

---

(١) سورة يونس ١٠ / ١٨ .

(٢) سورة لقمان ٣١/ ١٣.

(٣) اقرأ في ذلك : الفصل الثاني : إنه لا يحب الظالمين من الباب الثالث : البغض في الله ، فقرة (أ) الكافرون وظلمهم ص ٤٥ من الجزء الثاني من كتابي : المسلم في عالم اليوم

ولهذا استحقوا العذاب ..

العذاب الكبير .. ، وفي كل كلمة من قوله : « نذقه عذابا كبيرا » لون من التخويف والترهيب ، فقوله « نذقه » فيها من السخرية والتهكم ما فيها فإن « الذوق » اختبار الشئ من جهة معرفة طعمه ، هذا هو الأصل فيه ثم يشتق منه بعد ذلك على سبيل المجاز لا الحقيقة ما يشتق من مصادر وأفعال فيما شئت من المعاني » [(١)] فأي طعم هذا الذي يتذوقونه ؟ إنه طعم العذاب الذي ينال كل مراكز الإحساس حتى يصل إلى غايته في الألم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [(٢)].

وقوله : « عذابا » تذكرنا بما عرفنا في لغتنا من الماء العذب ، أي الماء الطيب فهل يذوق الكافر الظالم ماء سلسبيلا ، طيب الطعم ، حلو المذاق ؟ إن هذا على حد قوله : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [(٣)]. وهذه المعاني يضاف إليها استعمال الفعل المضارع « نذقه » الذي يدل على تجدد العذاب وأنه لا ينقطع ، وكما قال تعالى ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [(٤)]. وكما رأينا في قوله تعالى : كلما نضجت جلودهم

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس ٢/ ٣٦٤ ولسان العرب لابن منظور ٣/ ١٥٢٦، ١٥٢٧.

(٢) سورة النساء ٤/ ٥٦.

(٣) سورة الدخان ٤٤/ ٤٣ - ٤٩.

(٤) سورة الإسراء ١٧/ ٩٧.

بدلناهم جلدوا غيرها ليذوقوا العذاب .. » وهذا الفعل المضارع مبدوء بالنون الدالة على عظمة الله وقوته وقهره وجبروته ، والمفعول : « عذابا » نكرة ، وهى تدل على أنه وصل إلى حد لا يعرف قدره إلا الله فهو عذاب وأي عذاب ، وفي وصفه بأنه « كبيرا » ما يدلك على أنه بلغ النهاية في الإيلام والتعذيب .. ولو قرأت بعض ما جاء في كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ من وصف النار وسلاسلها وأغلالها وحرها وسعيرها ولهيبها وشرابها وطعامها وظلمتها وسوادها وشررها لعلمت مدى ما يلقاه هؤلاء التعساء الأشقياء ، ولبادرت أنت بالعمل الصالح ودعوت إليه أحبابك إنقاذا لنفسك ولهم من عذاب الله ، لأنا إذا كنا قد رجحنا بأن الظلم هنا في قوله : ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا » هو الإشراك بالله » فقد قال بعض الأئمة بالعموم لأن « من » تفيد العموم ، ويدخل في ذلك الكفر والإشراك بالله دخولا أوليا ، فمن مات وهو مفرط في حق مولاه إن لم يمت على الكفر كان أمره إلى ربه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، فاللهم اغفر ذنوبنا وتجاوز عن سيئاتنا ، ونجنا من عذاب النار يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين .

وبعد أن ذكر الله من افتراءاتهم ما ذكر ورد عليهم بما قرأت من الآيات وعرفت من الدلائل والبينات وبعد أن هددهم بسوء المصير ، والعذاب الكبير إن أصروا على كفرهم وعنادهم عاد ليرد عليهم قولهم :

مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، فقال عز من قائل :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ﴾

الكلمات والاعراب :

« ومـا أرسلنا قـبلـك من المرسلين إلا إنهم ليـأكلـون الطعـام ويمشـون في الأسواق » اختلف النحاة في الجملة الواقعة بعد « إلا « فقال الزجاج : إنها صفة لموصـوف مـحـذوف والمعنى ، ومـا أرسلنا قـبلـك أحدا مـن المرسلين إلا آكلين وماشين ، وإنما حذف الموصوف لأن في قوله : من المرسلين . دليلا عليه ، نظيره: « وما منا إلا له مـقام مـعلوم « أي وما منا أحد ، وقـال الفراء : لا مـحل لها من الإعراب ، وأنما هي صلة لموصول محذوف هو المفعول ، والتقدير : إلا من أنهم، فالضـمير في أنهم وما بعـده راجع إلى «من » المقدرة ، ومثله قـوله تعالى : وإن منكم إلا واردها – أي إلامن يردها ، قال الزجاج : هذا خطأ لأن «من» الموصبولة لا يجوز حذفها ، وقال ابن الأنبارى : إنها في محل نصب على الحال،والتقدير : إلا أنهم .. فالمحذوف عنده الواو ، والاستثناء من أعم الأحوال ، قال أبو حيان : وهـــو المختـار ، ووجـــه كسـر إن وقوعهـا في الابتداء ، ووقـوع اللام بعدها أيضا [1] .

«وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ؟؟ وكان ربك بصيرا»

الفتنة هي : الابتـلاء والاختيار ، وقـوله : وجعلنا بعضكم لبـعض فتنة : إى طبقة مختبـرة بالأخرى على اختلاف منازل الناس وأحوالهم وعطاء الله لهم من الصحـة والمرض ، والغنى والفقـر ، والعلم والجهل ، والإيمان والكفـر ، والنبوة وما عداهـا .. والاستفهام في قـوله : « أتصبرون » تقـريرى ، أى ابتلينا بعضكم ببعض لنعلم : أتصبرون أم لا .. أى ليظهر ما في علمنا وهذا كقوله تعالى :

---

(١) أنظر : فتح القـدير للشوكـاني ٤/ ٦٨ ، ورح المعاني للألوسي ١٨/ ٢٥٤ .. والجـامع لأحكام القرآن الكريم : للقرطبي ط دار الشعب م السابع ص ٤٧٢٩ .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾(١).

والخطاب في هذا الاستفهام إما لكل واحد من الناس ، مؤمن وكافر فالصحيح فتنة للمريض والغنى فتنة للفقير والفقير الصابر للغنى ومعنى هذا أن كل و احد مختبر بصاحبه ، فالغنى ممتحن بالفقير ، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه والفقير ممتحن بالغنى عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه .. وهكذا أوالخطاب للمؤمنين ، وهذا ما يوضحه سبب النزول فقد قال مقاتل : نزلت فى أبى جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل ، وعقبة بن أبى معيط ، وعتبة بن ربيعة ، والنضر بن الحارث حين رأوا أبا ذر وعبد الله بن مسعود ، وعمار وبلالا وصهيبا وعامر بن فهيرة وسالما مولى أبى حذيفة ،ومهجعا مولى عمر ابن الخطاب وجبر مولى الحضرمى وذويهم فقالوا على سبيل الإستهزاء أنسلم فنكون مثل هؤلاء المؤمنين : « أتصبرون » على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر ؟ وهى بذلك أمر بالصبر وحث عليه كأنه قال : اصبروا فإن العاقبة لكم ، و هذا كقوله في النهي عن الخمر :فهل أنتم منتهون ؟ أى فانتهوا .. أما ختام الآية بقوله : « وكان ربك بصيرا » فهو تذييل لنفى ماقد يتوهم من أنه جعل رسوله فقيرا لا مال له لهوانه عليه ، أو أنه جعل الناس بعضهم لبعض فتنة ليظهر من شكر ومن صبر ومن جذع .. جعل هذا لنقص في علمه ، وعدم معرفة بخلقه .. إنما ذلك كله لون من تربيته لخلقه وتربيته لهم وبصره بهم وإطلاعه التام على أحوالهم فسبحان من أحاط بكل شيء علما .

المعنى العام :

لما بين ربنا أباطيل المشركين وأوهامهم ، وتوعدهم وهددهم ، أراد أن يبين أن ما عابوه على رسول الله ﷺ من أنه يأكل الطعام ويمشى في الأسواق هو سنته في رسله من لدن آدم إلى هذا النبى الكريم فقال : وما أرسلنا قبلك من المرسلين

(١) آل عمران ٣/ ١٤٢ .

إلا كان هذا شأنه وحاله : بشر من البشر وواحد من الناس يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، و لا يمكن أن يكون غير ذلك إلا أن يكون ملكا ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾(١). ومن حكمة الله التى جرت أن جعل الحياة قائمة على هذا الإزدواج : هذا غني وذاك فقير ، وهذا صحيح وذاك سقيم وهذا مؤمن وذاك كافر ليظهر ما في علمه من حال خلقه : هل يصير كل منهم على ما هو فيه ؟؟ هل يصبر المؤمن على مايصبه من أذى الكافر ، وهل يبقى الكافر على كفره وعناده بعد أن جاءته الهداية ؟ والله من وراء هؤلاء وأولئك مطلع عليهم ، بصير بأحوالهم ، لا يخفى عليه شيء من أمرهم وسوف يردون إليه فيحاسبهم ، وكان ربك بصيرا .

نظرات في الآية :

« وما أرسلنا قبلك من المرسلين ..» الحصر بما وإلا حصر إضافي يرد على المشركين ما توهموه من أن الرسول ليكون رسولا يجب ألا يكون كواحد من الناس يأكل الطعام ويمشى في الأسواق فقال تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين من رسول إلا كان هذا شأنه يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ، والتعبير بأرسلنا والمرسلين تدل على مصدر الصراع بين الرسل وأممهم فإن الرسول هو الذى أوحى إليه بوحي وأمر بتبليغه أما النبي فهو الذى أوحى الله إليه بوحي أمر بالتبليغ أم لم يؤمر ، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول فالرسالة والبلاغ وإصلاح حال البشر وردهم إلى رحاب التوحيد هو الذى أثار المشركين والظالمين والكافرين والمعتدين على حقوق العباد ، ومن هنا يتبين لك أن الصلاح وحده لا يكفى ولا يثير أحدا إنما يبدأ الصراع إذا انتقل الصالح إلى الأصلح ، إذ لايعنى الظالمين في أى مكان أن تعتكف ليلك ونهارك تعبد ربك وتصوم نهارك ، إنما الذى يعنيهم أن تتحرك لرد الظلم ودفع البلاء عن الناس ، ودعوتهم إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، حين تهتز مقاعدهم وعروشهم ويرون الخطر على ما

---

(١) سورة الأنعام ٦/ ٩ .

وصلوا إليه من تجبر وتكبر والوهية مفروضة على رقاب العباد ، هنا تثور ثائرتهم ولا يهدأ بالهم إلا بعد أن يستريحوا من هذا الذى حل بديارهم وأقض مضاجعهم ، و قد كان في العرب قبيل الإسلام حنفاء ملوا ما عليه قومهم من عبادة الأصنام فذهبوا يبحثون عن دين جديد فمنهم من تنصر كورقة بن نوفل ومنهم من كان يعبد الله على ما عرف من دين إبراهيم كزيد بن عمر بن نفيل العدوى ومنهم من بقى حائرا لا يهتدى إلى دين إلى أن أكرمه الله بالإسلام كعبد الله بن جحش الأسدى ، وهؤلاء لم يتعرض لهم أحد بأذى لكن دعوة الإسلام كانت غير ذ لك كانت دعوة إلى تغيير كل ألوان الفساد والإنحراف في العقيدة والسلوك لتلتزم الإنسانية بالمنهج الرباني فكان ما كان من الإيذاء والاضطهاد والتعذيب والتنكيل والمعارك التى سالت فيها الدماء إلى أن ارتفعت رأية هذا الدين خفاقة في العالمين . أعود فأقول : إن اختيار كلمة الرسالة هنا و في قوله فيما سبق : مال هذا الرسول .. تعنى فيما تعنى بيان سر هذا الهجوم الشرس على النبى العظيم والرسول الأمين عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين ، والتعبير «بنا» . في قوله « أرسلنا» يدلك على« أن هذا الإرسال لهؤلاء المرسلين إنما هو من دلائل عظمته ، وشأن العظيم أن يعاقب من خالف أمره ، ولله المثل الأعلى .. فهو الملك القوى الذى إذا أرسل رسولا فقد وجبت طاعته وإلا فالنكال والعذاب لمن عصاه وخالف أمره ورد قوله ، كما أن التعبير «بنا» قوله:«وجعلنا » يرشدك أيضا إلى مصدر هذا التفاوت بين خلقه فيما أعطاهم إياه، وكيف أن هذا النظام الذى جعله سبحانه سنة من السنن التي تحكم الناس إنما ذلك عنوان عظمته وقدرته التامة وحكمته البصيرة الخبيرة .. إذ جعل هذا غنيا وذاك فقيرا وهذا نبيا رسولا وهذا واحدا من الناس عليه أن يتبع هذا النبي وهذا الرسول .. إلى غير ذ لك من مظاهر الحياة في تفاوت درجاتها وعطاياها ..

ـ وفي قوله : « يأكلون..ويمشون ..فهم من البشر وإلى البشر أرسلوا ، و من الناس وإلى الناس هداة مرشدين . والعرب الذين قالوا « مال لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق » يعلمون هذه الحقيقة مما علموا من تاريخ المرسلين

وأحوالهم فهذا تذكير لهم بما يعرفون ، ورد عليهم أبلغ الرد فيما يدعون .

وفي قوله : « وجعلنا بعضكم فوق بعض فتنة » لم يخصص هذا البعض ، بأن جعل الأغنياء فتنة للفقراء والأصحاء فتنة للعجزة والمرضى وهكذا ، إنما جعل كل فريق فتنة للآخر . قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [1] وقد رأى بعضهم أن «المراد بالبعض الأول من لا مال له من المرسلين ، والبعض الثاني : أممهم ويدخل في ذلك نبينا ﷺ وأمته دخولا أوليا، فكأنه قيل : جعلناك فتنة لأمتك ، لأنك لو كنت صاحب كنوز وجنات لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا أو ممزوجة بالدنيا وإنما بعثناك لامال لك ليكون طاعة من يطيعك منهم خالصة لوجه الله تعالى من غير طمع دنيوي ، وكذا حال سائر من لا مال له من المرسلين مع أممهم .. » *

أما خطابه ﷺ بقوله تعالى : « و كان ربك بصيرا» ففيه من التسلية والعناية الربانية بهذا الرسول ما فيه ، فمع أن الله قد جعله في مبدأ أمره لا مال له كأثرياء مكة حتى قالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[2].

إلا أن هذا لا يعنى إهانة له وتحقيرا من شأنه كما ظن هؤلاء الجهلة ، إنما هو في موضع الرعاية الإلهية والتربية السماوية وما كان هذا إلا لحكمة اتضحت للقاصي و الداني فعلم الناس أن هذا من وسائل التربية الإلهية للأمة الرائدة فقد أراد الحق سبحانه أن ينطوى تحت لوائها المخلصون طلاب الآخرة ، من يتبعون دعوة الأنبياء من خير لبنى الإنسان لا لأعراض الدنيا وزخرفها ومتاعها .. وفي قوله : « وكان ربك بصيرا » أيضا وعد للصابرين بحسن العاقبة وعظيم الجزاء ، ووعيد للمعاندين المكابرين بسوء العاقبة وسوء الجزاء .. وقد كان ربك بصيرا وما زال ، فسبحانه من إله خبير بصير .

وما زالت الآيات تذكر شبههم ، و ترد على افتراءتهم ، وتفند أباطيلهم

(١) سورة الأنبياء ٢١ / ٣٥ .
(٢) سورة الزخرف ٤٣/ ٣١.

* روح المعاني :للألوسى ١٨ / ٢٥٥ .

يقول ربنا :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) ﴾ .

الكلمات والإعراب :

« وقال الذين لا يرجون لقاءنا ..» هذا القول تابع لقوله تعالى : وقالوا ما ل هذا الرسول يـأكل الطعام ...» والرجاء : تمـنى ما يمكن حدوثـه ، وأصل الرجاء الأمل والتـوقع ، فإن دخل عليـه النفي كان بمعنى الخـوف أو بمعنى عدم المبالاة ، واللقاء : الوصول إلى الشيء وتوافى اثنين متقابلين .

«لولا أنزل علينا المـلائكة أو نرى ربنا..» لولا : أداة تحضـيض بمعنى : هلا . وأنزل : فعل ماض مبنى للمجهول ، والملائـكة : أجسام نورانية لطيفة قادرة على التشكـل بأشكال مختـلفة ، وهى جمع : ملـك ، قال الكسائى : « أصـله مألك ، بتقديم الهمزة من الألوك وهى الرسـالة ثم قلبت وقدمت اللام فقيل : ملاك ، ثم تركت الهمـزة لكثرة الاستعمـال فقيل ملك ، فلمـا جمعوها ردوها إليـه فقالوا : ملائكة .. »[(١)].

« لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا » .

اللام موطئة للقسم ، و«قد» للتحقـيق ، والاستكبار : التعظم ، والتعالى على الآخـرين ، والعـتو : تجـاوز الحـد في الظلم ، « والعـاتي : الشـديد الدخـول في الفساد ، المتـمرد الذى لا يقبل موعظة ، و قال أبوا اسحـاق : كل شيء قد انتهى فقد عتا يعتو عتيا وعتوا »[(٢)].

---

(١) لسان العرب: لابن منظور م ١٦/ ٤٢٦٩ .

(٢) لسان العرب : لابن منظور م ٦/ ٢٨٠٤.

« يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ..» .

« يوم » ظرف زمان اختلف في العامل فيه : فقيل العامل محذوف تقديره : اذكر أى اذكر يوم يرون الملائكة ثم ابتدأ فقال : لابشرى يومئذ للمجرمين .. وقيل العامل فيه تقديره لابشرى للمجرمين يوم يرون الملائكة ، وقد دل على هذا المحذوف ما بعده ، ويومئذ : تأكيد لـ « يوم يرون » « قال النحاس : لايجوز أن يكون » « يوم يرون » منصوبا «ببشرى» لأن ما في حيز النفى لا يعمل فيما قبله ، ولكن فيه تقدير أن يكون المعنى : يمنعون البشارة يوم يرون الملائكة ، ودل على هذا الحذف ما بعده « [1].

وقوله : «لابشرى يومئذ ..» معمول لقول مضمر ، أى يرون الملائكة يقولون: لابشرى ، فالقول حال من الملائكة ،وهو نظير التقدير في قوله : والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ، وكل الظروف والجار والمجرور خبر عن «لا» « النافية للجنس » [2].

«ويقولون حجرا محجورا يقول ابن فارس : الحاء والجيم والراء : أصل واحد مطرد وهو المنع والإحاطة على الشىء ، و يقال حجر الحاكم على السفيه حجرا وذلك منعه إياه من التصرف في ماله ، والعقل يسمى حجرا لأنه يمنع إتيان مالا ينبغى ، والحجر (بفتح الحاء والجيم) معروف وأحسب أن الباب كله محمول عليه ومأخوذ منه لشدته وصلابته ، والحجر (بكسر الحاء وسكون الجيم) الحرام ، وكان الرجل يلقى الرجل يخافه فى الأشهر الحرم فيقولون : حجرا ، أى حراما ومعناه : حرام عليك أن تنالنى بمكروه ، فإذا كان يوم القيامة رأى المشركون ملائكة العذاب فيقولون : « حجرا محجورا » فظنوا أن ذلك ينفعهم في الدنيا ..» [3].

---

(١) تفسير القرطبى : الجامع لأحكام القرآن الكريم ط الشعب ، ٧ ص ٤٧٣٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين المسمى : بالفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للعلامة الجمل ٣/ ٢٥٢ .

(٣) معجم مقاييس اللغة : ابن فارس ٢/ ١٣٨ ، ١٣٩ .

وقوله محجورا صفة مؤكدة للمعنى ، وقوله : ويقولون .. معطوف على : «يرون » «وحجرا»منصوب بفعل محذوف وجوبا ، وهو من المصادر التى لا تنصرف إنما يلزم حالة واحدة .

« وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » .

القدوم : الإقبال على الشئ يقال : قدم على الأمر قدوما : قبل عليه ، وقدم إلى الأمر : قصد له ، وقدم من سفره رجع ، وقدم البلد : دخلها فهو قادم »[1].

والهباء : غبار يرى في شعاع الشمس يطلع من الكوة ، من الهبوة وهى الغبار ، وهباء مفعول ثان لجعل ، و« منثورا » صفته أو مفعول ثالث من حيث إنه كالخبر بعد الخبر[2].

« أصحاب الجنة خير مستقرا واحسن مقيلا ».

بين هذه الآية وما قبلها شبه كمال اتصال ، فهى إجابة عن سؤال مقدر مفهوم من الآية السابقة تقديره : إذا كان هذا هو حال الكافرين ومآلهم ومصير أعمالهم ، فما هو حال المؤمنين ، وما هو مآلهم وما جزاؤهم ؟ وأصحاب الجنة : هم المؤمنون ، وسماهم أصحابا لها لمكثهم الدائم فيها فهم خالدون فيها أبدا ، كما سمى الكافرين أصحاب الجحيم ، وأصحاب السعير ، والخيرية في قوله : خير مستقرا ، و الحسن في قوله : وأحسن مقيلا أما من باب مجازاة الخصم فيما يظن ويعتقد على معنى أنه إذا كان الكافرون يظنون أنهم بالموت سيستريحون وإذا كان هناك من بعث وحساب وجنة ونار فهم أحسن حالا من المؤمنين فهذا ظن خاطئ فالذى يفوز وله السبق والفضل هم المؤمنون ، أصحاب الجنة ، هذا إذا كانت المفاضلة فيما ظنوه في الآخرة إن كانوا يؤمنون بها - ويجوز أن تكون المفاضلة لما هم فيه في الدنيا بمعنى أنه إذا كان الكافرون قد شغلتهم دنياهم .

---

(١) انظر المعجم الوسيط ٢/ ٧٢٦ .

(٢)انظر تفسير البيضاوي ٢/ ١١٣ .

وفرحوا بها وظنوا أنها دار القرار وموطن الراحة والاطمئنان فإن ما أعده الله للمؤمنين خير مستقرا وأحسن مقيلا ، أو هذه المفاضلة فيما فيه المؤمنون في الدنيا وأن ما يرونه من بعض النعيم فيها فإنما هو إلى زوال وأن الآخرة خير وأبقى وذلك ليحثهم على العمل ، ويثبت أقدامهم على طريق الجهاد ، أو قوله : خير .. وأحسن لمجرد الوصف بالخيرية والحسن من غير مفاضلة .. وكل هذا جائز .. والمقيل : مكان القيلولة ، والقيلولة هى الراحة في منتصف النهار وإ ن لم يكن معها نوم .

المعنى العام :

في هذه الآيات الأربع بين الله سبحانه لونا آخر من ضلالات المشركين إذ قد طلبوا نزول الملائكة أو رؤية ربهم ليكون ذلك شاهدا على صدق رسول الله ﷺ فيما يبلغ عن ربه ، وما هكذا يكون طريق من أراد الدليل الحق إنما الذى طلبوه عنوان كبر سيطر عليهم ، ودليل ظلم بلغ منتهاه ، وما أرادوه سوف يتحقق ولكن في موقف آخر هناك في الأخرة حين تنكشف الأستار ، و تأتى الملائكة لا تبشرهم بخير ، إنما تنذرهم بالويل والهلاك . وتقول لهم الجنة أيها المشركون حرام عليكم ويأتى الله سبحانه موقف الحساب فإذا ماقدموه من أعمال ظنوها نافعة لهم ليس لها أثر إنما أضحت هباء ، إنهم في خير مستقر وأحسن مكان ، يستريحون ويفرحون بلقاء ربهم وما أعده لهم من عظيم الثواب .

نظرات في الآيات :

« وقال الذين لا يرجون لقاءنا .. الآية » .

بعد أن ذكر من أباطيل المشركين ماذكر ، وبعد أن بين حالهم ، ومآلهم ، ومالهم من الخزى والندامة ، أراد سبحانه أن يبين جانبا آخر من أباطيلهم فقال : «وقال الذين لا يرجون لقاءنا .. الآية وما بعدها ، ولو تأملت فيما طلبوه وما قالوه لوجدته أمرا عجبا يستحق الوعيد الشديد ، و التخويف الرهيب ، إذ قد طلبوا أمرين أولهما : إنزال الملائكة عليهم والثانى : رؤية الله عزوجل .. ولكن

ماذا يريدون من إنزال الملائكة ؟ وماذا يريدون من رؤية الله سبحانه ؟ هل يريدون من إنزال الملائكة أن تشهد لرسول الله : محمد ﷺ بأنه صادق كما قالوا أولا :

« لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا » ؟ أو أرادوا من ذلك أن يتساوو ا بالأنبياء بأن تنزل الملائكة عليهم تخبرهم عن الله كما يخبر الأنبياء ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (1).

وقال تعالى : ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) ﴾(2) ؟.

الواقع أنهم طلبوا هذا وذاك ، طلبوا الملائكة لتشهد بصدق رسول الله ﷺ . وطلبوها لتنزل عليهم بالوحي كما نزلت على رسل الله ؟

أما طلب رؤية ربهم ، فليشهد جل وعلا وليخبر بصدق رسول الله .. ﷺ ، وهذا كقوله تعالى في سورة الإسراء :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) ﴾(3).

أو تأتي بالله والملائكة قبيلا : أي نراهم مقابلة عيانا ، ومن قبل كفار مكة قال بنوا إسرائيل لموسى ما ذكره الله عنهم :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ﴾(4).

---

(1) سورة الأنعام ٦/ / ١٢٤ .

(2) سورة المدثر ٧٤/ ٥٢ .

(3) سورة الإسراء ١٧/ / ٩٠ - ٩٣ .

(4) سورة البقرة ٢/ ٥٥ .

﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) ﴾[١].

ولكن ما هي الأسباب التي دعتهم إلى هذا القول الآثم المتعنت ؟ في الآية الإجابة : إنهم لا يرجون لقاء الله ، وأنهم يحملون في أنفسهم كبرا على الانضواء تحت لواء التوحيد ، وأنهم بلغوا أقصى الحدود في الظلم والجبر والطغيان ، فلننظر في هذه الأسباب بل في هذه الأمراض التى رانت على فطرة القوم فأعمتها عن الحق وجعلتها تهرف بما لا تعرف ، وتنطق بما لا تعقل : السبب الأول تذكره الآية في مطلعها فتقول « وقال الذين لايرجون لقاءنا ..» فلم يقل : وقال الكافرون ، أو ا لمشركون أو الذين كفروا ، إنما وضع أيدينا على مواطن الداء لايرجون لقاءنا .. !! ولقاء الله في الآخرة أمر تسلم به العقول الفاقهة المستسلمة لربها ، ولسنا مع من قال إن لقاء الله : لقاء ثوابه وجزائه ، وإن كان من لوازم الثواب والجزاء ، وإنما لقاء الله أمل ورجاء يؤمن به المؤمنون ويحنون إليه ، أما أهل الكفر فقد انقطع فيهم هذا الرجاء ومات فيهم هذا الأمل ، ولا يدخل في حساباتهم وبهذا تستطيع أن تدرك لماذا حين دخل حرف النفى «لا» على «يرجون » أفاد عدم الخوف،أو قلة الاكتراث ، إذ كيف يخاف المشرك ربا يعتقد أنه لن يلقاه ، ولن يراه ، وأنه إن مات فقد مات ولن يبعث ،وبالتالي فلن يلقى ربه ولن يحاسب على شيء مما كسبت يداه ،روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قالوا : يارسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال:هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة ؟قالوا : لا ، قال: فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة ؟قالوا :لا، قال فوالذى نفسى بيده:لاتضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، فيلقي العبد ربه فيقول:أى فل (أي يا فلان ، يناديه باسمه) الم أكرمك وأسودك

(١) النساء ٤/ ١٥٣ .

(أي أجعلك سيدا) وأزوجك واسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع [1] ؟ فيقول : بلى يارب ، فيقول : أظننت أنك ملاقى ؟ فيقول :لا ، فيقول: فإني أنساك كما نسيتنى ، ثم يلقى الثانى ، فيقول : أي فل ، ألم أكرمك وأسودك وازوجك وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ، فيقول بلى يارب فيقول : أظننت أنك ملاقى ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإني أنساك كما نسيتنى، ثم يلقى الثالث : فيقول : أى فل ، ألم أكرمك واسودك وازوجك واسخر لك الخيل و الإبل ، واذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يارب ، فيقول : أظننت أنك ملاقى ؟ فيقول : أى رب ، آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ، ويثنى بخير ما استطاع فيقول : ههنا إذن ، ثم يقول : الآن نبعث شاهدا عليك فيتفكر في نفسه : من ذا الذى يشهد عليه ؟ فيختم على فيه (أى على فمه) ويقال لفخذه : انطقى ، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ذلك الذى يسخط الله عليه » [2].

وقد وردت الأحاديث الكثيرة في لقاء الله عزوجل وتكريمه للمؤمنين وتأنيبه للكافرين الجاحدين المنكرين ، وفي مخاطبة الله للمؤمنين نقرأ ما رواه البخارى ومسلم و الترمذى عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، و الخير في يديك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شئ أفضل ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا [3].

---

(١) ترأس : الترؤس : القدم على القوم وأن يصير رئيسهم (تربع) أى تأخذ المرباع وهو من يأخذه رئيس الجيش لنفسه من المغانم وهو ربعها وذلك في الجاهلية وقد روى : « تربع » بتاءين من التنعم والرتع، يقال : رتعت الإبل ، وأرتعها صاحبها : إذا كانت في موضع خصيب .

(٢) رواه مسلم في الزهد جـ١٨ - ص ١٠٣ . ١٠٤ ط الثانية ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ .

(٣) رواه البخارى في الرقائق : باب صفة الجنة . والترمذي في صفة الجنة والنار ، وفي التوحيد : باب كلام الرب مع أهل الجنة إحلال الرضوان على أهل الجنة . والترمذي في صفة الجنة باب رقم ١٨

وفي الحديث المتفق عليه من عدي بن حاتم رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يجد إلا ماقدم وينظر أشأم منه فلا يجد إلا ماقدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة .

وفي القرآن نقرأ الكثير من الآيات التي تتحدث عن سؤال الله للأنبياء والمؤمنين والكافرين في الآخرة ، فهل يؤمن الكافرون بمثل هذا ؟ إنهم لا يؤمنون بهذا السؤال لأنهم لا يؤمنون بلقاء الله ، قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) ﴾ (١).

﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(٢).

ولقاء الله قد يعبر عنه بلقاء الآخرة أو لقاء يوم الحساب كما قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) ﴾ (٣).

إلى غير ذلك من الآيات ، بل إنك تجد قبيل الآية التى معنا ، مشهدا من مشاهد القيامة حين يجمع الله الأولين والآخرين ويدور هذا الحوار بين الإله الحق جلا وعلا ، والآلهة التى عبدت من دونه ، والمشركين الذين عبدوا هذه الآلهة إلى أن يقول سبحانه : « فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ، ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا » أليس هذا الحوار لقاء بين الله وهؤلاء ، فلم

(١) سورة الأنعام ٦/ /٢٩ - ٣٢١ .
(٢) سورة الأعراف ٧/ ٥١ .
(٣) سورة الأعراف ٧/ ١٤٧ .

التأويل بأن الله عزوجل ، مما لا تحيط به العقول ، نسلم به ونؤمن بوقوعه ونفوض حقيقته إلى الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ۝٦ ﴾ [1] وقد كان ﷺ إذا قام من الليل دعا فقال : اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض . لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، قولك الحق ووعدك الحق ، ولقاؤك حق، والجنة حق. والنار حق، والساعة حق..... الخ ما كان يدعوا به ﷺ [2] .

مما يدلك على أن ماجاء في قول الله تعالى : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا » على حقيقته من أن الذي أوقع المشركين في هذا الضلال هو أنهم لا يخافون لقاء ربهم ، ولا يخطر لهم على بال ، لأنهم يؤمنون به أصلا ،

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۝٤٥ ﴾ [3] .

وهذا المرض مرض الإحتجاب عن الله ، وتوهم أنه لا لقاء بعد الموت ـ جرهم إلى ألوان من التعنت في الكفر ، والتبجح في الطلب فقالوا : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » فعبروا عن الطلب الأول بقولهم : لولا أنزل علينا الملائكة ..» فأتوا بأداة التحضيض « لو لا » حثا لرسول الله ﷺ على تحقيق ما طلبوه ، وبنوا الفعل للمجهول « أنزل» لأنه لا يعنيه من الذى سينزل الملائكة إنما المهم نزولها من أى منزل كان ، واستعملوا « أنزل» دون نزل لأنهم أرادوا أن تنزل الملائكة جملة واحدة ، وليتهم طلبوا أن تنزل الملائكة على رسول الله ﷺ وهم يشاهدونها مثلا ، كما قالوا أولا : لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا »

---

(١) الإنشقاق ٨٤ / ٦ .

(٢) الحديث رواه البخارى عن ابن عباس في كتاب التهجد باب التهجد بالليل ، وفي كتاب التوحيد باب قول الله تعالى : وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ، كما رواه مسلم والترمذى وابن ماجة ، والدرامى ، و الطبراني .

(٣) سورة يونس ١٠ / ٤٥ .

إنما تعنتوا فطلبوا أن تنزل عليهم كما تنزل على أنبياء الله ورسله ، ولم يطلبوا ملكا واحدا إنما طلبوا ملائكة فانظر إلى مدى ما وصلوا إليه من ضلال وكفران ، ولو علم الله أنهم سيؤمنون لو حقق لهم هذا ، لحققه لهم ولكنه يعلم أنها حيل المتمردين والمتجبرين والمستكبرين وليست طريق من أرادوا الهداية والإيمان قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾[1] .

هذا هو المطلب الأول وهو إنزال الملائكة عليهم ، أما المطلب الثاني ففي قولهم « أو نرى ربنا » لم يكتفوا بطلب رؤيته مرة واحدة ، مع أن هذا ليس لهم إنما أرادوا رؤيته المرة تلو المرة ، ليخبرهم في كل مرة بأن نبيه محمد ﷺ صادق فيما بلغهم عنه ، وجاءوا بكلمة الرب مضافة إلى ضميرهم (ربنا) وكأنهم ظنوا أنها ستشفع لهم في تحقيق ما طلبوه ، فهم معترفون لله بربوبيته ولكنهم لا يعترفون له بألوهيته فيصرفون عبادتهم وحياتهم كلها لغير هذا الإله الحق ولا يؤمنون به ولا بكتابه ، ولا برسوله ولا باليوم الآخر وما فيه ، مع أن هذا الذى قدموه دليلا على طلبهم ، شهادة أتهام ضدهم إذ كيف يعترفون بربوبيته ثم ينكرون ويتنكرون لألوهيته ؟؟ فما أبعد هذا الضلال ! !

ومع أن عدم إيمانهم بلقاء الله ، وبالتالى عدم خوفهم من هذا اللقاء وما فيه ، وما يترتب عليه ، من الأسباب التى قادتهم إلى أن يقولوا ما قالوا ، إلا أنك قد تتسأل عن أسباب أخرى لهذا الانحراف عن الطريق السوى في طلب دلائل الإيمان الحق ـ وهنا تاتيك الإجابة : « لقداستكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا» وهما أمران وثيقان الصلة بعدم الخوف من الله ولقائه ، الأمر الأول منهما يذكر سبب طلبهم إنزال الملائكة عليهم ، والثانى يبين أساس قولهم « أو نرى ربنا » ولنتأمل هذا وذاك : الأمر الأول ،: « لقد استكبروا في أنفسهم » يدلك على سر

(١) سورة الأنعام ٦/ / ١١١.

طلبهم إنزال الملائكة عليهم ، إنه الكبر الذي سيطر على عقولهم وقلوبهم حتى عدوا أنفسهم كبيرة الشأن ، عظيمة الجاه ، عالية المكانة ، فكيف تخضع وتكون تابعة لابن عبد مناف كما كانوا يقولون ، ونحن نذكر قول الله تعالى في سورة الأنعام :

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ (١) .

وقد أخرج بن أبى حاتم وأبوالشيخ عن أبى يزيد المدني أن أبا جهل قال : والله إني لأعلم أنه صادق ، ولكن متى كانت تبعا لبنى عبد مناف ؟؟ (٢) .

وفي غزوة بدر قبل أن يعود الأخنس بن شريق بقومه من بنى زهرة خلا بأبى جهل فقال له : يا أبا الحكم : أخبرنى عن محمد ، أصادق هو أم كاذب فإنه ليس ههنا من قريش غيرى وغيرك يسمع كلامنا ؟ فقال أبو جهل : و يحك والله إنه لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش »؟ (٣) وهذه الحقيقة تراها مؤكدة كل التأكيد : اللام موطئة للقسم ، والمقسم به محذوف ، تستطيع أن تقدره : وعزتى وجلالي لقد استكبروا، « وقد » المحققة لوقوع هذه الحقيقة ، والسين والتاء في قوله : استكبروا ، للطلب ، فكأنهم تكلفوا هذه الحقيقة ، والسين و التاء في قوله : استكبروا ، للطلب ، فكأنهم تكلفوا هذا وطلبوه وبحثوا عنه ، ليكون مرتكزا لحياتهم ، وعنوانا لتصرفاتهم ، وسلوكا يهيمن على أقوالهم وأفعالهم ، وقوله : في أنفسهم كما يقول الزمخشرى : « معناه : أنهم أصروا الاستكبار في أنفسهم ، أو كما يقول غيره : المعنى أنهم استكبروا في أنفسهم أى عدوها كبيرة الشأن ، فنزل فيه الفعل المتعدى منزلة اللازم وأصله من استكبره إذا عده كبيرا أى

---

(١) الأنعام ٦/ ٣٣ .

(٢) فتح القدير : للشوكاني ٢/ ١١٣.

(٣) انظر :جامع البيان : لابن جرير الطبري م ٥ جـ٧ص ١٩٨٢ وتفسير القرآن العظيم : لابن كثير ٢/ ١٣٠.

عظيما » [1] وكلا المعنيين ـ كما ترى ـ متقارب فإن من امتلات نفسه بالغرور والكبر لابد أن يفيض الإناء بما فيه وكل إناء بما فيه ينضح ، ولا بد أن تظهر آثاره في أقوال لاهية ، وعبارات نابية وتصرفات حمقاء ظنا منه أنه صاحب نفس عظيمة ، وشخصية مرموقة، ونسب عريق وأن غيره من خلق الله ليس كذلك فهو كمن ينظر إلى الناس من شاهق جبل : يرى الناس صغارا ويراه الناس صغيرا وإذا كان الله قد رد طلبهم : إنزال الملائكة لحالة الكبر التي سيطرت عليهم ، فقد بين أن طلبهم لرؤية الله مرة بعد أخرى مرده إلى أنهم وصلوا إلى أبعد درجات الظلم وكما قال تعالى : « وعتوا عتوا كبيرا » وقد عرفنا أن العاتي هو الشديد الدخول في الفساد ، والمتمرد الذي لا يقبل موعظة ، وأن العتو ، تجاوز الحد في الظلم ، وهؤلاء القوم كذلك إذ لم يكتفوا بما قالوه في القرآن ،وما ألصقوه برسول الله الطاهر المبارك من تهم وافتراءات وما طلبوه ، بل ولم يكتفوا بطلب المساواة برسل الله في أنزال الملائكة عليهم بل طلبوا شيئا لا يليق بأحد أن يطلبه ، لقد طلبوا أن ينزل لهم رب العزة ، يرونه بأعينهم ، يخبرهم بصدق رسول الله ﷺ ، كما حكى الله عنهم من قبل في سورة الإسراء : « .. أو تأتي بالله والملائكة قبيلا » فأي جرم هذا ؟ وأي جهل هذا ، ولولا إكرام الله لهذه الأمة بمحمد : الرحمة المهداة والنعمة المسداة والسراج المنير لأهلكهم كما أهلك من قبلهم ، من قوم موسى ـ عليه السلام ـ حين طلبوا مثل ذلك قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) ﴾ [2] .

ألا ترى أن ما طلبوه شيء يستحق الإنكار والتعجب ؟

يقول البقاعي : وفي حسن هذا الاستئناف (أي في قوله : لقد استكبروا ..الخ) .

---

(١) انظر : حاشية الجمل على الجلالين ٣/ ٢٥١ .

(٢) البقرة ٢ / ٥٥ ، ٥٦ .

وفحوى هذا السياق دلالة على التعجب من غير لفظ تعجب ، فالمعنى : ما أشد استكبارهم ، وأكثر عقودهم » [1] ؟ !

ولهذا جاء الوعيد الشديد لهؤلاء المتعنتين المتجبرين فقال تعالى : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا » .

وانظر إلى أبعاد هذا التهديد والوعيد ، أنه يساق في هذا الأسلوب الساخر بهم والجزاء من جنس العمل ، أنتم أيها المكذبون تطلبون الملائكة ترونهم رأى العين ، لتشهد لكم بصدق نبينا محمد ﷺ ، أو تنزل عليكم بالوحي كما نزلت عليه ؟ نعم سوف ترونها ولكن في موقف غير الموقف ، وفي حال لا يسركم ، وفي لحظات عصيبة محزنة أليمة ، لاخير فيها للمجرمين ولابشارة إلا بالعذاب والنكال ، فلتذكر يانبي الله هذه اللحظات وليذكر معك المؤمنون ذلك حتى لا تحزن ولا يحزنوا على ما وصل إليه القوم من عناد وضلال ، وليكون في هذا الوعيد ردع لهم وزجر عما هم فيه ، وإن كانوا ينكرونه الأن فسوف يرونه حقيقة واضحة هناك في الآخرة ، نعم سوف يرون الملائكة ولكن بعد فوات الأوان ، سيرونهم من أول لحظات الإنتقال من هذه الدنيا إلى حيث يستقرون في النار خالدين فيها وبئس القرار ، والآيات والأحاديث في هذ ا كثيرة تبين لنا في كل مرحلة من مراحل ومواقف الآخرة حال هؤلاء المجرمين وما ينكشف لهم من أحوال الملائكة معهم ، اقرأ في ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)﴾ [2] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

---

(١) نظم الدرر : في تناسب الآيات والسور : للإمام البقاعي ص ٤٢٩ .

(٢) باسطوا آيديهم : أى بالضرب لهم حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم .

(٣) الأنعام ٦/ / ٩٣ .

وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١)﴾ (١) .

وذلك أن الملائكة حين تريد انتزاع روح الكافر تتفرق في جسده خوفا من لقاء الله وغضبه فتضربه الملائكة وينادى ملك الموت : أخرجي آيتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث واخرجي إلى سخط من الله و غضب ، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول .. وفي القبر يقول تعالى :

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾ (٢) .

وفي عذاب القبر وردت الأحاديث الكثيرة فيها بشارة للمؤمنين ، ونكال للكافرين : روى البخارى ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن ر سول الله ﷺ قال : إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا: أتاه الملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل ،محمد ؟ فأما المؤمن : فيقول : أشهد أنه عبد الله وروسوله ، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعدا من الجنة ، قال النبى ﷺ فيراهما جميعا ، وأما الكافر والمنافق فيقول : لا أدرى ، كنت أقول ما يقول الناس فيه ، فيقال : لادريت ولا تاليت ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين » (٣) .

وفي البعث يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)﴾ (٤) .

---

(١) الأنفال ٨/ ٥٠ ، ٥١ . (٢) إبراهيم ١٤ / ٢٧ .

(٣) رواه البخاري في الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر ، وباب الميت يسمع خفق النعال ، ومسلم في الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه

(٤) القمر ٥٤ / ٦-٨ .

وهذا الداعي الذي يسرعون إليه في ذلة وصغار ، يقولون هذا يوم عسر ، هو إسرافيل عليه السلام حين ينفخ في الصور إيذانا بالبعث و القيام لرب العالمين ، فانظر إلى هذا الحال وقارن بينه وبين حال المؤمنين الذين يقول الله فيهم :

﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) ﴾[١] .

أما لحظات الحساب وتجلي الجبار في يوم التلاقي وحضور الملائكة فتقرأ في هذا قوله تعالى :

﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) ﴾[٢] .

قال الإمام مسلم عن ابن مسعود قال: قال : رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »[٣] .

وحين يساق المجرمون إلى النار « يدعون إلى نار جهنم دعا » وتقول لهم الملائكة مؤنبة لهم :

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) ﴾[٤] .

وفي النار يرون الملائكة : ملائكة العذاب ، وما أفظع ما يرون ، يقول تعالى :

---

(١) سورة الأنبياء ٢١//١٠٣ .
(٢) الفجر ٨٩ / ٢١ -٢٤ .
(٣) رواه مسلم في صفة الجنة / باب في شدة حر نار جهنم والترمذي في صفة جهنم / باب ماجاءفي صفة النار .
(٤) سورة الطور ٥٢ / ١٣ - ١٦ .

﴿ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (١) .

ويستغيثون بهؤلاء الملائكة فلا يجدون إلا التأنيب والتقريع ، يقول ربنا :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (٣) .

قال : ابن عباس : مكث ألف سنة ثم قال : إنكم ماكثون (رواه ابن حاتم)(٤) .

ومن هذه الآيات وما أكثرها وهذه الأحاديث يتضح لنا معنى قوله تعالى : «يوم يرون الملائكة » ، وما في تذكير رسول الله ومن معه بهذا اليوم المشهود وما في ذلك من زجر وتخويف لهم إن كانوا ينزجرون ويخافون ، والتعبير هنا بالفعل المضارع يدل على أنهم يرون الملائكة مرات ومرات كمارأينا في بعض مواقف الأخرة بدئا من خروج الروح إلى مالا نهاية حيث الخلود الأبدي في السعير وبئس المصير ، ولعلك رأيت معى أن كل أمال لأهل الكفر في هذا اليوم وما بعده وفي كل موقف وما فيه قد ذهب أدراج الرياح ، وأن البسمة ماتت على الشفاه والفرحة غاضت من القلوب ، والبشر قد اختفى من الوجود ، قال تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة التحريم ٦٦/ ٦ .

(٢) سورة غافر ٤٠ // ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) سورة الزخرف ٤٣ / ٧٧ ، ٧٨ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٥ .

(٥) سورة عبس ٨٠ / ٣٨ - ٤٢ .

ولهذا قال هنا : « لابشرى يومئذ للمجرمين » والمح معي التنكير في قوله تعالى : « لابشرى » فإنه يوحى بأنه لا بصيص لأمل في النجاة ، وقوله : «يومئذ»

وقد جاءت تؤكد وقوع يوم القيامة وما جاء فيه : يوم يرون الملائكة ، والإظهار في موضع الإضمار في قوله : للمجرمين ، وكان مقتضى السياق ، لابشرى لهم ، وماذلك إلا ليقول لنا بأن السبب في هذا الحرمان من الرضوان والسعادة والأمان والقصور والجنان والوقوع في سعير النيران إنما هو إجرام القوم واقترافهم لعظائم الذنوب من الإشراك والافتراء على الله وعلى رسوله وعلى كتابه وعلى المؤمنين . أما قوله تعالى : « ويقولون حجرا محجورا » فهي تصور التيئيس الذى يلقاه المجرمون حين يرون الملائكة فيطلبون النجاة والخروج من النار ، وعفوا الله ليدخلوا مع أهل الإيمان جنات النعيم فتقول لهم الملائكة : حجرا محجورا أى الجنة حرام عليكم ، لا ترونها ولا تدخلونها أبدا ، بل إن أهل النار لا يكتفون بطلب هذا من الملائكة إنما يطلبونه من أهل الجنة قال تعالى ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(١) .

ولعله لا يخفى عليك أن قوله : فاليوم ننساهم.. الآية .. من كلام الله تعالى تعقيبا على ما أجاب به أهل الجنة أهل النار ، ويجوز أن يكون القائل : « حجرا محجورا » هم المجرمون ، فإن الضمير في قوله للمجرمين ، وقولهم هذا يصور حال الفزع الذى اعتراهم حين عاينوا الملائكة ورأوا من صفاتهم مالا يخطر على بال أحد ، « قال ابن جرير : نعت النبى ﷺ خزنة جهنم فقال ، فكأن أعينهم البرق ، وكأن أفواههم الصياصي (أى كالحصون ضخامة) يجرون أشعارهم، لأحدهم من القوة مثل قوة الثقلين ، يسوق أحدهم الأمة (أي

---

(١) الأعراف ٧/ ٥٠ ، ٥١ .

الجماعة العظيمة من الناس) وعلى رقبته جبل فيرميهم في النار ، ويرمي ، فوقهم الجبل » وذكر بن وهب قال : حدثنا عبد الرحمن بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ في خزنة جهنم « ما بين منكبي أحدهما كما بين المشرق والمغرب »[1] .
وقال تعالى :

﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝ ﴾ [2] .

أي غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا ، شداد الأبدان ، وقيل : غلاظ الأقوال شداد الأفعال ، وقيل غلاظ في أخذهم أهل النار ، شداد عليهم ، وقيل أراد بالغلاظ ضخامة أجسامهم وبالشدة القوة ، قال ابن عباس : مابين منكبي الواحد منهم مسرية سنة ، وقوة والواحد منهم أن يضرب بالمقمع فيدفع بتلك الضربةسبعين ألف إنسان في قعر جهنم » [3] ومن يرى أمثال هؤلاء الملائكة في غلظتهم وقوتهم وسواد وجوههم وضخامة أجسامهم لا بد أن ترتعد فرائصه، يحاول الهرب ولا مهرب فينادي بكل الحزن والألم والخوف والهلع مستجيرا مستغيثا يهتف بكل ذرة في كيانه ، في وجه هؤلاء الملائكة قائلا « حجرا محجورا «وهى استعاذة يستعيذون بها من الملائكة ، كأنهم ـ لجهلهم ـ ظنوا أنهم في الدنيا، وأن هذه الكلمة ستنفعهم وستصرف عنهم العذاب وستجعل الملائكة تنصرف عنهم ، فإنهم كانو حين يقولون لمن أرادهم بسوء في الأشهر الحرم : حجرا محجورا يتركهم ولا يقربهم بسوء ، وهو وهم كاذب ، وظن جاهل فإن عذاب الله واقع بهم لا محالة ، ومهما استغاثوا واستعاذوا ، واستجاروا فلا مغيث ، ولا معيذ ، ولامجير .. ، ويا لها من كلمة فيها من الذلة والمسكنة والضياع والهلع ما فيها !! وفي استعمال المضارع : « يقول» مايدل على تكرار هذا القول منهم ، وأنهم كلما رأوا الملائكة ، تحمل لهم لونا من العذاب ، استغاثوا ، وجأروا ،

---

(١) تفسير القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ص ١٩ ص ٧٨ . ٨٠ .
(٢) التحريم ٦٦ / ٦ .
(٣) انظر تفسير القرطبي ص ١٨ ص ١٩٦ .

هكذا حالهم أبدا الأبدين ، فبئس مثوى المتكبرين إن القوم لم يقدموا على ربهم بعمل صالح ، فكل أعمالهم في الدنيا باطلة ، عارية من الخير ، إنها أقيمت على غير أساس وإن بدت في ظاهرها بهيمة المنظر .. هذه شجاعتهم وقوتهم ، ومكارمهم ، ونجدتهم للضعيف وإعانتهم للملهوف وحمايتهم للجار ، وهي صفات لو أسست على تقوى الله ورضوانه وقصد بها وجهه لوصلت إلى غايتها وحققت نتائجها ، ولكنها كانت كبرا وتطاولا واستعلاء وتفاخرا لم تحقق سوى الأحقاد والضغائن والعداوة و البغضاء :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) ﴾ [١] .

لذلك فكل ما عمله المشركون من أعمال يبدوا في ظاهرها أنها خير وأنها تنفعهم في الأخرة ، لا فائدة منها ،وليس لها من قيمة عند الله قال تعالى : **«وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا »** وقال تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ [٢] .

وقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[٣] فشروط قبول الأعمال : الإخلاص لله بتوحيده ، والمتابعة لشرع الله وفق ما جاء في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ، فإذا فقد الشرط الأول كان صاحبه منافقا ، يظهر الإسلام ويبطن الكفر ، وإذا فقد الثاني كان صاحبه مبتدعا ، وعمله مردود عليه وإن لم يتحقق واحد من الشرطين كان العمل أبعد عن القبول . وهذا

---

(١) سورة التوبة ٩/ / ١٠٩ .

(٢) سورة إبراهيم ١٤/ /١٨ .

(٣) [illegible]

هو حال أهل الكفر ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ (١) .

فإذا ما عدنا إلى قوله تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » لنتسائل عن المراد بقدوم الله تعالى ، هل هذا من باب التمثيل والتشبيه كما يقول البيضاوي رحمه الله « شبه حالهم وأعمالهم بحال قوم استعصوا سلطانهم فقدم إلى أشيائهم فمزقها وأبطلها ولم يبق لها أثر » (٢) .ويضيف الإمام أبو السعود : « أى عمدنا إليها «أي أعمالهم » وابطالناها ، أى أظهرنا بطلانها بالكلية من غير أن يكون هناك قدو م ولاشيء يقصد تشبيهه به » (٣) . وبمثل ذلك قال الإمام الشوكانى (٤) . وقال مجاهد والثوري : و قدمنا أى وعمدنا (٥) ، وبمثل ذلك قال صاحب الجلالين ، وقد علق على ذلك العلامة والجمل نقلا عن شيخه فقال : لما كان القدوم عليه تعالى محال فسره بلازمه وهو القصد ، فقوله : عمدنا : أى قصدنا ، والقصد في حق الله يرجع لمعنى الإرادة ..» (٦) . أو معنى « وقدمنا » حكمنا ببطلان أعمالهم ، أو أن هناك مضافا محذوفا ، أى قدم ملائكتنا ، وأسند ذلك إليه عزوجل لأنه عن أمره سبحانه .. وكل هذه التأويلات في معنى قدوم الله هروب من تشبيه الله بمخلوقاته ، وهذا المحظور أدى إلى تعطيل الكثير من صفات الله التى وصف بها نفسه ولم يقل أحد من السلف أو الخلف بأن الله يشبه خلقه لأنه القائل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾(٧)

(١) سورة الكهف ١٨ / ١٠٤- ١٠٥ .
(٢) تفسير البيضاوي ٣/ ١١٣ .
(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ٨٦ .
(٤) فتح القدير : للشوكاني ٤/ ٧٧٠ .
(٥) أنظر تفسير الطبري ١٩ / ٤ . وابن كثير ٣/ ١٣٤ .
(٦) أنظر حاشية الجمل على الجلالين ٣/ ٢٥٢ .
(٧) الشورى ٤٢/ ١١.

فالكل متفق على تنزيهه سبحانه عن مشابهة خلقه ، ولكن السلف رضوان الله عليهم يثبتون لله ما أثبته لنفسه دون تمثيل أو تأويل أو تعطيل ، ويقولون بأن القدوم هو إقبال الله ومجيئه وحضوره إلى موقف الحساب ـ كما أخبر بذلك عن نفسه جل وعلا ، ولكنه إقبال لا يشبه اقبال خلقه إنما هو صفة تليق بجلاله ، وهذا هو ما اعتقده وأدين الله عليه لأنه هو الحق الذى تؤيده الآيات الكثيرة والأحاديث ، مما لا يحتاج إلى تأويل ذلك كله إلى معان لم يقل بها الرسول ﷺ ولا أصحابه - ولا من بعدهم من سلف الأمة الصالح من أئمة المسلمين وعلمائهم من الفقهاء والمحدثين وغيرهم .. وما ذكرناه من الاياَت والأحاديث عند قوله : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا .. » يثبت لك أن قدوم الله حق كما أن لقاءه حق ، وقد روى البخارى ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضى الله عنه أن الناس قالوا : يارسول الله ، هل نر ى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله : قال : فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا ، قال : فإنكم ترونه كذلك ، يحشر يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبع ، فمنهم من يتبع الشمس ، ومنهم من يتبع القمر ، ومنهم من يتبع الطواغيت ،وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها . فيأتيهم الله ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته .. الخ هذا الحديث الشريف . . وعند الترمذي عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال :« يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يطلع عليهم رب العالمين ، فيقول : ألا ليتبع كل إنسان ما كان يعبد ، فيتمثل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب التصاوير تصاويره ، ولصاحب النار ناره ،فيتبعون ما كانوا يعبدون ...الخ [1] .

---

(١) رواه البخارى في الرقائق ، باب الصراط جسر جهنم ، وفي صفة الصلاة ، باب : فضل السجود ، وفي التوحيد باب : قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلي ربها ناظره » ومسلم : في الإيمان . باب معرفة طريق الرؤية والترمذى : في صفة الجنة باب : ما جاء في خلود أهل الجنة وأهل النار .

وفي القرآ ن الكريم ما يرشـدك إلى هذا القدوم وأنه على حقيقـته من الإتيان والإقبال بما يليق بذات ربنا ، يقول سبحانه :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٢١٠) ﴾ (١) .

ويقول عز من قائل :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) ﴾ (٣) .

فكل هذه الآيات ترشدك إلـى أن مجئ الرب وقدومـه وإتيانه على ما أخـبر به جل وعلا ، وكما قال ابن جربر قال بعضهم :لا صفة لذلك غير الذي وصف به نفسه عزوجل من المجئ والإتيان والنـزول ، وغير جائز تكلف القول في ذلك لأحد إلا بخبـر من الله جل جلاله ، أو من رسول مرسل ، يقول ابن جـرير : فأما القول في صفات الله و أسمائه فغير جائز لأحد من جهة الاستخراج إلا بما ذكرنا ثم يسوق حـديثا طويلا عن أبى هريرة رضي الله عنه وهو حـديث مشهور سـاقه غيـر واحد من أصـحاب المسـانيد وغـيرهم وفـيه أن الناس اهتـموا لوقفـهم في العرضات تشفعوا إلى ربهم بالأنبـياء و احدا واحدا ، من آدم فمن بعده ، فكلهم يحيد عنهـا حتى ينتهوا إلى محـمد ﷺ فإذا جاءوا إليه قال : أنا لهـا : ، فيذهب فيسـجد لله تحت العرش ويشـفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين الـعباد ، فيشفعـه ويأتي في ظلل من الغمام بعدما تنشق السماء الدنيـا وينزل من فيها من

(١) سورالبقرة ٢/ ٢١٠ .
(٢) سورة الأنعام ٦/ ١٥٨ .
(٣) سورة الفجر ٨٩/ ٢٠ -٢٣ .

الملائكة ولهم زجل من تسبيحهم يقولون : سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان رب العرش ذى الجبروت سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس ، رب الملائكة والروح قدوس قدوس، سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذى السلطان والعظمة ، سبحانه أبدا أبدا ، فيقضى الله عزوجل بين خلقه : الجن والإنس والبهائم ، فإنه ليقتص يومئذ للجماء من ذات القرن [1] فسبحانه الذى تنزه عن صفات الحوادث ، يأتى ويقبل وينزل ، ويخاطب خلقه ، ويدنى عبده المؤمن منه ويقرره بذنوبه ، وكل ذلك دون أن يشبه خلقه في إتيانهم ، وإقبالهم ، ونزولهم ، وقدومهم ، وكلامهم ، إنما هذا له دون تشبيه أو تمثيل ، أو تأويل ، أو تعطيل ، إذا« ليس كمثله شئ وهو السميع البصير » .

ولنعد مرة أخرى إلى قوله تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا ...» بعد أن عرفنا معنى قدوم الله عزوجل ، لنرى كيف حققت هذه الآية كسابقتها غرضها في ترهيب أهل الكفر وتخويفهم . وذلك ما نلمحه في كل كلمة من كلماتها : فالقدوم ليس مجرد إقبال على الشئ وقصد له ، إنما هو إقبال فيه حرص على الحضور ومسارعة إليه ، وذلك أن الكلمة في أصل وضعها اللغوى تدل على سبق وتقدم [2] . ولعل هذا المعنى هو ما نلمحه في قول الله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة .. » وكم في هذا السبق والتقدم والمسارعة من دلالات على خطورة الأمر وأهميته ، ولم لا ؟ وهو موقف القضاء والفصل بين العباد ؟ وهذا القدوم مسند إلى « نا» وفيها من تعظيم الواحد الأحد ما لا يخفى ، فهذا هو الإله الجبار المتكبر قادم إلى موقف الحساب لينظر فيما فعل عباده من خير وشر . ولكنه هنا يشير إلى قدومه من أجل هؤلاء المعاندين المكذبين ، لينظر في كل أعمالهم ، مهما كانت هذه الأعمال ، جليلها

---

(١) أنظر : جامع البيان : للطبرى ٢/ ٣٢٨ - ٣٣١ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٤٨ .

(٢) أنظر : معجم مقاييس اللغة :لابن فارس ٥/ ٦٥ .

وحقيرها ، وكبيرها وصغيرها، وهذا ما يوحى به قوله : « من عمل » وما في تنكير قوله : « عمل » من الدلالة على مثل هذه المعاني ، ولن يطول نظر الله إلى أعمالهم ليفصل فيها وليحكم لها أو عليها إنما يأتى حكمه سريعا ، وهذا ما نلمحه في قوله : « فجعلناه هباء منثورا » ، فإنها تدل على الترتيب والتعقيب ، ويفسر ذلك ما تقرؤه من قوله الله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾[1] .

وما تراه في قوله تعالى :

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ [2] .

وفي قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾[3] .

وغير ذلك من الآيات التى تدل على سرعة حساب الخلائق بعد قدوم الله إلى ساحة القضاء ، والفعل « جعلناه» مسند إلى «نا» الدالة على التعظيم ، فالله بعظمته وجلاله لا يبقى لهذه الأعمال أثرا ولا خيرا ، وقد شبهها بالهباء المنثور ، ليرسم لك مشهدا قريبا وأنت ترى ذرات الغبار في ضوء الشمس مجتمعة ، نافذة من الكوة وما هو إلا أن هبت الريح فتناثر هذا الغبار وتفرق ولم يبق له أثر ، وهكذا أعمال الكافرين لا يبقى لهم منها شئ ، ولا ينتفعون منها بشيء ، لقد ذهبت أدراج الرياح ، وضاعت وضاع معها كل أمل في النجاة :

---

(١) سورة النور ٢٤ // ٣٩ .

(٢) سورة إبراهيم ١٤/ ٥١ .

(٣) سورة غافر ٤٠ / ١٦ ، ١٧ .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾[1] .

وزيادة في تخـويف المشركين ، وتطمـينا للمؤمنين قـال تعالى : «أصـحاب الجنة يومئذ خير مـستقرا وأحسن مقيلا » و هذه اللمحة القـرآنية والصفة الربانية تأتي وسط مـشاهد الندامـة والخزى وما يكون من حـال أهل الكفر ،تضـيف إلى تعاسة المشركين نعاسـة ، وهم يرون المؤمنين ، يرفلون في حلل السعادة وتعلوهم البهجة ، و يتمتعون بالنعيم المقيم ورضوان الإله الكريم ، وقد عرفنا لماذا سماهم أصحاب الجنة كما عرفـنا معنى التفضيل في قوله خير مستـقراً وأحسن مقيلا » وبقى أن نستلهم قوله : « يومئذ » فكم فـيها من إيحاءات إلى ما لهؤلاء وأولئك من سعادة وشقاء ، وعزة وذلة ، ونعيم وجحيم ، ففي هذا الوقت وفي هذا اليوم وهذه اللحظات التى يرى فيها الظالمون ملائكة العـذاب قد أقبلت تبشرهم بسوء المصير ، ويأتي رب العزة إلى موقف الحساب ليـقضى بين العباد فلا يبقى لأعمال أهل الكفر أثر ، حـينذاك ترى وجها آخر مضـيئا بالنور مشـرق بالرضوان ، لقوم سعداء ، إنهم هذا الفـريق الذي حظى بالخير كله ، وفاز فوزا عظيـما « أصحاب الجنة يومئـذ خير مسـتقرا وأحـسن مقيلا » فـاللهم أجعلنا ممن سعـدوا برضائك وفازوا بجناتك يارب العالمين .

والمشـركـون الذين طلبـوا نزول الملائكة ورؤية الله عـز وجل ، رد الله عليـهم بأنهم يسرون الملائكة في مـوقف فيه الندامـة والحسرة ، لو علمـوا مافيه مـاطلبوا رؤية الملائكة ولا نزولهم أبدا وبين لـهم أنه سبـحانه سـيأتـي يوم القيـامة ليـحط أعمالهم فلا يبقى شئ ينفعـهم والأيات مازالت تصور ما في هذا ليوم وما يكون فيه من أحوال الكافرين فتقول:

---

(١) سورة الكهف ١٨ / ١٠٣ - ١٠٦ .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾ ﴾

الكلمات والإعراب :

« ويوم تشقق السماء بالغمام »

الواو حرف عطف ، و« يوم » ظرف زمان منصوب بفعل محذوف تقديره : اذكر ، أو : ينفرد الله بالملك الدال عليه قوله : « الملك يومئذ الحق للرحمن » و «تشقق» أصلها تتشقق ، والتشقق : التفتح و إنما عبر به للتهويل فإن الشين والقاف أصل واحد صحيح يدل على انصداع في الشئ كما يقول ابن فارس [1]، والغمام : السحاب المعروف ، وقيل المراد به غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ، ولم يكن إلا لبنى إسرائيل في تيههم ، أو هو الغمام الذي يأتي فيه الله تعالى يوم القيامة كما قال سبحانه : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ [2] . والباء في قوله « بالغمام » سببية والمعنى : تشقق السماء بسبب طلوع الغمام منها ، وقيل باء الحال وهى باء الملابسة أى تتشقق متغيمة ، وقيل بمعنى عن : أى تتشقق عن الغمام، و الباء وعن يتعاقبان تقول رميت بالقوس وعن القوس ، والسماء : هي كل ما علاك والمراد بها سماء الدنيا أو ما يعم كل السماوات ، أو كل سماء تشقق بالغمام وتنزل ملائكتها لساحة القضاء. « ونزل الملائكة تنزيلا » وهذا يعني أن نزولهم ليس دفعة واحدة وإنما ينزلون على دفعات ، ينزل أهل كل سماء ثم من بعدهم ، ولذا اختار « نزل » دون « أنزل » .. « وتنزيلا » مصدر مؤكد لفعله يدل على أن هذا التنزيل ليس كالمعهود في تنزيل الملائكة إنما هذا تنزيل من

---

(١) أنظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ١٧٠ .
(٢) سورة البقرة ٢/ ٢٠٩ .

نمط عجيب ونوع غريب (قال أهل العلم : إن هذا تنزيل رضا ورحمة لا تنزيل سخط وعذاب)[1] .

« الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوما على الكافرين عسيرا » : الملك ، مبتدأ ، و«الحق » صفة له ، و«للرحمن » متعلق بمحذوف خبر ، أو الخبر الظرف «يومئذ» والحق صفة للملك ، والمعنى : الملك الثابت للرحمن خاص في هذا اليوم ، ووصف هذا اليوم بأنه عسير على الكافرين فيه إشارة إلى كون ذلك اليوم - ومع مافيه من الأهوال التي تنزل بأهل الكفر - يسيرا على المؤمنين .

« ويوم يعض الظالم على يديه ..الآية »

الواو : حرف عطف ، و«يوم» منصوب بفعل تقديره : اذكر ، والجملة معطوفة على ماسبق من قوله : ويوم تشقق السماء بالغمام ، والعض ، الإمساك على الشيء بالأسنان ، ولا مانع أن يكون عض الظالم على يديه في هذا الموقف على سبيل الحقيقة ، وقيل هو كناية عن الندم والحسرة ، وال في «الظالم» للجنس ومثلها ال في « الرسول » فكل ظالم في كل أمة يقول في هذا اليوم ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، والمراد بقوله : فلانا : الشيطان ، أو للعهد فيهما ، والظالم هو عقبة بن معيط ، وفلانا : هو أبى بن خلف ، وذلك لما روى عن ابن عباس بسنده قال السيوطي صحيح : أن عقبة بن أبي معيط كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاما فدعا عليه أهل مكة كلهم ، وكان يكثر مجالسة النبى ﷺ ويعجبه حديثه وغلب عليه الشقاء فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاما ثم دعا رسول الله ﷺ إلى طعامه فقال : ما أنا بالذى آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إ له إلا الله وأنى رسول الله فقال: أطعم يا ابن أخى فقال : ما أنا بالذى أفعل حتى تقول ، فتشهد بذلك وطعم ﷺ من طعامه فبلغ ذلك أبي بن خلف فأتاه فقال: أصبوت ياعقبة ؟- وكان خليله فقال: والله ماصبوت ، ولكن دخل علي رجل فأبى أن يطعم طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن

---

(١) أنظر فتح القدير : للشوكاني في ٤/ ٧٢ .

يطعم فشهدت له فـطعم فقال : ما أنا بالذى أرضى عنك حتى تأتيه فـتفعل كذا وذكر فعـلا لايليق إلا بوجه القائل اللعين ففـعل عقبة فـقال له رسول الله ﷺ : لا القاك خارجا عن مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، وفي رواية إن وجدتك خارجا من جبـال مكة أضرب عنقك صبرا ،فـلما كان يوم بدر وخرج أصـحابه أبى أن يخرج فـقال له أصحـابه : أخرج معنا ، قـال : قد وعدنـي هذا الرجل إن وجدني خارجا من جبال مكة أن يضرب عنقي صبرا ، فقالوا : لك جمل أحمر لا يدرك فلو كانت الهزيمة طرت عليه ، فخرج مـعهم، فلما هزم الله تعالى المشركين رحل به جمله في جدد من الأرض فأخذا أسيرا في سبعين من قريش وقدم إلى رسول الله ﷺ فأمـر عليا كـرم الله وجهـه ، وفي رواية :ثابت بن الأفلح أن يضرب عـنقه فقـال : اتقتلني من بين هؤلاء ؟ قـال : نعم . قال: بما ؟ قـال : بكفرك وفـجورك وعتوك على اللهتعالى ورسـوله عليه الصلاة والسلام » [١] .وروى بن جرير عن مقسم قال : اجتمع عقبة بن أبى معيط وأبي بن خلف وكانا خليلين فقال أحدهما لصاحبه : بلغني أنك أتيت محمدا فاستمعت منه ، والله لا أرضى عنك حتى تتفل في وجهـه وتكذبه ، فلم يسلطه الله على ذلك ، فقتل عـقبة يوم بدر صبـرا ، وأما أبي بن خلف فقتله النبي ﷺ بيده يوم أحد في القتال .. » [٢] .

وقوله« يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا » في موضع نصب حال ، أو جملة مستأنفة أو مبينة لما قـبلها ، وقوله ، ياليتني اتخذت .. مقول ، و«يا» حرف نداء والمنادى محذوف والتقدير : ياقومي ليتـني : أو للتنبيه ، ومن غير قصد إلى

(١)إنظر : روح المعاني للألوسي ١٩/ ١١ ، ١٢ وفتح القدير للشوكاني ٤// ٧٤ .

(٢) أنظر : جامع البيان :لابن جرير الطبري ١٩/ ٨ .

تعيين المنبه ، وليت : حرف تمنى فيما لا أمل في تحقيقه ، والسبيل هو الطريق ، وتنكيره :لادعاء تعينه ، أى ياليتني اتخذت طريقا إلى النجاة ، أى طريق كان ، وأتى مفردا لأنه طريق واحد هو طريق الحق لا يتشعب .

«ياويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا »

يا و يلتا : دعاء على نفسه بالويل والهلاك فكأنه قال : أيها الهلاك أين أنت تعال فهذا أوانك بالويل والهلاك فكأنه قال : ياويلتا : يا ويلتى فأبدلت الكسرة فتحة والياء ألفا ، و«فلانا» كناية عن علم مذكر ، والمراد به : الشيطان ، أو من أضله في الدنيا كائنا من كان . أو أبيا إن كان الظالم عقبة ، أو عقبة إن كان الظالم أبيا ، والخليل : الصديق الذى تمكنت محبته من القلب ، وتخللته فاحتلت سويداءه ، واستولت على مشاعره وأحاسيسه.

« لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني » اللام موطئة للقسم ، و«قد» للتحقيق، « والذكر» هو القرآن أو موعظة رسول الله ﷺ أو كلمة الشهادة ، ولا مانع من إرادة ذلك كله . و قوله : « بعد إذ جاءني » أي بعد إذ جاءني الذكر وتمكنت منه وقدرت عليه « .. وكان الشيطان للإنسان خذولا » هذه جملة مقررة لمضمون ماقبلها ، وهي من كلام الظالم يعترف بالحقيقة يوم لا يغنى اعتراف ، أو من كلام الله سبحانه تقريرا لما يفعله الشيطان بهؤلاء المكذبين المعاندين ، والشيطان هو هذا الخليل الذى أضل خليله ، أو إبليس لأنه هو الذى حمله على ذلك أو كل من تشيطن من الجن والإنس ، وا لخذلان : ترك الإغاثة ، و التخلي عن النصرة وقت الحاجة إليها ممن يظن فيه ذلك ، وقوله : «خذولا» صيغة مبالغة في الخذلان ، وا لإنسان : الكافر . أو كل من أغواه الشيطان .

المعنى الإجمالي :

فى هذه الآيات يوالى الحق تبارك وتعالى تذكير رسوله ﷺ والمؤمنين معه بمشاهدة يوم ا لقيامة ومواقفها وما يكون فيها من خزى وندامة لهؤلاء المكذبين الجاحدين ، فيقول اذكر هذا اليوم العصيب الذى تتصدع فيه هذه السموات ويبدو سحاب أبيض كثيف وتنزل الملائكة من كل سماء لحضور يوم الحساب ، حينذاك يعرف الملوك والملاك أن ما كان معهم في الدنيا عارية مستردة وأن الملك الحقيقي للإله الذى تتجلى رحماته على المؤمنين ، وتنزل شدته وعذابه على الكافرين فيرون هذا اليوم طويلا طويلا لا تنقضى ساعاته ولا تمر لحظاته . وليذكر رسول الله ﷺ والمؤمنين معه حال هؤلاء التعساء فى هذا الموقف والواحد منهم لا يكتفى بأن يعض أصبعه ندما وأسفا على ما فات إنما يعض على يديه وهو يتمنى أن لو كان قد سار على هدى رسول الله فنجا وفاز ، ولكن لا ينفع الندم ، إنه لهذا يدعو على نفسه بالويل والثبور ، ويتمنى أن لو كان قد قطع صلته برفقة السوء ولم يتخذ واحدا منهم صديقا حميما ، وحبيبا قريبا . فإن هذا الصديق شيطان تزيا في صورة إنسان فأنساه ذكر الله وحال بينه وبين هداية رسول الله ، وكان ذكر الله ، وهداية رسول الله ، وكتاب الله ، كذلك بين يديه حاضر لا يمنعه من الانتفاع به مانع ، ولكن ماذا يفعل وقد خذله الشيطان وتخلى عنه كما هي عادته ، وكان الشيطان للإنسان خذولا ..

نظرات فى الآيات :

« ويوم تشقق السماء بالغمام .. »

هذا الذى يذكر الله به رسوله ﷺ ويذكر معه المؤمنين ، فيه تطمين له ولهم ، وبيان لما يكون في يوم القيامة من الأهوال العظام التي يلقى فيها الظالمون سوء المصير ، وحظى فيها المؤمنون بالنعيم المقيم حيث لا يحزنهم الفزع الأكبر تتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ، فلنتأمل فيها معنا من الآيات ى كيف عبرت كلماتها عن هذه الحقائق :

نرى أنه أتى بكلمة « يوم » ثلاث مرات يوم يرون الملائكة .. ويم تشقق السماء بالغمام .. ويوم يعض الظالم على يديه .. وهو يوم واحد هو يوم القيامة ولكن نظراً لطوله على الظالمين المعاندين كأنه أيام وأيام ، وكان كل لون من ألوان العذاب فيه يستغرق أيام وأيام ، ولذلك قال تعالى :

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) ﴾[1].

والعطف يفيد التغاير ، وهذا التغاير باعتبار لون العذاب الذى يقع في هذا اليوم ، أو الأول حين الإحتضار ، والثاني عندما يأذن الله بزوال الدنيا ، والثالث عند الحساب حين يأخذ هذا الكتاب بيمينه ويأخذ هذا الكتاب بشماله .. وكل واحد من هذه الأيام جدير بالتذكير به ، وما فيه من الإرعاب والتخويف يهد الجبال الرواسى .. وقد عبر عن تفتح السماء ـ أيذانا بزوالها ـ بالتشقق ، وحروف ا لكلمة تنبئ عن الشدة وفى التعبير عن ذلك بالمضارع « تشقق » رسم لصورة السماء على هذا الحال العجيب والمنظر الرهيب وأصل « تشقق » تتشقق، فحذفت إحدى التائين ، ولعل ذلك لما أن هذا التشقق ليس كما عرفنا من تشقق الأشياء إنما هو تشقق لا يعلمه إلا الله ، وأنت تقرأ فى القرآن قول الله تعالى :

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) ﴾[1].

ويقول في سورة الحاقة : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ

---

(١) سورة المعارج ٧٠ / ١-٧ .

(٢)سورة الرحمن ٥٥ / ٣٧ ـ ٤٢ .

(١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) ﴾ [١].

وهناك في سو رة الانشقاق :

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) ﴾[٢].

وفي القرآن سورة الانفطار وسورة التكوير وكثير من الآيات التي تبين ما يصيب هذا الألم من تحطيم ونسف وزوال وما يصاحب ذلك وما يعقبه من بلاء ومحن وشدائد ، وما هنالك من حساب وجزاء قال تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) ﴾[٣].

وقال سبحانه :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾ [٤].

أما قوله : « بالغمام » فهذا معناه أنها تشقق بسبب الغمام أو تتشقق ومعها الغمام ، أو تتشقق عن الغمام ، وقد قيل أن الغمام « سحاب أبيض فوق

---

(١) سورة الحاقة ٦٩/ ١٣ـ١٨ .

(٢) سورة الانشقاق ٨٤// ١ـ٦ .

(٣) سورة طه ٢٠ / ١٠٥ -١١٢ .

(٤) سورة إبراهيم ١٤ // ٤٨ .

السموات السبع ثخنة كثخن السموات السبع كذلك ، وثقله كذلك على السماء السابعة فيخرقها بثقله ، وهكذا حتى ينزل إلى الأرض وفيه الملائكة ، أى ملائكة ملائكة كل سماء فينزل أولا ملائكة السماء الدنيا وهم أزيد من أهل الأرض من إنس وجن ، ثم ملائكة السماء الثانيـة وهم أزيد من ملائكة سماء الدنيا وهكذا وإذا نزل ملائكة سمـاء الدنيا اصطفوا خلف هذا الصف صفـا آخر وهكذا حتى تصير الصفوف سبعة [1]. فالسـماء إذن تتشقق لأن هـذا الغمام يخرقـها ، وهي تتشقق ومعها الغمام الذى شققها . وهى تتشقق فيبدوا هذا الغمام ، ولا تعارض بين هذه المعانى ، وإن كـانت الروايات التي و ردت في حقـيقة هذا الغـمام وفي نزول الملائكة فيه ، مسنـدة إلى ابن عباس أو غيره من الصحابة فـهذا مما لا مجال للرأى فيه ، و له حكم المرفوع ، ولم يرد في بيـان ذلك حديث مرفوع إلى رسول الله ﷺ ، فيـه ضعف ولذلك ترى الإمام ابن كـثير بعد أن سـاق إحدى الروايات عن ابن عباس في هذا المعنى يقول : فمداره (أى مدار رواية الخبر) على علي بن زيد بن جدعان وفيه ضعف في سياقاته غـالبا ، وفيه نكارة شديدة ، كمالا يعقب على رواية لابن جرير عن عبد الله بن عمرو فيقول : وهذا موقوف على عبد الله بن عمرو من كلامه ، ولعله من الزاملتين ، والله أعلم » [2].

فلنفـوض علم هذا إلى العليم الخبيـر ، ويكفيـنا أن الله أخبـرنا بأن السمـاء تتـشـقق بالغـمام وأن الله جـلا وعـلا يأتي في ظلل من الغـمـام والملائكة ليـوم الحساب ، دون دخـول في حقيقة ذلك مادام لم يصـل إلينا عن رسولنا ﷺ مايبين كيف يأتى ، وكيف تأتى الملائكة معه ، فالكيف مجهول والإتيـان في لغة العرب معلوم والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة .. أما قوله : « ونزل الملائكة تنزيلا » فـقد عـرفنا أن «نزل « بالتـشـديد تدل على النزول مـرة بعد مـرة ، وفى هذا رد عليهم إذ قالوا : « لولا أنزل علينا الملائكة » يقول لهم ربنا : ستنزل الملائكة ولكن ليس كما طلبتم ، ولا لما طلبـتم ، إنما ستنزل شيئا فشيئـا ، تنزل ملائكة كل سماء

---

(١) الفتوحات الإلهية : للعلامة الجمل ٣/ / ٢٥٣ .

(٢) أنظر / تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٦ .

ثم التي تتلوها وذلك في يوم عصيب ، والفعل « نزل » مبنى للمجهول ، ومن المعلوم أن الذى نزل الملائكة هو ا لله ، وإنما لم يذكر لأن الموقف موقف ترهيب وزجر ، فليبادر إلى إيصال الفعل للمفعول اختصارا في العبارة التى توحى في مثل هذا المقام بسرعة وقوع الفعل فإن الملائكة مع نزولها جماعة بعد جماعة إلا أنه حين تنزل جماعة منهم تنزل على و جه السرعة ، فهو نزول ليس كالمعهود في نزول الملائكة على هذا النحو من الكثرة والسرعة ، ولهذا أتى بالمفعول المطلق هكذا فقال : « ونزل الملائكة « فهو تنزيل من لون خاص ، لم يعرف من قبل ، إنه تنزيل ملائكة كل سماء لحضور يوم القضاء ، فنسأل الله السلامة والعافية .

« الملك يومئذ الحق للرحمن ..الآية »

هذا الفصل بين هذه الآية والتي قبلها فيه من إيقاظ الحس ، وتنبيه المشاعر مافيه ، إذ بعد أن ذكر بزوال هذه العوالم حين تشقق السماء بالغمام وما يكون من نزول الملائكة لأرض المحشر ، كان لابد للنفس أن تتساءل : وماذا يكون من أمر الخلائق ؟ ماذا عما كان لهم من ملك وملك وسلطان وقوة وقدرة ؟ فتأتيك الإجابة : « الملك يومئذ الحق للرحمن ..» فتقع هذه الإجابة في النفس كل موقع، وكم في قوله : « يومئذ» من ايحاءات لما في هذا اليوم من شدة وبلاء ،إذ هى تشير إلى ما وصف من حال يوم القيامة فكأنه يقول : الملك يو م تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ـ الحق للرحمن ـ وليقارن العاقل بين : يومئذ ، في هذا الموقف ، و«يومئذ» في قوله تعالى « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقر وأحسن مقيلا « ليعلم الفرق بين الحالين ، والبون الشاسع بين الفريقين . والملك كله لله ، بهذا جاءت الآيات الكثيرة : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ (١).

لايشاركه أحد : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ ﴾(٢).

---

(١) المائدة ٥/ ١٢٠ .

(٢) آل عمران ٣/ ٢٦ .

وما في أيدى الخلق عارية مستردة و هم مستخلفون في هذا الذى ملكهم الله إياه، تقرأ فى سورة الحديد تقرير ملكية الله لما في السموات والأرض ، وأمر الله لعباده الذى قال فيه :

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ⑧ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑨ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ⑩ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ⑪ ﴾ (١) إلى أخر الايات الكريمات في هذا المقام .

ولكن هؤلاء العباد المستخلفين في الأرض ، وهؤلاء الذين آتاهم الله من ملكه ، يتوهمون كما يتوهم غيرهم أنهم مالكون حقا ، لما يرون من تصريفهم ، وحرية اختيارهم فيها بين أيديهم ، فإذا ماحم القضاء ، وحان الأجل تركوا ما خولهم الله وراء ظهورهم ولم يأخذوا معهم في أكفانهم وفي قبورهم نقيرا ولا قطميرا من هذا الذى كانوا يتقلبون في نعمائه، ويقاتلون ويعادون ، و يظلمون من أجله ، وحين يبعثون ، يبعثون ويحشرون حفاة عراة ، غرلا كما قال رسول الله ﷺ هنا وفي هذه اللحظات تبدوا الحقيقة واضحة ، ويكشف الغطاء عن القلوب التي أعماها حب الدنيا وجمع حطامها الفاني ، ويعلم الخلق أن الملك يومئذ الحق الذى لا مرية فيه ولا شبهة للرحمن .. ، ولهذا كثيرا ما يقرر سبحانه هذه الحقيقة في قرآنه :﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ⑯ ﴾ (٢).

---

(١) الحديد ٥٧٧ // ١-١٠ .

(٢) غافر ٤٠/١٦ .

ويقول : ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)﴾ [١] .

وفي الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يقبض الله الأرض ، ويطوى السموات بيمينه ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟؟ » [٢] .

ومع أن الله متصف بالرحمة الشاملة وقد وصف نفسه بها في هذا المقام فقال : الملك يومئذ الحق للرحمن .. إلا أن هذا لا يهون الخطب على الكافرين لأنهم لا يستحقون شيئا من هذه الرحمة ، ولهذا قال : وكان يوما على الكافرين عسيرا ، وهذا اليوم لم يأت بعد ، وقد أشار إلى ذلك بقوله : « ويوم تشقق السماء بالغمام » فالسماء ستتشقق وستنفطر وستزول إذا ما أذن الله بذلك ، ولكنه يقول : ونزل الملائكة تنزيلا ، و يقول : وكان يوما على الكافرين عسيراً ، فيعبر بالمضي في الموضعين كأن الأمر قد حدث وكأن الملائكة قد نزلت ، وكأن الكفار قد و قفوا في مواقف يوم القيامة ورأوا ما في هذا اليوم من بلاء ومحن وشدائد وما ذلك إلا لأن هذا كله واقع لا محالة ، ترهيبا وتخويفا لهؤلاء المشركين المكذبين ، و في تنكير « عسيراً » ومجيئها على صيغة فعيل ، ما يدلك على أن العسر في هذا اليوم قد بلغ منتهاه ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)﴾ [٣] . يشعر بشدته وبلائه الكافرين ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [٤] .

---

(١) الأنعام ٦ / ٧٣ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب : وا لأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، وكتاب الرقائق ، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة ، وكتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى ، لما خلقت بيدى .

(٣) المدثر ٧٤/٨- ١٠ .

(٤) القمر ٥٤/٦- ٨ .

وأى عسر فى هـذا اليوم ؟؟ إنه لا يتيسـر فيه أمر ، ولا يجاب فـيه مطلب ، ولا يرى فيه الظالمون ومضة أمل ، ولو تتبعـت حالهم حين يبعثون ويساقون إلى أرض المحشر ويحاسبون ، ويدفعون إلى النار ، ووقفت عند كل لحظة لترى ما حل بهم من كـآبة وحـزن ومـا نزل بهم من يأس وقنـوط ، ومـا أحـاط بهم من عذاب، وما هـم فيه من غم وكرب لعلمت مـا تحمله هذه العبارة : « وكـان يوما على الكافرين عسيراً » من تخويف وإرعاب ، ومـا فيها من تطمين للمؤمنين فإن هذا اليوم إذا كان عـسيراً على الكافريـن يطول ويطول ولا تنقضى لحظاته ولا تمر ساعاته فإنه سريع الانقضاء بالـنسبة للمؤمنين . يمر عليهم حتى يكون أخف على الواحد منهم من صلاة مـكتوبة صلاها في الدنيا . فهم وفـد الرحمن يحظى بظل عـرشـه يوم لا ظل إلا ظله ، ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) ﴾ (١) . إنهم أولياء الله قال تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) ﴾وهل يترك الحبيب حبيبه؟ وهل يجعله يخاف أو يحزن ؟ (٢) . وقال تعالى:

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾ (٣) .

وهذه صورة آخرى من صور العذاب ترسمها حروف وكلمات قوله تعالى:
﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الر سول سبيلا ﴾ .

إنه الندم يوم لا ينفع الندم ، وإنهـا الحسـرات يتجرعـها هؤلاء التـعسـاء فلا يزدادون إلا تعاسـة والما ، وإنه لموقف يستحق أن يذكـر به الرسول ﷺ والمؤمنو ن معـه ،وهو موقف من مـواقف يوم القيـامة تراه وقد انكشـفت الأستـار وظهرت

---

(١)سورة الأنبياء ٢١/ ١٠٣ .
(٢) سورة محمد ٤٧ / ١١ .
(٣) سورة يونس ١٠ / ٦٢ - ٦٤ .

الحقائق ، وطارت الصحف فهذا ممسك كتابه بيمينه وذاك آخذ كتابه بشماله . وهذا تحف به منن الكريم الرحيم وذلك يحط به غضب المنتقم الجبار القوى المتين، وفي إظهار الفاعل ووصفه بالظلم ما يدلك على السبب الذى أدى بهؤلاء إلى هذا الحال من الأسى والأسف ، إنه الظلم ، وظلمهم لربهم ، حين جعلوا له أندادا ، وظلمهم لرسلهم حيث كذبوه وعاندوه ، وظلمهم للمؤمنين حيث آذوهم وقاتلوهم وطاردوهم ، و ظلمهم لأنفسهم حين منعوها حقها في الإيمان بالله رب العالمين ، والعض على اليدين ، صورة مجسمة للندم بكل ما فيه من ألم، إذ لم يكتف الظالم بعضر أنامله ، ولا بعض يد وا حدة ، إنما ها هو ذا يعض على يديه ، يعض عليهما معا ، أو يعض الواحدة تلو الأخرى ، حقيقة ، ولا مانع من ذلك ، فالنادم كثيرا مايعض أنامله فإن أشتد ندمه وألمه عض يده أو فعل حركة تنفس عن كربه وحزنه ، كشهيقة وبكائه أو ضربه بيده على رأسه أوما شابه ذلك،والقرآن يضع هذه الحركة في صيغة الفعل المضارع ليصور لك صورة متجددة شاخصة تراها أمامك لإنسان اعتراه الأسف فأخذ يعض على يديه ، يقول : ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا .. إلى آخر ماقال مما ذكر الله عنه .

وأنت تلاحظ ما في هذا القول من بيان لحال هذا الظالم وهو يمد في الكلمات مدا ، و كأنك تحس بنبراته المتحشرجة مع كل عبارة قالها ، وكل كلمة ينطق بها ، إنه ينادى ، فعلى من ينادى ؟ إنه ينادى أهل الموقف ليعلن عليهم حسراته ، ينادى قومه وقد كانوا أعوانا له على معصية الله ومخالفة أمره ورفض دعوة الإيمان ، أو لايقصد نداء إنما هكذا يطلق صيحاته وامنياته تعبر عن ندمه وألمه ، إنه يتمنى أن لو كان قد آمن واستجاب واتخذ مع الرسول طريقا يوصله للنعيم والرضوان ؟ ولكن ما فائدة التمنى ، والتمنى أمل بعيد المنال ، ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ (٦٦) ﴾ (١) .

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ

(١) الأحزاب ٣٣/ ٦٦ .

لأَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾ (١) .

والرسول هو رسول الله محمد ﷺ إن قلنا بأن الظالم هو عقبة بن أبى معيط ، أو هو كل رسول إذا قلنا بأن الظالم هو كل من أصر على كفره في كل زمان ومكان ، ويدخل فيه عقبة دخولا أوليا ، والسبيل هو الطريق ،وافرده هنا لأنه طريق واحد لا يتعدد هو طريق الله ، وغيره طرق ، على كل طريق منها شيطان يدعوا إلى النار ، ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾(١)

وقد روى بن جرير بسنده عن بن عبد الله بن مسعود قال خط لنا رسول الله ﷺ خطا فقال : هذا سبيل الله ، ثم خط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطوطا فقال : هذه سبل على كل سبيل منه شيطان يدعو إليها ، ثم قرأ هذه الأية :

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾ (٢) .

ولما ظهر أسفه وندمه على ترك طريق الرسول ﷺ أعلن ندمه على اتخاذ غيره فقال : « ياليتني لم أتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلني عن الذكر بعد إ ذ جاءني ...الآية » فهو في الحالين يطلب محال ، ولهذا عبر بليت في الحالين ، و« فلانا كناية عن ا لشخص الذى صادقه وجعله له حبيبا حتى استولت محبته على قلبه ، وتخللت كل أحاسيسه ومشاعره وأنه ليقسم مؤكدا هذا القسم باللام و«قد» على ما فعل به هذا الصديق ، لقد أعماه عن الطريق ، وكان الطريق أمامه واضحا ، ولقد وصلت إليه الهداية يحملها هذا الرسول الرحيم . والنبي الكريم ، فلم يترك

---

(١) سورة الفجر ٨٩/ ٢٣ -٢٦ .

(٢) سورة الزخرف٤٣/ ٣٦ـ٣٩ .

(٣) سورة الأنعام ١٥٣ . جامع البيان : لابن جرير الطبري ٨/ ٨٨ .

صلوات الله وسلامه عليه ـ حجة لمحتج ، ولم يأل جهدا في نصح من أرسل فيهم ولكن هذا الخليل أخذ بيد خليله إلى متاهات الباطل ، وانحرف به إلى ظلمات الضلال ولم يرشده إلى الحق ، ولم يتركه ليعود إلى رحاب الأمان في ظل الإيمان، إنه شيطان في صورة صديق ،والشيطان يخذل أوليائه في كل موقف . «وكان الشيطان للإنسان خذولا .. » فليحذر العاقل من رفقة السوء ، وليتخير من الناس أهل الخير والخلق القويم ، من تذكره بالله رؤيتهم ، ويزيد في عمله قولهم وفعلهم ، فالمرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل.

وبعد هذه الجولة من تخويف المكذبين وما آل إليه حالهم من الندم والحسرة عاد إلى رسول الله ﷺ يطمئنه ويسرى عنه ، ويذكر ما طلبوه من نزول القرآن جملة واحدة ويرد عليهم ويهددهم فيقول :

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤)﴾ .

الكلمات والإعراب :

« وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا ..» .

الواو : حرف عطف ، والجملة بعده معطوفة على قوله : وقال الذين لا يرجون لقاءنا .. ، والرسول : محمد ﷺ ووصفه بالرسالة هنا لأنها هى التى أثارت ضغائنهم وأحقادهم ، و«يا» حرف نداء ، ينادى به للبعيد ، أما القريب فينادى بالهمزة ، والرب ، : « اسم الله تعالى ، ولا يقال في غير الله إلا بالإضافة ، والمالك والسيد ، والمربي والقيم ، والمنعم ، والمدبر ، والمصلح » [1].

(١) المعجم الوسيط ١/ ٣٢١ .

والكلمة تدور على ثلاثة أصول :

الأول : إصلاح الشئ والقيام عليه ، و الثاني : لزوم الشئ والإقامة عليه،والثالث : ضم الشئ للشئ [1] .

« ومهجوراً » اسم مفعول ، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول بمعنى الجلد ، والعقل ، و« مهجوراً » مفعول ثان لا تخذوا .

« و كذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين ..» أي كما جعلنا لكل نبى عدوا من مشركي قومه ، فاصبر كما صبروا . و العدو يحتمل أن يكون مفردا وأن يكون جمعا ، والنبي : هو من أوحى الله إليه بوحى ، أمر بتبليغه ، والمراد من النبي هنا من كان من الأنبياء صاحب شريعة ودعوة ، فهذا هو مناط العداوة من المجرمين ، و«المجرمين » جمع مجرم ، و المجرم : هو الذى ارتكب جرما ، والجرم هو الذنب .

« وكفى بربك هاديا ونصيرا » في الالتفات من التكلم إلى الخطاب في قوله: وكفى بربك هاديا ـ إيناس لرسول الله ﷺ ، ويزيد هذا الإيناس اختيار صفة الربوبية مضافة إلى ضميره ﷺ ، والباء في قوله : « بربك »حرف جر زائد لتأكيد المعنى ، ورب : فاعل كفى ، ونصب : « هاديا ونصيرا » على الحال أو التمييز .

« وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ..» أظهر في موضع الإضمار فقال « وقال الذين كفروا : تسجيلا عليهم بالكفر ، وبيان لسبب قولهم هذا ، «لولا» أداة تحضيض ، و«نزل» بمعنى « أنزل» إذ لا قصد فيه إلى التدريج ، لأن هذا يتنافى مع طلبهم أن ينزل جملة واحدة ، و إنما عبر بـ « نزل» بدل أنزل ، ليدل على كثرة المنزلة في نفسه ، و«جملة » حال ، و «واحدة » مؤكدة له .

«كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا » : الكاف : فى محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف ، و«ذلك » إشارة إلى ما يفهم من كلامهم ، أى مثل

---

(١) أنظر : معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ٢/ ٣٨١ - ٣٨٣ .

ذلك الذى أنكروه من إنزال القرآن مفرقا ونزلناه لحكم عالية منها تثبيت فؤادك حين تتلقى القرآن وفق الأحوال والحوادث والأيام والليالي فيكون هذا أدعى إلى حفظه ووعيه وفيه مع ذلك مسايرة للأحوال الطارئة ، والترقي في تربيته الأمة الناشئة وهذا مما يقوى غزيمتك ويشد من أزرك أما قوله : « ورتلناه ترتيلا » فهو معطوف على فعل مقدر : أى كذلك نزلناه مفرقا .. ورتلناه ترتيلا ، والترتيل : «أن يكون آية بعد آية « قاله : النخعى و الحسن وقتادة ، وقيل : إن المعنى : بيناه تبيينا ، وحكى هذا عن ابن عباس ، وقال مجاهد بعضه إثر بعض ، وقال السدى فصلناه تفصيلا ، قال ابن الأعرابي : « ما أعلم الترتيل إلا التحقيق والتبيين » (١).

«ولايأتونك بمثل إلاجئناك بالحق وأحسن تفسير »

عبر في جانبهم بالإيتان فقال : « ولايأتونك بمثل » وفي جانبه سبحانه بالمجيء فقال : إلا جئناك بالحق ، « والمشهور أن الإتيان والمجئ بمعنى ، لكن عبر أولا بالأيتان ، وثانيا بالمجئ للتفنن وكراهة أن يتحد ما ينسب إليه عزوجل وما ينسب إليهم لفظا مع كون ما أتوا به في غاية القبح والبطلان ، و ما جاء به في غاية الحقيقة والحسن ، وفرق الراغب بينهما فقال المجئ كالأتيان ، لكن المجئ أعم ، لأن الأتيان مجئ بسهولة ومنه قيل للسيل المار على وجهه أتى . والإتيان قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول ، والمجئ يقال اعتبارا بالحصول » (٢).

و«المثل » [بفتح الميم والثاء] في وضعه اللغوى : جملة من القول مقتطعة من كلام أو مرسلة بذاتها تنقل ممن وردت فيه إلى مشابهة بدون تغيير مثل : «الصيف ضيعت اللبن » و« الرائد لا يكذب أهله » (٣).

والمراد هنا الكلام العجيب الخارج عن حد المعقول ، والذى لغرابته ومخالفته للواقع كأنه مثل تسير به الركبان ، وقوله :« إلا جئناك بالحق » استثناء مفرغ من

(١) فتح القدير للشوكاني ٤/ ٧٣ .
(٢) روح المعانى للألوسي ١٩ / ١٦، ١٧ .
(٣) المعجم الوسيط ٢/ ٨٦٠ .

أعم الأحوال ، فالجملة في محل نصب على الحالية ، أى لا يأتونك بمثل في حال من الأحوال إلا حال مجئنا لك بما يدحض باطلهم ويزيل أوهامهم .. واسم التفضيل في قوله: « وأحسن تفسيرا » ليس على بابه إنما المراد منه وصفه بكل الحسن ، أوعلى بابه ويكون هذا من باب التهكم بهم ، والتفسير : هو البيان والإيضاح وفي تنكيره دلالة على أنه بلغ الغاية في توضيحه وإزالته للشبهات ، وتجليته للحقائق .

«الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا » :

اسم الموصول خبر مبتدأ محذوف أى : هم الذين ، أو مبتدأ وخبره : أولئك شر مكانا ، أو منصوب بتقدير إذ ، أو أعنى ، وهذه الآية كلام مستأنف تسلية لرسول الله ، وتهديدا لهم ، و قعت إجابة عن سؤال مقدر مفهوم من السياق تقديره : هؤلاء المتعنتون الذين طلبوا ما طلبوا بماذا أجابهم ؟ وماذ يكون قولهم ؟؟ فقيل : قل لهم : الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ..الخ » يعنى مقصودكم من هذا التعنت تحقير مكاني وتضليل سبيلي ، و ما أقول لكم أنتم كذلك بل أقول : الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا ، فانظروا بعين الإنصاف ،وتفكروا من الذى أولى بهذا الوصف منا ومنكم لتعلموا أن مكانكم شر مستقرا وأسوا مقيلا ، إذ لا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار يأتون أرض المحشر وقد نكسوا على رؤسهم ، علت أرجلهم وانخفضت رؤسهم ، لتكون ذلتهم من كل ناحية : حسية ومعنوية . و«أولئك» اسم إشارة للبعيد ، والبعد بعد مكانة لامكان أى أولئك الذين بعدوا في الضلالة ، وساروا في طريق الغواية إلى منتهاه شر مكانا ، والمكان هنا يراد به المنزلة والشرف أو الدار والمسكن وهذا المعنى الثاني تلمحه فيما تقرأ في السورة وغيرها من مصير الكافرين في النار وما تراه من مقابلات ومقارنات بين حالهم وحال المؤمنين كما ترى في قوله تعالى : ﴿ قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون ..﴾ وقوله : ﴿ أصحاب الجنة خير مستقرا وأحسن مقيلا ﴾ وهذا يعنى أن المجرمين يومئذ وأهل النلر في النار كما ورد بذلك الخبر عن ابن مسعود رضى

الله عنه [(١)]. وقوله : « شر.. وأضل » كل منهما تفضيل والمفاضلة من باب مجاورة الخصم في الدليل وهذا كقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[(٢)]. أو أن اسم التفضيل ليس على حقيقته إنما المراد إثبات كل الشر لمكانهم وكل الضلال لسبيلهم وطريقتهم ، و إسناد الضلال إلى السبيل من باب المبالغة ، فإنهم حين ضلوا ضلال بعيدا كان طريقهم هو الذى ضل ، فما أجملها من مبالغة أصابت كبد الحقيقة .

المعنى الإجمالى :

بعد أن ذكر الله ما كان من تعنت المشركين ، وما سيلقونه من عذاب وندم جزاء هذا التعنت وهذا الكفر الظالم المظلم أخذ يذكر ما كان من شكوى رسول الله ﷺ لربه هجران قومه للقرآن العظيم ، ولكن الله يسليه ويسرى عنه بأنه ليس وحده الذى وقف في طريقه المجرمون إنما هذا طريق الأنبياء جميعا ولكنهم صبروا حتى أتاهم نصر ربهم ، وكفى بربك هاديا ونصيرا ، وهذا لون من ظلمهم وكفرهم تراه في طلبهم أن ينزل القرآن على ر سول الله ﷺ جملة و احدة لا مفرقا ، فبين الله لهم أن هذا التفريق على امتداد عمر الرسالة إنما كان لحكم عالية منها تثبيت فؤاده وتقوية قلبه ﷺ وتبيين هذا الوحي تبيينا لاخفاء فيه، وهذا من رعاية الله لنبيه إذ لقنه حجته وكلما القوا بشبهة من شبههم جاءت آيات القرآن فدحضتها وبينت وجه الحق فبدا مشرقا يهدي إلى الحق ويوم القيامة يأتون منكسي الرءوس ، يمشون على وجوههم إذلالاً لهم واحتقارا لشأنهم، ولم لا ؟ وهم قد بعدوا عن الحق بعدا سحيقا فمكانهم فى الآخرة شر مكان، ومكانتهم فى الدنيا أسوأ مكانة وطريقهم طريق الضلال فبئس المكان والمكانة والطريق الذي ساروا فيه.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٥ .

(٢) سورة سبأ ٣٤/ ٢٤ .

نظرات في الآيات :

« وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا» :

هذا القول من رسول الله -ﷺ- متى ؟؟ هل يشكو إلى ربه قومه هنا فى الدنيا بعد أن رأى من عنادهم ما رأى، طلبا لنصرة ربه وتأييده وتسديده؟ أو هذا تسجيل عليهم وشهادة يوم القيامة من رسول الله-ﷺ- بأنهم هجروا القرآن ولم يلتفتوا إلى مافيه، فكان لهم هذا المصير المشئوم ، حتى رأينا من حالهم هذا القدم وتلك الحسرات يتجرعها الواحد منهم وهو يعض على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا؟؟ يشهد للمعنى الأول، أن الآيات جاءت تسلية لرسول الله-ﷺ- يبين الله له أن مايشكو منه من إعراض قومه هو ديدن أهل الكفر مع أصحاب الرسالات على مر التاريخ:«وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين..» ويشهد للمعنى الثانى : أن الآية معطوفة على ماسبق من الآيات من قوله :«وقال الذين لايرجون لقاءنا.. وما هنالك من مشاهد يوم القيامة، وأنه بعد هذا المشهد الموحى للظالم الذى يعض على يديه ندما وأسفا، فأتى شهادة رسول الله -ﷺ- تبكيتا لهم لتزداد حسراتهم ويعظم ألمهم.. ولعلك تذكر ما قلناه عند قوله تعالى ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين..﴾ .. ولماذا عبر بوصف الرسالة (١) لتعرف سر التعبير هنا بوصف الرسالة فى قوله : «وقال الرسول..» وأن هذا هو الذي آثار حفائظ المشركين وأقض مضاجعهم، إذ لو كانت الرسالة قاصرة على صاحبها فاكتفى بإصلاح نفسه، وتفرغ لعبادة ربه، ولم يحاول أن يغير حياة القوم وأن يهدم معاقل الظلم، وأن يقيم دولة الإيمان والحق، والعدل المطلق، لو فعل ذلك لما أغضب أحدا ولما حاربه وعانده وعاداه أحد، ولكنها الرسالة التى أصر صاحبها على تبليغها كاملة لم يداهن، ولم يقبل أنصاف الحلول، فتحمل من البلاء هو وأصحابه مايهد الجبال الرواسى حتى أذن الله له بنصر من عنده فارتفعت راية الإسلام خفاقة فى كل مكان.

---

(١) انظر ص ١١٣-١١٥.

وتدبر معى هذه الشكوى النبوية التى جأر بها رسول الله إلى ربه، ينادى ربه بوصف الربوبية: استعطافا واستجارة والتجاء لمن رباه على موائد كرمه ومن له الهيمنة على خلقه، ومن كان كذلك فكيف ينسى حبيبه ومصطفاه؟.. ويأتى بحرف النداء «يا» وهو حرف ينادى به البعيد، مع أن هذا الرب قريب مجيب، يسمع أنة المظلوم فى جوف الظلام، «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» وما ذلك إلا من باب هضم النفس فهذا موقف العبودية لله، وأين مقام العبد من مقام الرب، إنه وإن كان ربنا قريبا أقرب إلينا من حبل الوريد، لكنه الإله المتعال بصفاته، رفيع الدرجات ذو العرش، ولهذا أتى النداء «بيا» ومما يلفت النظر: أن النداء في القرآن لا يأتي بغير « ياء »وأن نداء الرب في القرآن لا يأتي معه الياء وذلك في خمسة وستين موضعا ، ولم تذكر إلا فى موضعين :هنا وفى قوله ﴿**وقيله يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون**﴾[1] ، وكلاهما كما نرى نداء من رسول الله-ﷺ- يشكو إلى ربه ماكان من إعراض قومه، وفى ذكر «يا» في الموضعين وما فيها من مد فى الألف دليل على أن هذا النداء قد خرج من الأعماق، وعبر عن خلجات القلب، ومكنون الفؤاد، وحمل مع الأنفاس زفرات الألم من حال قوم لم يصلح فيهم علاج، ولم نجد فيهم دعوة. ولم تنفعهم موعظة حتى اتخذوا هذا القرآن مهجورا، هذا بالإضافة إلى ما في البعد الذي دلت عليه «يا» من إظهار للعبودية، وتواضع هو من سمات رسول الله-ﷺ- ، حيث أعلن ما للرب الذي يناديه من علو ورفعة ومكانة، وفى حذف المضاف إليه فى قوله : يارب ، مبادرة ومسارعة إلى المطلوب، والمطلوب قوله :« إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا» وقد أكد هذا «بأن» وأضاف القوم إليه: مبالغة في الشكوى، فإن قومك من تستعين بهم فى الملمات ، فكيف إذا كانوا غصة في الحلق ، وعونا عليك مع الزمان؟ ضرهم قريب ونفعهم بعيد، هنا تعظم البلية، ويشتد الكرب:

---

(١) الزخرف ٤٣/ ٨٨، ، وانظر فى ذلك : دراسات لأسلوب القرآن الكريم للدكتور/ محمد عبد الخالق عضيمة ٣/ ٦٢٤.

وظلم ذوى القربي أشد غضاضة

على النفس من وقع الحمام المهند

وهذا ماكان من حال رسول الله -ﷺ- مع قومه الذين وقفوا له ولدعوته بكل طريق، يصدون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجا. إنهم عاندوا أنفسهم حين انحرفوا عن هداية القرآن الكريم، وهذا مايعبر عنه قوله : «اتخذوا» «فأشار بصيغة الإفتعال إلى أنهم عالجوا أنفسهم فى تركه علاجا كثيرا لما يرون من حسن نظمه، ويذوقون من لذيذ معانيه، ورائق أساليبه، ولطيف عجائبه وبديع غرائبه»[1]. إنه محبب إلى النفس، قريب من القلب والعقل والوجدان، يتجاوب مع نداء الفطرة. ولعل هذا هو بعض مايفهم من اسم الإشارة فى قوله :« هذا القرآن» «فهذا» اسم إشارة للقريب، وما ذلك إلا لما يحمله القرآن العظيم فى ألفاظه وتراكيبه ومعانيه وأهدافه من قوة تستولى على الأحاسيس والمشاعر، جعلت صنديدا من صناديد الكفر يقول : إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى عليه، وهذه القوة التى تخترق حجب القلوب هى التى جعلت عمر ابن الخطاب- الذى كان قد خرج من بيته لقتل رسول الله-ﷺ- يذعن للحق، ويستسلم فى محراب القرآن، ويعلن إسلامه فى بيت أخته فاطمة، ويأتى مسرعا لدار الأرقم بن أبى الأرقم ليشهد بين يدى رسول الله-ﷺ- شهادة الحق، وما أمر إسلام سعد بن معاذ :سيد الأوس، وابن أخيه: أُسيد بن حضير، على يد مصعب بن عمير إلا دليل على ما امتاز به هذا القرآن من هذه القوة العظيمة التى جعلته قريبا من الشعور والوجدان، ودعت وما زالت تدعو الكثير من الناس إلى تنبؤ ظلال هذا الكتاب المبارك، فمن لم يستجب لندائه، ومن لم يستنر بنوره فإنما يتكلف أمرا عظيما، ويتحمل مشقة فى مدافعة هذا الشعاع الذى يخترق حجب النفس وحواجزها، ومن هنا يحيا هذا المسكين في تناقض وتمزق وضياع ويحاول أن يبتعد عن مصدر هذا النور الخارق والتيار

(١) نظم الدرر : للبقاعى جـ ٤٣٨.

الجارف بهجر القرآن العظيم، والهجر الذى اختارته الآية تعبيرا عن حال القوم، يدعونا إلى البحث عن أصل الكلمة حتى ندرك مغزاها فى هذا التعبير القرآنى «والهاء والجيم والراء أصلان يدل أحدهما على قطيعة وقطع، والآخر على شد شىء وربطه »[1] . والهجر إما بفتح الهاء أو ضمها، الأول ضد الوصل والثانى: الهذيان والإفحاش فى القول، وهذا كله كان من المشركين، فهم قد هجروا القرآن وقطعوا كل طريق يوصلهم إليه، وهم قد تعاقدوا فيما بينهم ألا يستمعوا إليه وإذا ماتلى عليهم رفعوا أصواتهم المنكرة لتحدث ضوضاء وجلبة فلا يفهم أحد منه شيئا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾[2]

وهم قد قالوا فى القرآن من فحش القول مالا يخطر على بال قالوا بأنه أساطير الأولين، وأنه سحر وأنه كهانة، وأنه كذب واختلاق إلى آخر ماقالوا، فلم يكتفوا إذن بهجره وتركه ومقاطعته إنما انطلقوا يهذون بما لايعرفون، وينطقون بما لا يليق ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾[3] .

وكم في هذه الشكوى من رسول الله -ﷺ- من تخويف وترهيب فإن الأنبياء إذا شكوا إلى الله قومهم عجل لهم العذاب، قال تعالى :﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾[4] .

وهكذا جرت سنة الله فى المكذبين ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ

(١) معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ٦/ ٣٤.
(٢) سورة فصلت : الآية ٤١/ ٢٦.
(٣) سورة التوبة : ٩/ ٣٢.
(٤) سورة القمر : الآية ٥٤/ ٩-١٥.

كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)﴾[١] .

وقد أراد اللهأن يخفف عن رسوله وأن يطمئنه إلى صدق وعده فقال له:

﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين، وكفى بربك هاديا ونصيرا﴾.

وعداوة المجرمين لأصحاب دعوة الحق عبر التاريخ الإنسانى تهون الخطب على رسول الله ﷺ ، وبخاصة إذا ما علم أن نصر الله كان حليف الحق دائما، إذ لابد من نصر الله للمؤمنين وإن طال الزمان وكل هذا لحكم عالية وأسرار ربانيةإلهية سامية، إذ جعل الحياة قائمة على هذا الصراع بين الخير والشر، بين الحق والباطل ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾[٢] وكما قال : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) ﴾[٣] .

وكما قال : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾[٤] ، وهذه الحكم العالية تستطيع أن تدركها من قوله :﴿جعلنا﴾ فهو جل وعلا بقدرته وحكمته وعظمته الذى جعل هذا نظاما للحياة، قال تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[٥].

والأنبياء صبروا على إيذاء قومهم فنصرهم الله فاصبر يانبى الله كما صبروا، قال تعالى :﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾[٦].

والنبى هو من كان صاحب رسالة، إذ كل رسول نبى، وليس كل نبي رسولا، لأن النبوة التى لم يؤمر صاحبها بتبليغ الدعوة لاتثير أحدا، ومع ذلك فالتعبير بها هنا دون الرسالة كأنها تقول بأن الإجرام يقلقه أن يرى الصلاح

---

(١) سورة يوسف : ١٢/ ١١٠.
(٢) سورة الأنفال : ٨/ ٣٧.
(٣) سورة آل عمران ٣/ ١٤١.
(٤) سورة البقرة ٢/ ٢٥١.
(٥) سورة الأنعام ٦/ ١٢ .
(٦) سورة الأحقاف ٤٦/ ٣٥.

والإخلاص والخير قد تمثل في إنسان ما، فوجود الصالح المخلص الخير في أي مكان كالرائحة النفاذة تنتقل إلى الآخرين فتنشرح لها صدورهم، وهذا مالا يريده الظالمون، ولهذا يحملون العداء لهؤلاء وأمثالهم، فما بالك إذا انتقل هذا النبى إلي خنادق الجهاد، وحمل راية الحق وأراد أن يغير الواقع المر الأليم وأن يزيل الغشاوة عن الأعين، وأن يأخذ بيد الناس إلى رحاب التوحيد حيث الأمان والعزة والقوة؟ هنا لابد أن يصطدم بالعقبات وأن يلاقي الصعاب وأن يثير أهل الباطل، قال تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) ﴾[١].

وإذا قلنا بأن «عدوا» تصلح أن تكون مفردا وجمعا[٢] ، فإن صورتها-كما ترى- صورة المفرد، ليتم التقابل بين «نبى» و«عدوا» فكل نبى له عدو، من شياطين الجن والإنس، وفى هذا تجسيد للعداوة، وإظهار لها حيث تجمعت فى شخص واحد، وقد كان أبو جبل عدو لدودا لرسول اللهﷺ ، تجسمت فيه العداوة بكل معانيها فقاد حملة من الحقد والمطاردة للرسول الكريم وأتباعه لم تفتر حتى سقط طريدا من رحمة الله في غزوة بدر، «والعادى: الظالم، يقال لا أشمت الله بك عاديك، أى عدوك الظالم لك، قال أبو بكر: قول العرب : فلان عدو فلان، معناه فلان يعدو على فلان بالمكروه ويظلمه»[٣] وهذا العدوان وهذا الظلم منبعه الإجرام الذى اتصف به هؤلاء، ولذلك قال : ﴿.. عدوا من المجرمين﴾.

«فمن» بيانية، والمجرم هو الذى اقترف الإثم وارتكب الذنب، وأى إثم وأى ذنب ؟ إنه ليس مجرد خطأ يحدث بل هو جريمة نكراء لأنه اعتداء على مصدر الهداية، وظلم لحملة الرسالة، واطفاء لنور الحق، وطمس لمعالم الحقيقة، وحرب

---

(١) سورة الأنعام ٦/ ١٢٣.

(٢) يقول ابن منظور: يقال فلان عدوك، وهم عدوك، وهما عدوك، وفلانة عدوة فلان، وعدو فلان.. قال الأزهرى : هذا إذا جعلت ذلك كله فى مذهب الاسم والمصدر، فإذا جعلته نعتا محضا قلت: هو عدوك، وهى عدوتك وهم أعداؤك ، وهن عدواتك [انظر: لسان العرب لابن منظور؛ ص٢٨٣٦].

(٣) المرجع السابق : المجلد والصفحة.

في سبيل الطاغوت، ونصرة للشيطان وحزبه، فما أبشعها من جريمة بل ما أفظعها من جرائم..

وبعد أن قرر الحق تبارك وتعالى هذه الحقيقة التفت مخاطبا رسوله الحبيب صلوات الله وسلامه عليه فقال: ﴿وكفى بربك هاديا ونصيرا﴾ فأنت يانبى الله بربك ومع ربك لاتحتاج إلى شيء آخر، إنه رباك على موائد كرمه، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾[1] ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾[2]. ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[3]

هذا الرب الذى أسدى إليك ذلك كله يكفيك كيد الكائدين، ويحفظك من مكر الماكرين، ويتولاك بالهداية إلى طرق النجاة في الدنيا والآخرة، ويمدك بنصر من عنده، تقر به عينك وينشرح به صدرك، وكم في تنكير: ﴿هاديا ونصيرا﴾ من إحاطة وشمول، فالهداية هى الدلالة الموصلة إلى البغية، وهى نعمة التوفيق للإيمان، وكلاهما فى أوسع معانيهما مما منحه المولى الكريم لنبيه ﷺ، ونصره على أعدائه قد تحقق فى أجلى معانيه، نصره بالحجة الناصعة، والبينة القاطعة والمعجزة الواضحة الظاهرة، ونصره فى ساحات القتال بل واختصه بإلقاء الرعب فى قلوب أعدائه مسيرة شهر حتى أتم الله أمره وصدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

وهذا لون آخر من أباطيلهم يدل على هجرانهم للقرآن، وعداوتهم لرسول الله -ﷺ- وأن القوم لايبحثون عن الحق، إنما ينبعثون من المكابرة والعناد واللجاج، ترى ذلك وأنت تقرأ قول الله تعالى:

﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة..﴾.

---

(١) سورة الضحى ٩٣/٦-٨. (٢) سورة الشرح ٩٤/ ١-٤.

(٣) سورة الطور ٤٨/٢٥.

والذين كفـروا : كفار مكة، وقد أظهـر فى موضع الإضمار ذمـا لهم، وبيانا للسبب الذى دعاهم إلـى هذا القول، إذ أن كلمة الكفر تدور على معـنى التغطية والستـر، والكافر أخـفى الحق وأظهر البـاطل. ومما يدخل فى الحق الذى أخـفاه: توحيد الله ، والإيمان برسوله، وبكتابه، فالكافر يعلم أن الله واحد أحد، وأن رسـول الله ـ صادق فيـما بلغ عن ربه، وأن الكتاب الذى أنزل معـه هو الحق الذى لامراء فيه، ومع ذلك فهو يعاند ويكابر ويجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد.

وقد أتوا بأداة التحـضيض «لولا» حثا لرسول الله ـ علي تحقـيق ماطلبوه من نزول القرآن جـملة واحدة، و«أنزل» تدل علـي النزول دفعة واحـدة، و«نزل» تدل على نزوله على دفـعـات- المرة تلو المرة- وهنا قـالوا : «لولا نزل عليـه القـرآن جـملة واحدة» فـهل أنزل، ونزل- بتشـديد الزاى- بمعنى واحـد كما قـيل، ويكون المراد هنا : أنزل بدليل قولهم : جملة واحدة، أو كل منهـا على معناه، وإذن فلماذا عبر بنزل هنا مع أن ما طلبوه غـير ماتحمله الكلمة من التدرج ؟ لعل هـذا- كما يقول الإمام البقاعى- استجلاب لـلسامع لئلا يعرض عنهم ثم أشاروا بعد ذلك إلى أن هذا غير مراد فأتوا بكلمة: القرآن، وهى تعنى الجمع لا التفريق، ثم صرحوا بالمراد بقولهم: «جملـة» وأكدوا بقولهـم: «واحدة» ليتـحقق أنه من عند الله ويزول عنهم ماتوهموه من أن محمدًا-ﷺ- هو الذى يرتبه قليلا قليلا، فتعبير هم بما يدل على التفريق أبلـغ فى مرادهم، فإنهم أرغبوا السـامع فى الإقبال على كلامـهم بتوطينه على مـايقـارب مـراده، ثم أزالوا بالتـدريج أتم إزالة فكان فى ذلك من المفـاجـأة بالروعة والاقتناط مما أمل من المقاربة مالم يكن فى أنزل[1] .

والفـعل : «نزل» مـبنى للمجـهـول. وفى هذا مـايدلك على عـتو المشـركين وكفرهم، فهم لايريدون أن ينسبوا هذا التنزيل إلى الله سبحانه، والقرآن يذكر هذا القول منهم فتراه دائما مبنيا للمجهول: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ ﴾[2] ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ ﴾[3].

---

(١) انظر : نظم الدرر: للبقاعى ص ٤٤١. (٢) سورة الحجر ٦/١٥.

(٣) سورة الزخرف :٤٣/ ٣١.

هذه الشبهة التى أثاروها فى وجه القرآن ماسببها؟ هل هو الكفر الذى دعاهم إلى العناد فإن نزول القرآن جملة أو تفصيلا لايطعن فى إعجازه، فهو معجز على آية حال مع ما فى تفريقه من حكم جليلة وأسرار عظيمة وفوائد جمة شأنه فى طريقة إنزاله شأن الكتب السابقة؟ أو هذا كان منهم لأنهم رأوا الكتب المنزلة قبل القرآن تنزل جملة واحدة فلماذا جاء القرآن على هذا النحو في إنزاله؟ فبين الله لهم أن القرآن يختلف عن هذه الكتب، لأنه مناط الإعجاز، وقد نزل على نبى أمي وفى أمة أمية فكان من حكمة الله أن أنزله مفرقا، ﴿كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾.

بالرأى الأول قال الإمام البقاعي، والإمام الشوكانى، يقول الإمام الشوكانى فى الآية: «واختلف فى قائل هذه المقالة، فقيل كفار قريش. وقيل اليهود، قالوا: هلا أتيتنا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة والإنجيل والزابور؟ وهذا زعم باطل ودعوى داحضة فإن هذه الكتب نزلت مفرقة كما نزل القرآن، ولكنهم معاندون أو جاهلون لايدرون بكيفية نزول كتب الله سبحانه على أنبيائه..»[1] وقد ناقش الإمام السيوطى فى الإتقان هذا القول وأثبت بالأدلة الصريحة أن الكتب المنزلة قبل القرآن نزلت جملة واحدة ولم تنزل مفرقة وقال بأن هذا مشهور فى كلام العلماء وعلى ألسنتهم حتى كاد يكون إجماعا ومما ساق من الأدلة: قوله تعالى في إنزاله التوراة على موسى يوم الصعقة: ﴿فخذ ما أتيك﴾، ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة﴾، ﴿وألقى الألواح﴾، ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدي ورحمة﴾، ﴿وإذ فتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة» فهذه الآيات كلها دالة على أتيانه للتوراة جملة[2].

---

(١) فتح القدير: للشوكانى ٤/ ٧٣.

(٢) انظر: الإتقان فى علون القرآن ط الثالثة بمطبعة الحلبى ١٣٧٠هـ-١٩٥١م جـ١ ص٤٢- النوع السادس عشر: في كيفية إنزاله.

ومما يدل على أن الكتب المنزلة لم تنزل مفرقة أن الله عز وجل لم يقل لهم بأن هذا شأنه فى كل ما أنزل من الكتب، كما رد عليهم فى قولهم : مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟و بقوله : وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وفى قولهم :أبعث الله بشرا رسولا؟ بقوله :﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم﴾ .. إلى غير ذلك من الآيات، التى تدل على أن رسول الله محمدا ﷺ ليس بدعا من الرسل، بل ترى في الآية التسليم لهم بما قالوا من أنه نزل مفرقا ولم ينزل جملة واحدة مع بيان الحكمة فى إنزاله هكذا بقوله :﴿كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾ . ومما يؤيد هذا جعل قوله ﴿كذلك﴾ من تمام ماحكاه الله عن الكفار، أى : «لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك» أى كما أنزلت الكتب السابقة ، فرد الله عليهم بقوله : لنثبت به فؤادك.. أى نزلناه مفرقا لنثبت به فؤادك.

وقد أجاد الشيخ عبد العظيم الزرقانى في بيان الحكم والأسرار من تنجيم القرآن فى كتابه :« مناهل العرفان في علوم القرآن» وقد أجملها فى أربع حكم:

أولها : تثبيت فؤاد النبى ﷺ وتقوية قلبه بما يجده من سرور يملأ قلبه كلما نزل الوحى عليه، ومما فى تنجيم القرآن من تيسير حفظه وفهمه ومعرفة أحكامه وحكمه، كما أن فى كل نوبة من نوبات النزول معجزة جديدة تتحدى المعاندين مما يشد أزره ويؤيده وينصره، وفى كل مرة تكرار للذة فوزه ﷺ وذلك مما يقوى قلبه وفؤاده، وفى هذا التنجيم أيضا : مايدل على تعبد الله لرسوله كلما اشتد الخصام بينه وبين أعدائه فتنزل الآيات تلو الآيات تسليه وتسرى عنه بما يذكره من قصص الأنبياء والمرسلين أو بما يذكره له من وعد صادق بالنصر والتأييد والحفظ ومما سينزله بأعداء الله ورسوله من إهلاك وإبعاد أو بأمرهﷺ بالصبر والثبات على الأمر وألا يلتفت لعدم إيمان الكافرين فإن الهداية بيد الله سبحانه إلى غير ذلك مما جاء فى كتاب الله.

أما الحكمة الثانية : فهى التدرج في تربية الأمة الناشئة علما وعملا.

والحكمة الثالثة :مسايرة الحوادث والطوارىء في تجددها وتفرقها كما ترى

من إجابة السائلين على أسئلتهم، ومن مجاراة الأقضية والوقائع فى حينها.

ورابع هذا الحكم: الإرشاد إلى أن هذا القرآن في نزوله هكذا مفرقا، إنما هو من عند الله وحده، فإنه مع نزوله فى ثلاث وعشرين سنة محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوى الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض فى سورة وآياته وجمله، يجرى دم الإعجاز فيه من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة »[1].

أما قوله :﴿ورتلناه ترتيلا﴾ فإنه تأكيد لنزوله مفرقا، وبيان إلى أنه حين نزل هكذا نزل مفصلا مبينا واضحا يتلو بعضه بعضا فى انسجام وترابط، لانرى - على امتداد فترة نزوله- خللا ولا نقصا ولا اختلافا ولا تناقضا فهو كما قال تعالى :﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾[2].

وكما قال : ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.[3]

وكما قال : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾[4].

وهذا مما يدل على أنه وحى يوحى، وليس من عند بشر ولا ملك، إنما هو من عند الله الذى ميز هذا الكتاب على غيره من الكتب. بإنزاله من اللوح المحفوظ دفعة واحدة ليلة القدر إلى السماء الدنيا وبتنزيله نجما بعد نجم طيلة فترة الرسالة المحمدية، تشريفا لهذا القرآن فإنه خاتم الكتب، والرسالة التى جاء بها خاتمة الرسالات.

بقى أن نلمح التعظيم المستفاد من النون فى قوله : لنثبت ، ومن «نا» فى قوله

---

(١) انظر : مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى ط الثانية، مطبعة عيسى الحلبى - بمصر جـ١ ص٤٦- وما بعدها - باختصار وتصرف.

(٢) سورة هود ١١/ ١.

(٣) سورة فصلت ٤١/ ٤٢.

(٤) سورة النساء ٤/ ٨٢.

ورتلناه.. لتعرف أن هذا التثبيت والتأييد والتطمين لقلب رسول الله ﷺ وأن مجيء القرآن مرتلا مفصلا، إنما هو منحة إلهية صادرة من الإله العظيم المتصف بكل صفات الجلال والكمال، فلا عجب أن يأتى وحيه لرسوله على هذا النمط المعجز البليغ الذى أعجز الفصحاء والبلغاء، كما إنك ترى التنكير فى قوله: ﴿ترتيلا﴾ وهو يدلنا على دقة هذا الترتيل وعظمته، ومافيه من جلال وجمال مما لاتحيط به العبارة.

فانظر إلى حكمة الله فى إنزاله لقرآنه ؟ وقل لى بربك ماذا يفعل رسول الله ﷺ لو نزل عليه القرآن جملة واحدة، وفيه الناسخ والمنسوخ، ولكل منهما وجوه من الحكمة في تربية الأمة الناشئة، ثم ماذا يفعل، أمام الحوادث الطارئة والأسئلة التى تترى، وكل سؤال يحتاج إلى جواب؟ إن القوم لو عقلوا وتدبروا لعلموا أن نزول القرآن مفرقا هو الحكمة بكل مافيها، و الخير الذى أكرم الله به بنى الإنسان، وثبت به فؤاد النبي عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال :﴿ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا﴾ فكل سؤال أتوا به يريدون به إبطال حجتك، لابد أن نأتى له بما يدحضه ويمحصه ، ويبينه بيانا لايبقى حجة لمرتاب، ولا شبهة لمعاند، وما كان هذا بميسور لو كان القرآن قد نزل جملة واحدة، فهذا مما يدل على نبوة نبى الله ﷺ :« لأنهم لايسألون عن شيء إلا أجيبوا عنه وهذا لايكون إلا من نبى »[1]. وقد سمى سؤالهم «مثلا» لأنه سؤال لايقصد به الوصول إلى الحق والحقيقة، إنما هو سؤال تعنت، يريدن به إثارة الغبار فى وجه هذا الكتاب المشرق، فهو لغرابته كأنه مثل تسير به الركبان، وفى مواجهة هذا الذى أتوا به وسألا عنه يجيء الجواب يحمل الحق الذى يقذفه الله على الباطل فإذا هو زاهق، وتأتى الإجابة واضحة المعنى، جلية الهدف، لايدانيها في حسنها وروعتها ورونقها إجابة ولا سؤال، لأنها ممن يعلم السر وأخفى، وممن خلق الخلق وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : للقرطبى ط بيروت ١٩٤٥هـ-١٩٨٥م جـ١٣ص ٢٩.

وإذا كان الحق قد اتضح، ومع ذلك فالمشركون مصرون على سلوك طريق الالتواء والاعوجاج ، لايريدون أن يعودا إلى رحاب الله الواحد الأحد، فماذا يقول لهم رسول الهدى ﷺ ؟ إنهم ليسوا طلاب معرفة توصلهم إلى الإيمان والحق، إذن فلم يبق إلا التهديد والوعيد، ولذلك قال :﴿ **الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا**﴾.

ولو تأملت كلمات الآية لوجدت كل كلمة فيها تحمل الزجر والتخويف: فالحشر: جمع مع سوق، وهذا المعنى فى صيغة المضارع: يحشرون، لرسم صورة متحركة شاخصة لقوم يجمعون من قبورهم بزجرة واحدة، ويساقون إلى ساحة القضاء وموقف الحشر فى ذلة وصغار، وقوله :﴿على وجوههم﴾ تجسد لك هذا المنظر المزرى المهين لقوم يأتون أرض الحشر يمشون على وجوههم، كما رأينا في حديث الترمذى عن أبي هريرة، وفى حديث الشيخين عن قتادة عن أنس[1] ، وهذا يحتمل أمرين: أن يكون بمس وجوههم وسائر مافي جهتها من صدورهم وبطونهم ونحوها الأرض وأن يكون بنكسهم على رءوسهم وجعل وجوههم إلى مايلى الأرض وارتفاع أقدامهم وسائر أبدانهم، وقيل أن الملائكة عليهم السلام تسحبهم وتجرهم على وجوههم إلى جهنم »[2].

وفي هذا قول الله تعالى :﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾[3].

وقوله :﴿إلى جهنم﴾ تحديد للغاية والمصير، وبئس المصير، واختيار كلمة ﴿جهنم﴾ زيادة إرعاب وتخويف ، فإنها ليست مجرد نيران متقدة إنما هى نيران بعيد غورها، من القى فيها هوى إلى هوة سحيقة عميقة، فإن «الجهنام (بكسر الجيم والهاء وتشديد النون) القعر البعيد، وبئر جهنم وجهنام : بعيدة القعر، وبه

(١) انظر الآية ١٧ من السورة ص ١٠١ , ١٠٢.
(٢) انظر : روح المعانى : للألوسى ١٩/ ١٧.
(٣) سورة القمر ٥٤/ ٤٧. ٤٨.

سميت جهنم لبعد قعرها »[1].

وقد روى أن الصخرة العظيمة تلقى من شفير جهنم فتهوى سبعين عاما حتى تفضى إلى قرارها، فنسأل الله العافية، وما جاء فى وصف جهنم من كتاب الله وسنة رسوله تقشعر منه الأبدان، وجهنم بكل مافيها النهاية الأبدية، والمقر الدائم المحزن المخزى للمكذبين المعاندين، وقد أشار إليهم باسم الإشارة :أولئك، وقد عرفنا أنه إشارة للبعيد، وأن البعد بعد مكان أو مكانة، وقد وصف الله مكانتهم أو مكانهم بأنه شر، ووصف طريقهم وسبيلهم بالضلال، ولكنه جعل المكان والسبيل تمييزا للشر والضلال ليكون هذا أوقع فى النفس، لتعلم مدى ما اتصف به هؤلاء مما يجعلهم مستحقين لعذاب الله وغضبه ونقمته، فنعوذ بالله من النار وما قرب إليها من قول وعمل.

* * *

---

(١) لسان العرب : لابن منظور م١ص٧١٥.

وفى قصص الأنبياء عبرة وتسلية، فقد أهلك الله المكذبين ونجي عباده المؤمنين، وتلك سنته فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، فليذكر هنا رسول الله-ﷺ- شيء من ذلك تطبيقا لصدق وعد ربه وتخويفا لمن كذبه وعاداه، لهذا قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيراً (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (٤٠) ﴾.

الكلمات والاعراب:

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب ..﴾ اللام موطئة للقسم، و«قد» للتحقيق، و«الكتاب» التوراة.

﴿وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا﴾ الظرف «معه» متعلق «بجعلنا» و«أخاه» مفعول أول، و«هارون» بدل منه أو عطف بيان، و«وزيرا» مفعول ثان، والوزير: هو الذى يتحمل أعباء ومسئولية مايكلف به، فاشتقاقه من الوزر [بكسر الواو وإسكان الزاى] والوزر: هو الحمل الثقيل، أو الوزير هو الذى يعتصم برأيه، ويلجأ إلى حنكته وتجاربه، واشتقاقه من الوزر [بفتحتين] والوزر الجبل يتحصن به، وفي القرآن : ﴿كلا لا وزر﴾ أى لا ملجأ لنا من الله، أو الوزير هو من يؤازر الملك ويعينه ويقويه ، فالواو فى «وزير» بدل من الهمزة، قال أبو العباس : ليس هذا بقياس لأنه أن قيل بدل الهمزة من الواو فى هذا الضرب من الحركات فبدل الواو من الهمزة أبعد»[1] .

---

(١) انظر : لسان العرب : لابن منظور م ٦ ص ٤٨٢٤.

﴿فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا﴾

وهؤلاء القوم هم فرعون وجنده وقومه والآيات التى كذبوا بها هى :«دلائل التوحيد المودعة في الأنفس والآفاق، أو الآيات التى جاءت بها الرسل الماضية عليهم السلام، أو التسع المعلومة»[1] إذ هذا من باب الحكاية لرسول الله -ﷺ- لما كان من أمر قوم فرعون فى تكذيبهم بما جاءهم به موسى عليه السلام.

والتدمير: الإهلاك الذى لايبقى أثرا، وأصل التدمير: كسر الشيء على وجه لايمكن إصلاحه، والفاء فى قوله:«فدمرناهم» فاء الفصيحة، والأصل : فقلنا اذهبا إلى القوم فذهبا إليهم ودعوهم إلى الإيمان فكذبوهما واستمروا على ذلك فدمرناهم.

﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم..﴾ الواو : حرف عطف، و«قوم» منصوب بمضمر يدل عليه قوله :فدمرناهم، أى ودمرنا قوم نوح أو معطوف على ضمير النصب فى «دمرناهم» ويجوز- كما يقول أبو حيان- أن يكون منصوبا على الاشتغال، وكان النصب أرجح لتقدم الجمل الفعلية قبل ذلك ويكون«لما» فى هذا الإعراب ظرفا على مذهب الفارسى[2] ، والرسل : نوح ومن قبله من الرسل، أو نوح وحده فإن تكذيبه عليه السلام تكذيب لكل الرسل لاتفاقهم فى الدعوة إلى توحيد الله.

﴿وجعلناهم للناس آية..﴾ أى وجعلنا قصتهم للناس آية، أى عظة وعبرة لمن شاهدها أو سمع بها، والتفكير في قوله :﴿آية﴾ للتعظيم.

﴿.. واعتدنا للظالمين عذابا أليما﴾ أى جعلنا العذاب مهينا معدا حاضرا، قريبا من الظالمين، والمراد بالظالمين، قوم نوح، أو كل ظالم ويدخل فى ذلك قوم نوح وغيرهم، وأظهر فى موضع الإضمار: لبيان السبب الذى من أجله استحقوا

---

(١) انظر : روح المعانى ، للألوسى ١٩/ ١٨.

(٢) انظر : تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٦/ ٤٩٧ , ٤٩٨ ط الثانية ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

العـذاب الأليم وهذا العـذاب الأليم الذى هيـأه الله لهم فى الآخـرة ويحتـمل أن يكون في الدنيا وفى الآخرة.

﴿ وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا﴾

الواو حـرف عطف و«عـادا» مـعطوفـة على «قـوم نـوح» أى ودمـرنا عـادا وثمود.. أو منـصوبة بفعل مـقدر تقـديره: اذكر، وعـادا: قوم هود، وثمـود: قوم صـالح، وأصحـاب الرس: قـيل قوم شـعيب، والـرس هو البئـر، وأصل الرس: الثبات يقال : رس الشىء : ثبت، وسمعـت رسا من خبر وهو ابتداؤه، لأنه يثبت في الأسمـاع، ويقال : رس الميت (بضم الراء) قـبر [1]، لأنه إذا قبر بقـى فى قبره إلى يوم البعث، وعلي ذلك فقد قيل بأن أصـحاب الرس: هم أصحاب الأخدود الذين ذكر الله خـبرهم فى سورة البروج، وقـيل هم قوم بعث الله لهم نبيا فـقتلوه ورسوه أى أدخلوه في بئر، فأهلكهم الله ، وقيل هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياءهم فجـفت أشجـارهم وزروعهم فـماتوا جـوعا وعطشـا، وقيل أن الرس هى البـئر المعطلة التى ذكرها الله فى قـوله: «.. وبئر معطلة وقصر مـشيد»[2] إلى غير ذلك من الأقوال التى لادليل عليها إلا أن يقال بأنهم قوم كان لهم بذر فسموا أصحاب الرس، وأن الله بعث لهم نبيا فكذبوه، فأهلكهم الله عز وجل.

وقوله تعالى :﴿وقرونا بين ذلك كثيرا﴾ معطوف على ماقبله، والقرون:جمع قـرن، أى أهل قرون، والقـرن : مائة سنة، وقـيل مـائة وعشـرون، وقيل القـرن : أربعون سنة»[3] .

« والأظهـر أن القرن هـم الأمة المتعـاصرون فى الزمـن الواحد، وإذا ذهبـوا وخلفهم جـيل فهو قـرن آخر كمـا ثبت فى الصحيـحين : خير القـرون قرنى، ثم

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة: لابن فارس ٢/ ٣٧٢, ٣٧٣.

(٢) سورة الحج ٢٢/ ٤٥.

(٣) فتح القدير : للشوكانى ٤/ ٧٦.

الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.. الحديث»[1] .

أى أن هناك أجيالاً كثيرة خلال هذه القرون الطويلة جرت فيهم سنة الله: حين كذبوا رسلهم، أهلكهم الله وأبادهم .

﴿وكلا ضربنا له الأمثال، وكلا تبرنا تتبيرا﴾

«كلا» منصوب بمضمر يدل عليه مابعده أى ذكرنا أو حذرنا كلا، والتنوين عوض عن المضاف أى وكل أمة من هذه الأمم التى لم نذكر أسباب اهلاكها ممن قال الله فيهم : ﴿وقرونا بين ذلك كثيرا﴾ أو كل أمة من هذه الأمم التى ذكرناها والتى لم نذكرها ضربنا له الأمثال، أى بينا له طريقه بما سقنا له من أحوال وقصص السابقين، التى أصبحت وكأنها أمثال تضرب لكل من عصى ربه ولم يستجب لرسل الله، وقوله :﴿وكلا تبرنا تتبيرا﴾ الواو حرف عطف، و«كلا» منصوب بتبرنا، والتتبير: التفتيت والإهلاك، قال الزجاج : التتبير: التدمير، وكل شيء كسرته وفتته فقد تبرته، ومنه «التبر» لفتات الذهب والفضة، قال ابن الأعرابى : «وقد يطلق التبر على غير الذهب والفضة من المعدنيات كالنحاس والحديد والرصاص، وأكثر اختصاصه بالذهب، ومنهم من يجعله فى الذهب أصلا وفى غيره فرعا ومجازا»[2] ، والمعنى أن الله أهلك كل أمة من هذه الأمم اهلاكا عجيبا ولم يبق لها أثرا لما كذبت الرسل وكفرت بالله رب العالمين.

﴿ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء ..﴾ الواو : واو القسم، والمقسم به محذوف، تقديره: وعزتى وجلالى أو مايشبه ذلك مما يمكن تقديره فى هذا المقام واللام واقعة فى جواب القسم ، و«قد» للتحقيق، والقرية: قرى قوم لوط، وإنما عبر عنها بالإفراد تحقيرا لشأنها، وتعميما للعذاب الذى نزل بها فكأنها قرية واحدة، و«أمطرت مطر السوء» لأنه ليس كالمطر الذي نعرفه، إنما أمطرها الله بالحجارة، قال تعالى :

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٩، وانظر : لسان العرب: لابن منظور م١٣ ص٣٣٣, ٣٣٤. والحديث رواه البخارى فى الشهادات، وفي فضائل أصحاب النبى ﷺ . وفي الرقائق، وفي الأيمان والنذور، ورواه مسلم فى فضائل الصحابة، كما رواه الترمذى، والنسائى . وأبو داود.

(٢) انظر : لسان العرب : لابن منظور م١ ص٤١٦.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾[1].

﴿أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا﴾

الاستفهام لأهل مكة إنكارا عليهم وتوبيخا لهم، ولما كان الجواب: بلى، أضرب عن ذلك فقال : بل كانوا لايرجون نشورا.. أى أن السبب الذي جعلهم عميا لايرون ما في إهلاك هذه القوى من آيات بينات على قدرة الله، هو أنهم لايتوقعون أن يبعثوا من قبورهم للحساب والجزاء فكيف يعتقدون أن الذي حدث لقوم لوط كان لونا من عذاب الله الدنيوى والذي سيتبعه العذاب الأخروى؟

المعنى العام:

فى هذه الآيات يقدم القرآن صورا سريعة- فى إيجاز وتركيز- لأقوام كذبوا أنبياءهم فحق عليهم العذاب، فهو بهذا يطمئن رسول الله-ﷺ- ويسرى عنه مايجد من حزن لتكذيب قومه، فيقسم له بأنه بعظمته، وماله من عظيم الشأن، قد آتى موسى التوراة، وقواه وشد أزره بأخيه هارون، وأمرهما بالذهاب إلى فرعون وقومه.. فماذا كان من أمر فرعون وقومه؟ لقد كذبوا فأهلكهم الله وأبادهم، وهؤلاء قوم نوح لما كذبوا نوحا- وتكذيب رسول تكذيب لكل الرسل- أغرقهم الله -وهو القوى القادر- وجعلهم لمن بعدهم عبرة وعظة، وهكذا شأنه مع كل الظالمين فقد أعد لهم في الدنيا والآخرة عذابا أليما، وكما أهلك الله فرعون وقومه وأغرق قوم نوح، أهلك عادا : قوم هود، وثمود: قوم صالح، وأصحاب الرس: الذين قتلوا نبيهم ودفنوه فى هذه البئر، كما أهلك كثيرا من الأمم عبر هذه الأزمان المتطاولة، بعد أن بين لهؤلاء جميعا سبل الهداية وأوضح لهم طرق الرشاد، وهذه آية ظاهرة يراها أهل مكة كلما مروا عليها فى طريقهم إلى الشام، إنها قرى قوم لوط وأعظمها قرية«سدوم» تلك القرى التى أمطرها الله بحجارة من سجيل ثم أبادها وأهلكها، ولكن المشركين من أهل مكة عمى البصائر لايعترفون

بيوم البعث والنشور، ولهذا فهم لايعتبرون ولايتعظون بما نزل بهذه القرية وأمثالها من تدمير وعذاب.

نظرات في الآيات :

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب .. ﴾

هذه الآية ومابعدها من الآيات لون آخر من تسلية رسول الله-ﷺ - ليعلم أن وعد الله حق، وأن نصره لأوليائه، وخذلانه لأعدائه سنة من سننه التى أجراها فيما مضى من عمر الزمان، وسيجريها- إن شاء- فيمن كذبوا نبى آخر الزمان: محمد- ﷺ- وقد ساق ماساق من القصص فى عرض سريع موجز، كأنه إشارة البرق، أو الإنذارات العسكرية، فالقصة التى يعرضها القرآن في آيات كثيرة يوجزها هنا في آيتين أو آية واحدة أو بعض آية، ليصل إلى مايريد من تخويف للمعاندين، وتطمين وتثبيت لقلب المصطفى الكريم-ﷺ - والآيات تساق مؤكدة بكل الوان التأكيد: ترى الواو وهى للقسم ، واللام واقعة في جواب القسم مؤكدة«بقد» والمقسم به محذوف وكأنه قال : « وعزتى وجلالى لقد آتينا موسى الكتاب.. ومثل هذا ماتراه في القصة الأخيرة: قصة لوط وقومه، وفيها يقول سبحانه :﴿ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء..﴾ ولعله مما يلفت النظر هو مايشيع في هذه الآيات الست من تعظيم وإظهار لقدرة الإله القوي القادر، إذ تأتي(نا) الدالة على التعظيم عشر مرات في عشر كلمات من هذه الآيات : آتينا - جعلنا- فقلنا- بآياتنا- فدمرناهم- أغرقناهم- وجعلناهم- وأعتدنا- ضربنا- تبرنا.. فهو إذن الإله العظيم الذى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فسبحانه من إله عزيز حكيم.

وفى الآيات أمران : أولهما: ذكر موسى عليه السلام قبل قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم مع أن موسى كان بعد هؤلاء لا قبلهم، وثانيهما: أنه عطف:«وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا» على قوله :﴿ ولقد آتينا موسىٰ الكتاب﴾ مع أن إيتاء موسى الكتاب كان بعد زمن ليس بالقصير من إرساله وإرسال هارون

معه إلى فرعون وقومه ، بل بعد أن لبث موسى وهارون فى مصر سنوات وخرجا ببنى إسرائيل وأغرق الله فرعون ومن معه ونجى موسى ومن معه وهناك فى سيناء آتاه الله الكتاب فيه هدى ونور، وللإجابة عن ذلك نقول : الواو التى عطف بها ماكان من أمر نوح ومن بعده على قصة موسى، والتى عطف بها ﴿وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا﴾ على :﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ هذه الواو لا تقتضى ترتيبا ولا تعقيبا، لكنه حين يبدأ بذكر قصة موسى إنما يبدأ برسالة نبى له أتباع معاصرون لرسول الله -ﷺ- هم اليهود من بنى إسرائيل، وهذا النبى لقى من فرعون وقومه ألوانا من الكفر والبهتان والظلم يقصها القرآن فى كثير من آياته فترى ماتقشعر منه الأبدان، كما وجد من قومه بنى إسرائيل كثيرا من الفسوق والفجور والانحراف عن هدى الله، وهذا وذاك يقصد قصدا فى هذا السياق القرآنى، فالحديث عن عناد قريش لرسول الله-ﷺ- ورفضهم لدعوة الحق، فليكن الحديث عن موسى أولا قبل غيره من الأنبياء تسلية لرسول الله-ﷺ- وهذا المعنى تلمحه أيضا فى المبادرة بذكر إيتاء الكتاب لموسى قبل أن يذكر اختيار الله لهارون ليكون شريكا لموسى فى الرسالة بل ويذكر ذلك قبل أن يقول لهما: ﴿اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾.

فهؤلاء قوم محمد-ﷺ- هجروا القرآن وقالوا فيه ماقالوا واقترحوا- تعنتا- ما اقترحوا فليكن الحديث عن موسى بدءا بالكتاب الذى أنزل عليه حتى يتم التقابل بين الحالين، ويصل القرآن إلى مايريد من تطمين وتثبيت وتسلية لرسول الله-ﷺ- حتى لايأسى على ماكان من أمر قومه.

وفى الآيات تبدو الشدة التى تعبر عنها الكلمات، وكأنها السياط التى تلهب ظهور الظالمين، أو المتفجرات التى تنسف آمال المجرمين، ففى قصة موسى :﴿فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا﴾ يطوى الزمن، ولاتذكر الأحداث، إلا ماكان منها فى البداية التى ما أن بدأت حتى كانت النهاية فإذا بها الدمار والبوار والهلاك، وفى اختيار كلمة «التدمير» - وهى تعنى الإزالة والمحو-

وفى مجيء المصدر: تدميرا: وهو مايوحى بما فى هذا التدمير من عنف وقوة وشدة، في هذا كله مايرشدك إلى مانزل بالقوم من بلاء ، وما يحمله ذلك من ترهيب وتخويف للظالمين، ويأتى الحديث عن قوم نوح في آية واحدة ليجمع فيها ماذكره فى آيات غير سورة الفرقان، وقوم نوح أغرقهم الله، كما أن فرعون وجنده أغرقهم الله، فالمناسبة بينهما واضحة، وفى هذه الآية التى تحدثت عن قوم نوح نلمح قوله :﴿لما كذبوا الرسل﴾ والمرسل إليهم نبى واحد هو نوح عليه السلام، فالجمع هنا له مدلول آخر: إذ أن تكذيب رسول تكذيب لكل رسول قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١)﴾[١]

كما أن نوحا كان أطول الأنبياء عمرا، قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) ﴾[٢] ، فالقرون قد توالت ونوح عليه السلام قائم يدعو إلي الله، لم يترك وسيلة من وسائل التبليغ إلا واتخذها إلي أن يئس من إيمانهم فدعا عليهم قائلا: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[٣]

وقد عرف أنهم لن يلدوا إلا فاجرا كفارا من طول لبثه فيهم، فعرف طباعهم وأحوالهم، وكان الرجل منهم ينطلق إليه بابنه ويقول له : احذر هذا فإنه كذاب، إن أبي حذرنى منه فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك»[٤] ، فكأن من كذب نوحا من قومه كذب عددا من الرسل فى قرون متوالية، وكان الأولى بهم- وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الإيمان- أن يؤمنوا به ويدعونه

(١) سورة النساء ٤/ ١٥٠ , ١٥١.
(٢) سورة العنكبوت ٢٩/ ١٤.
(٣) سورة نوح ٧١/ ٢٦ , ٢٧.
(٤) حاشية الجمل على الجلالين : الفتوحات الإلهية ٤/ ٤١٥.

لا أن تتوارد الأجيال على التكذيب به والصد عن دعوته، ولهذا أغرقهم الله ولم يبق منهم أحدا ونجى نوحا ومن معه، وانظر إلى قوله: ﴿وجعلناهم للناس آية﴾ أي علامة ظاهرة واضحة على مالنا من عزة وقدرة على الانتقام من الظالمين، واختيار قوم نوح ليكونوا للناس آية، دليل على أن مانزل بهم كان من القوة والشدة مايجعله شاهد عظمة للقوي القادر جل وعلا، إذ لو عدت إلى قراءة الآيات التى تحدثت عن هذه القصة لوجدت أحكام الخطة التى سارت خطاها فى ثبات وانتظام بدءا من إعداد السفينة والانتهاء منها والإنتظار للحظة بداية الهلاك حين يفور الماء من التنور، وأمر الله لنوح أن يسلك فى السفينة حينذاك من كل زوجين اثنين ومن آمن، إلى أن فتح الله السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر، وسارت سفينة نوح بما فيها ومن فيها وسط هذه الأمواج المتلاطمة وعين الله ترعاها إلى أن صدر الأمر الإلهى: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)﴾[(١)] ، أقول: لو نظرت فى هذا كله لعلمت لماذا كان إهلاك الله لقوم نوح آية لمن جاء بعدهم: شاهدها ورآها من شاهدها ورآها، وتناقلتها الأجيال وروتها القرون بعد ذلك فكانت عبرة لمن اعتبر، قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥)﴾[(٢)] ، أي وجعلنا تلك السفينة باقية: أما عينها، كما قال قتادة: إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودى، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان، كما قال تعالى: ﴿وآية لهم انا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله مايركبون﴾ إلى قوله: ﴿ومتاعا إلى حين﴾[(٣)] . وفى ختام الآية التى تحدثت عن نوح يقول سبحانه: ﴿وأعتدنا للظالمين عذابا أليما﴾ وفى هذا الختام ترى اختيار كلمة «أعتدنا» وهى تعنى إعدادا أو تهيئة مع قرب تناول، فالعذاب قد نزل بساحتهم،

---

(١) سورة هود ١١/ ٤٤.

(٢) سورة العنكبوت ٢٩/ ١٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠٧.

وحل بديارهم فأهلكهم وأبادهم، وهذا الإعداد أمر واقع لا محالة، ولذلك آتى فعلا ماضيا كأنه وقع وانتهى، وما ذلك إلا لأنه سنة من سنن الله التى أقام الله عليها نظام الحياة، كما ترى أنه أظهر فى موضع الإضمار حين قال : ﴿وأعتدنا للظالمين﴾ ليدلنا على السبب الذى من أجله استحقوا عذاب الله، وليعمم الحكم، فيدخل فيه قوم نوح وغيرهم.

وهذا العذاب الأليم : في الدنيا، كما قال تعالى :﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾[١] .

أو فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى فى بنى إسرائيل :﴿بَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) ﴾[٢].

﴿وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا، وكلا ضربنا له الأمثال، وكلا تبرنا تتبيرا﴾

هكذا يجمع الله هذه الأمم كلها فى آية واحدة مع أنه ذكر حال كل أمة مع رسولها فى قصص تطول آياته، وتتوالى مشاهده، وتترى أحداثه ولكنه هنا فى مقام الزجر والتخويف للمعاندين المكذبين، والتطمين لوعد الله للرسول الصادق الأمين صلوت الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، فليكتف هنا بكلمة واحدة تعبر عن كل قصة، وتجمع كل معنى، وتختصر كل العبارات والآيات، فتراه يقول : وعادا .. وهؤلاء قوم هود، «وثمود» وهؤلاء قوم صالح، «وأصحاب الرس» وهؤلاء قوم شعيب أو غيره من الأنبياء، ثم يجمع ماوراء ذلك من أمم جرت فيها سنة الله بإهلاكهم فيقول :﴿وقرونا بين ذلك كثيرا﴾ وتنكير ﴿قرونا﴾ .

---

(١) سورة العنكبوت ٢٩/ ٤٠.

(٢) سورة البقرة ٢/ ٨٥.

يفيد كثرتها ووصفها بالكثرة يضيف إلى مايفهم من التنكير تأكيدا، ووصف الله لها بالكثرة فيه من الدلالات مافيه، فهي مواكب النبوات والرسالات توالت عبر الأجيال والقرون وهذه مواقف أممهم: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1] والآية تبدأ بقوله: ﴿وعادا...﴾ معطوفة على ماقبلها، أو محذوفة العامل، وفي هذا الاختصار مايخفى من سرعة سباق الخبر وما فى ذلك من الزجر والترهيب وفى اختيار هذه الأمم بعد ذكر موسى ونوح مايرشدك إلى لون آخرمن العذاب وأن الله إذا كان قد أهلك فرعون وجنده بإغراقه وإغراقهم وأهلك قوم نوح أيضا باغراقهم فهذه أمم أخرى لما كذبت الرسل أهلكهم الله ودمرهم بلون آخر من العذاب، فعاد : دمرها بالريح، وثمود: أهلكها بالصيحة، وأصحاب الرس: خسف الله بهم الأرض فكانوا من المهلكين، فعذاب الله- بكل ألوانه- ينتظر من كذب المرسلين.

وتدبر معنى هذا التعقيب القرآني فى قوله تعالى :﴿وكلا ضربنا له الأمثال، وكلا تبرنا تتبيرا﴾ لترى هذه الإحاطة وذلك الشمول فى :﴿وكلا، وكلا﴾ وبينهما يجمع الله أحوال هذه الأمم ومواقفها وما كان من نهايتها، فهى قصة ما إن بدأت حتى انتهت، وكأن هذه الآية بهذا السياق العجيب قنبلة تلقى فى أرجاء النفس على حين غرة، أو هى السهم الذى يخترق شغاف القلب فلا يمتلك منه انفلاتا، وفي الشطر الأول من الآية لايقول بأن كلا ذكرنا له العظات وأرسلنا له الرسل بالآيات البينات وما شابه ذلك إنما يقول :﴿وكلا ضربنا له الأمثال﴾ وكأن كل آية نزلت وكل عظة قيلت، وكل كلمة ذكرت، كانت من المكانة والمنزلة مايجعلها كالمثل تسير به الركبان وتتناقله الأجيال ويذكره الزمان، إنها أمثال تضرب لما فيها من الغرابة والعجب، وأى غرابة وأى عجب لأقوام يرسل إليهم الرسل يحملون معهم دليل صدقهم، ويدعونهم إلى سعادة الدنيا والآخرة لايسألون أحدا أجرا ولايطلبون ثناء ولا ذكرا، إنما هم هداة البشر وهداة الأمم، تفيض وجوههم

(١) سورة المؤمنون ٢٣/ ٤٤ .

إخلاصاً وصدقا وتنطق ألسنتهم علما وحكمة، وتمتلىء قلوبهم رحمة ومودة، وكل ذلك لايلقى ممن أرسلوا إليهم إلا الإعراض والصد والإيذاء، إن من يذكر له ماكان من أمر هؤلاء المرسلين مع أممهم ليمتلىء عجبا حتى كأنه يسمع حكاية غريبة تصلح أن تكون مثلا يذكر للأجيال، وفى التعبير القرآنى ترى نون العظمة فى قوله : ﴿ضربنا﴾ و﴿تبرنا﴾ فالله بما له من العظمة والقوة والاقتدار هو الذى أعذر للقوم حين أرسل إليهم رسله وأنزل إليهم كتبه كما قال تعالى :

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٦٥) ﴾[1] ، وهو جل وعلا بقدرته وقوته الذى أباد هذه الأمم فسبحانه من إله قوى قادر قاهر، وفي التعبير عن الإهلاك بالتتبير، ما يدلك على مدى مانزل بكل أمة من عذاب الله، وأن هذا العذاب كان من القوة بمكان، أنه لم يبق منهم أحدا، لقد كسر كبرياءهم، وفتت طغيانهم، وأذل نفوسهم، وحطم أجسادهم، وقلب موازينهم، ودمر بنيانهم، وعصف بآمالهم، وزلزل أحلامهم وأزال ديارهم فإذا بهم خبر تذكره الأيام، وعبرة تذرف لذكرها العبرات وقصة تتلى فى آيات بينات، نقرأ من ذلك في أخبارهم قول الله تعالى :﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠)﴾[2] ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة فى كتاب الله.

ومن هؤلاء الذين أهلكهم الله وتبرهم تتبيرا قوم لوط، وذنبهم عظيم، وكفرهم تجاوز كل حد، وديارهم آية شاهدة على مايحيق بالمكذبين المعاندين،

---

(١) سورة النساء ٤/ ١٦٥.

(٢) سورة الحاقة ٦٩/ ٤-١٠.

والعرب يرونها فى أسفارهم وكان عليهم أن يعتبروا بها وأن يفيئوا إلى ظلال الإيمان قبل أن ينزل بهم من العذاب مانزل بقوم لوط، ولذلك قال سبحانه: ﴿ولقد أتوا علي القرية التى أمرطت مطر السوء، أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا﴾ وقد ذكر الله قصة قوم لوط فى مواضع من كتابه وماكان من نصح لوط عليه السلام لهم ودعوته إياهم فأطال رب العزة وأطنب في حديث كله عبر وعظات وآيات بينات إلى أن قال فى بعض ماقال: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[١]

وقال عز من قائل: ﴿ عَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾[٢]، ولكنه هنا لايذكر لوطا عليه السلام ولا ماكان من نصحه لقومه، ولايذكر قوم لوط وما كان من أفعالهم الذميمة حتى قال لهم نبيهم: ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾[٣] إنما يعمد إلى ذكر مانزل من العذاب بهؤلاء القوم ليسأل المكذبين لرسول الله-ﷺ- سؤال إنكار وتعجب: أفلم يكونوا يرونها؟ ثم يضرب عن هذا إلى مكمن الداء وأس البلاء، فيقول: ﴿بل كانوا لايرجون نشورا﴾ ولنعد مرة أخرى إلى تعبيرات هذه الآية نقتبس بعض مافيها من أنوار وأسرار:

فالآية تبدأ بالقسم على أن كفار قريش مروا بقرى قوم لوط في أسفارهم يرونها ليلا ونهارا كما قال تعالى:

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾[٤]

---

(١) سورة هود ١١/ ٨٢, ٨٣.

(٢) سورة الحجر ١٥/ ٧٢-٧٧.

(٣) سورة هود ١١/ ٨٠.

(٤) سورة الصافات ٣٧/ ١٣٧, ١٣٨.

ولكن مافائدة نور الشمس الساطع لمن لايبصر النهار؟ إنهم مروا، وكأنهم لم يمروا، إنهم عمى لايبصرون ، فهذا القسم فى مطلع الآية فيه تجهيل لهم، وبيان لحماقتهم، وتنزيلهم منزلة المنكر لمروره ورؤيته لآثار ما نزل بهذه القرى من العذاب، وعبر ﴿يأتو﴾ بدل ﴿مروا﴾ مع ماتضمنته الأولى من معنى الثانية، لما فى الإتيان من القصد للشيىء وطلب ماعنده وما فيه، وهؤلاء لم يمروا مجرد مرور لاينظرون ولايرون، إنما وقفوا عندها وشاهدوها ورأوا مافيها، فاختيار ﴿أتوا﴾ هنا يقصد قصدا مع أنه ذكر فى آية أخرى إنهم مروا، وترى التعبير فى القرآن عن قرى قوم لوط دائما يأتى مفردا مع أن القرى كانت خمسا أهلك الله منها أربعا وبقيت واحدة وهى ﴿زغر﴾ لم يكن أهلها يعملون ذلك العمل، قاله ابن عباس[1] ، فهل سبب ذلك أن قريشا كانت تمر بكبرى هذه القرى وهى "سدوم" فعبر عن ذلك بالقرية أو لانهماك القوم فى الفاحشة كانوا كأنهم قرية واحدة، أو هذا من باب التحقير والإذدراء لشأن هذه القرى وأنها ومن فيها إزاء قدرة الله كقرية واحدة ، فالله لايعجزه شيء، والملك كله بيده، وانظر معى إلى لون العذاب الذى حل بهذه القرية أو قل بهذه القرى وكيف عبر عنه فى الآية الكريمة ؟ إنه في مواضع أخرى يذكر ماكان من أمر هذه القرية وماكان من فعل أهلها الذميم وكيف أوحى الله إلى لوط عليه السلام أن يخرج بأهله ليلا لأن عذاب الله سينزل بالفاسقين، فما أن طلع الصبح أشرقت شمس النهار حتى أهلكهم الله يقول في ذلك :﴿وأمطرنا عليهم مطرا﴾ أى مطرا رهيبا عجيبا ليس ككل المطر، ليس ماء من السماء، إنما كما قال ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ ولكنه هنا يختصر هذا كله ويعمد إلى مايريد من ترهيب وتخويف فيصف القرية بأنها ﴿التى أمطرت مطر السوء﴾ ويطوى فى هذا التعبير الفاعل، ويأتى بالمصدر المؤكد مضافا إلى صفته:﴿مطر السوء﴾ لتلقي يكلمة السوء، ظلالا من الكآبة والخوف في القلوب، ولتصور لنا هذا المطر وأنه من لون فريد، والآيات الأخرى تبين لنا

---

(١) أنظ تفسير البحر المحيط : لأبي حيان ٦/ ٤٩٩ .

هذا وتوضحه فقد أرسل الله عليهم ثلاثة ألوان من العذاب: أولها: الصيحة المنكرة الهائلة والصمت المفزع المخيف، وثانيها: قلب عليهم القرية فجعل عاليها سافلها، وثالثها: المطر الذى يتساقط عليهم لا ماء فيه الرى وإنما حجارة من طين منضود مسومة، أى معلمة لاتغادر منهم أحدا فسبحان القوى القادر القاهر.

وانظر معى إلى قوله :﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ ؟ إنه إنكار عليهم وتعجب من حالهم، إذ من يرى هذه القرى وما حل بأهلها لابد أن يعتبر، فمن لم يعتبر كأنه لم ير، نعم أنهم رأوها مرات ومرات كلما مروا فى طريقهم يحملون متاجرهم إلى بلاد الشام، ولكن لماذا لم يعتبروا؟ ما هو الداء الذى أصاب قلوبهم وعقولهم فحجبهم عن الإيمان وحال بينهم وبين التفكر فى الأسباب التى أدت إلى هلاك هؤلاء القوم على هذا النحو العجيب؟ يقول ربنا: ﴿بل كانوا لايرجون نشورا﴾ والذي لايتوقع ولا ينتظر أن يبعث من قبره ليحاسب عما قدم وعما أخر محجوب عن الحق، مقصر على العاجلة، والذي لايدرك سر الحياة وأنها بدأت، ومحال أن تنتهى بالموت، بل لابد من بعث هؤلاء الموتى ليعرضوا أمام من خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم ليحاسبهم عما قدموا وعما أخروا، من لايدرك هذا كيف يدرك ماوراء هذا الدمار الذى أصاب هذه القرى من آيات الله، وماله من صفات القهر والجبروت والقدرة.

إن عدم الإيمان بيوم النشور داء خبيث يصيب الفطرة فيحجبها عن الحق، ويحول بينها وبين الكمالات النفسية، وتقطعها عن إدراك المعانى الحقة، ويجعلها تقف على عتبة الحياة الدنيا لاتبرحها، ولها لايعرف من حرم الإيمان بيوم النشور إلا اللذة العاجلة، والمتع الرخيصة، ولا يتذوق طعم التضحية والحب فى الله والإيثار والجهاد فى سبيل ربه، ولايشعر بالسعادة والأمان وطمأنينة القلب، ولايرى في ظواهر الحياة مايدله على آيات ربه وشواهد قدرة خالقه، ومن لم يؤمن بالجزاء الأخروى كيف يؤمن بالجزاء الدنيوى من الله عز وجل وكيف يصدق أن مايراه من هذا الدمار إنما كان بسبب عصيان القوم لنبيهم حتى أهلكهم

الله وأبادهم وأن هـذه سنة الله التي يجـريهـا فى الظالمين، ولهـذا تـراه في آيات سورة﴿هود﴾ يختم القصة بقوله ﴿وما هى من الظالمين ببعيد﴾.

وبعـد أن قص الله على رسـوله ماقص، وذكـر له مـاكان مـن أمر من كـذبوا الرسل، وما كان من أمـر قريش في غفلتها عن آيات الله، وعدم اعـتبارها بما أنزله بالمكذبين، وبعد أن بين له عـلة القوم وشخص له مرضـهم، ذكر له موقـفهم منه وسـخريتـهم به مما جـعله سبـحـانه يهددهم ويـتوعـدهم ويسـخر منهم ويهـون لرسوله-ﷺ- من شأنهم فيقول جل وعلا:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤)﴾.

الكلمات والإعراب :

﴿وإذا رأوك إن يتـخـذونـك إلا هزواً.. الآية﴾ الواو عـاطفـة، عطفت هذه الجملة وما فيها من قول مهين وحال معيب على ماسبق من قول الله تعالى:﴿وقال الذين كفـروا لولا نزل عليه القـرآن جملة واحدة..﴾ وجـواب ﴿إذا﴾ قوله :﴿إن يتخـذونك..﴾ و «إن» حرف نفى و«لا» أداة اسـتثناء، والنفي والاسـتثناء يفـيدان الحصـر، و«هزوا» مفعـول به ثان، «وهو خبر في الأصل فـلا يصح الحمل هنا إذ لايقال أنت هزو، ولذلك فهو على تقدير اسم مفعول أى: مهزوءا به»[1] ، وقوله تعالي :﴿أهذا الذى بعث الله رسـولا﴾ مقول لقول محـذوف يقع حالا من فاعل يتخـذونك، ﴿إن كاد ليضلنا عن آلـهتنا لولا أن صـبرنا عليهـا..﴾ :«تقديره عند سيبويه: إنه كاد ليضلنا، وعند الكوفيين ماكاد إلا ليضلنا، واللام معنى الا عندهم

---

(١) انظر : الفتوحات الإلهية: للعلامة : الجمل ٣/ ٢٥٩.

وإن» بمعنى «ما» وهى مخـففة من الثقيلة، واللام عنده لام التـأكيد»[١] . وضمن: «يضلنا» مـعنى: يصـرفنا، وقوله :﴿لولا أن صـبرنا عـليهـا﴾ لولا: حرف امـتناع لوجوب، وما بعدها مصدر مؤول مبتدأ، «عليها» متعلق بصبرنا، والخبر محذوف وجوبا أى لولا صبرنا عليها، وثباتنا على عبادتها وتمسكنا بها لصرفنا عن عبادتها وتركناها إلى مايدعـو إليه هذا الرسـول، وليتهم فـعلوا لينالوا عز الدنيا وسـعادة الآخرة!!

﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا..﴾

الواو: استئنائية، و«من» في قـوله :﴿من أضل سبيلا﴾ اسم استفهـام : مبتدأ، و«أضل» خبره. و«سبيلا» تمييز، والجملة في موضع نصب مفعول به ليعلمون، أو في موضع نصب سـدت مسد المفـعولين إن كانت «يـعلمون» تنصب مفـعولين، ويجوز أن تكـون :«من» اسم موصول في مـحل نصب مفـعوله ، و«أضل» خـبر لمبتدأ محذوف تقديره «هو» والجملة صلة.

﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه..﴾ الهمزة للاستفهام والاسـتفهام هنا للتعجب من المشـركين وحمـاقـاتهم، «أرأيت» بمعنى أخـبرنى، خطاب لرسـول الله-ﷺ- و«من» اسم موصول فى محل نصب مفـعول به أو، و«اتخذ فعل ماض. و«إلهه» مفعـول أول لاتخذ، و«هواه» المفعول الثـانى، وادعى بعضهـم أن:«إلهـه» المفعول الثانى و«هواه» المفـعول الأول، يقول أبو حـيان:«وإدعاء القلب ليس بجـيد»[٢] ، وفي أبى السعود:« إلـهه» مفعول ثان قـدم على الأول للاعتناء به لأنه الذى يدور عليه أمر التعجب، ومن توهم أنهما على الترتيب بناء على تساويهما فى التعريف فقد زل منه أن المفـعول الثانى فى هذا الباب هو المتلبـس بالحالة الحادثة أى أرأيت من جـعل هواه إلها لنفـسه من غـير أن يلاحظه ويبنى عليـه أمر دينـه معرضـا عن

---

(١) كتاب مشكل إعراب القرآن: لمكى بن أبي طالب القيسى تحقيق/ ياسين محمد السواس ط دار المأمون للتراث- دمشق- ط الثانية جـ٢ ص ١٣٣ , ١٣٤.

(٢) انظر : البحر المحيط : لأبى حيان ٦/ ٥٠١، ط الأولى سنة ١٣٢٨هـ بمطبعة السعادة بمصر.

استماع الحجة الباهرة والبرهان النير بالكلية»[1].

﴿.. أفأنت تكون عليه وكيلا﴾

الاستفهام للإنكار والاستبعاد، وجملة : أنت تكون عليه وكيلا، فى محل نصب مفعول به ثان لفعل رأيت، والفاء زائدة للتزيين أو هى عاطفة عطفت جملة أنت تكون .. على جملة مقدرة هى المفعول الثانى للفعل أى:أأنت مهتم له فأنت تكون عليه وكيلا.. و«وكيلا» أى حافظا وكفيلا، تقوم بأمره نيابة عنه.

﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون .. الآية﴾

«أم : منقطعة تقدر ببل والهمزة كأنه قال : بل أتحسب، كأن هذه المذمة أشد من التى تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهو كونهم مسلوبى الأسماع والعقول»[2] والمصدر المؤول : أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون.. فى محل نصب سد مسد مفعولى تحسب.

﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ «وهذه جملة مستأنفة مسوقة لتقرير النكير وتأيده وحسم مادة الحسبان بالمرة ، أى ماهم في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات إلا كالبهائم التى هى مثل فى الغفلة وعلم في الضلالة»[3] و «إن» و«إلا» للقصر والحصر، من باب قصر الموصوف على الصفة، أى ليس لهم من الصفات إلا ما للبهائم من الغفلة وعدم الإدراك.

المعنى العام :

فى هذه الآيات ترى وجها من وجوه تسلية الله لرسوله-ﷺ- تثبيتا له على الحق الذى معه والنور الذى نزل إليه، فالقرآن يقص علينا قول الكافرين وكيف

(١) تفسير العلامة أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـ٤ ص٩٢.
(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٦/ ٥٠١.
(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ٩٣.

أنهم حين يرون رسول الله -ﷺ- لايجدون إلا استهزاء به وسيلة يدارون بها عجزهم عن مقارعة حجته ودحض رسالته، فهم يتساءلون سؤال سخرية وتهكم: ﴿أهذا الذى بعث الله رسولا﴾ ويعترفون بقوة ماساق من أدلة، وما جاء به من الحق حتى قاربوا أن يتركوا باطلهم لولا ما اعتادوا عليه من تقليد للآباء، وتمسك بمواريث الجاهلية، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا، فلا تأس يا نبى الله على هؤلاء فإنهم عبدوا أهواءهم، ومن عبد هواه لست مسئولا عنه، وإذا كان يخيل إليك أن أكثرهم لهم آذان تسمع وقلوب تعقل فهذا مخالف للواقع والحقيقة لأن هذه الآلات من السمع والقلب والعقل وسائل يصل منها الإنسان إلى الاستجابة لله ورسله فإن لم يستفد منها، وإن لم ينتفع بها فيما خلقت من أجله كانت كعدمها بل أن صاحبها يصير هو والأنعام سواء بل فى مرتبة أدنى من ذلك لأن الأنعام أدت وظيفتها كما أراد الله لها أن تكون أما هذا الإنسان فقد عطل هذه المواهب وانحط إلى دركات من السفاهة والغفلة لا تليق ببنى الإنسان.

نظرات فى الآيات :

﴿وإذا رأوك أن يتخذونك إلا هزوا .. الآية﴾ :

لم يكتف المشركون بتكذيبهم لرسول الله -ﷺ- ولا قولهم فى القرآن العظيم ماقالوا إنما سلكوا طريقا آخر مظلما وظالما، إنه السخرية والاستهزاء بهذا النبى الكريم، والقرآن يعبر عن هذا فيبدأ، بإذا: وهى تفيد تحقق وقوع مابعدها، ومابعدها سلوك لايليق بالعقلاء من الناس، فإن من يرى رسول الله -ﷺ- يرى الصدق والأمانة والوفاء والخلق العظيم، وإن لم يكن نبيا ولا رسولا فهو إنسان عظيم تدعوك شمائله وطيب حديثه وحسن عشرته، وبهاء طلعته إلى أن تعقد معه أواصر المحبة فلا تصبر على فراقه، ولا تتحمل البعد عنه كيف وقد أعطى جوامع الكلم وأوتى الحكمة ونزل عليه الوحى، وكلمته السماء، وجاء لتومه وللدنيا معهم بالسعادة التامة، والحياة الآمنة في ظل التوحيد للأمة والوحدانية لله

رب العالمين، وفي نور المبادئ السامية التى جاء بها القرآن الكريم، ولهذا جاء هنا بقـولـه :﴿رأوك﴾ ليـبين لنا أن هـذه الرؤية التى كـانـت البلسم الشـافـى لقلوب جماعات دخلوا هذا الدين وشـرفوا بصحبة إمام النبيين، كـانت القذى فى عيون المشـركين ، والألم في قلوب المعـاندين فلم يجـدوا شـيئـا يدفـعـون به هذا النور الكريم عن قلوبـهم، إلا أن انطلقت ألسنتـهم تسـخـر منـه وتهـزأ به ، وانظر إلى التعبير بالمضارع فى قوله:﴿إن يتخذونك﴾ فهذا يدل على تجدد هذا منهم ووقوعه مـرات ومرات مما يدل على الـسفـاهة والجرأة على الله ورسـوله، ويأتى بهـذا فى أسلوب الحصر﴿إن يتـخذونك إلا هزوا﴾ وكان الأولى أن يتخـذوه إماما وهاديا، ونبراسا مضيـئا، ومنقذا يأخذ بأيديهم إلى الخير، ويبعـدهم عن الهلاك والضياع، ولكنهم لم يفـعلوا شـيـئا من ذلك بل ولـم يـتركـوه يبلغ رسـالة ربه إنما اقـتصـر اتخذاهم له على شيء واحد، إنه الاستهـزاء به وبرسالته والقرآن يذكر لنا أن هذا الاستهزاء تعداه إلى أصحابه كما قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) ﴾[1] .

كمـا أنه وقع للرسل من قـبله قال تعـالى :﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ﴾[2] ، وقال :﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) ﴾[3] .

وهذا لون من استـهـزائهم برسـول الله -ﷺ- يذكره الله بقـوله :﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ وقـائل ذلك هو أبو جهل كان إذا رأى الرسـول ﷺ قال : أهذا الذى بعث الله رسولا، يقول أبو حيان : « وأخبـر بلفظ الجمع تعظيما لقبح صنعه

---

(١) سورة المطففين ٨٣/ ٢٩-٣٢.
(٢) سورة الأنعام ٦/ ١٠.
(٣) سورة يس ٣٠/٣٦.

أو لكون جماعة معه قالوا ذلك ، والظاهر أن قائل ذلك جماعة كثيرة»[1] فانظر إلى هذا القول المشين الذى قاله أهل الكفر لترى مدى مافيه من السخرية والإزدراء بخاتم الأنبياء ورسول الله إلى العالمين: إنهم ينكرون رسالته فيسوقون له هذا الإنكار فى أسلوب استفهام يدل على التعجب والإنكار، ويشيرون له باسم الإشارة«هذا» للحط من شأنه، ويأتون فى صلة الموصول: بقولهم : بعث الله رسولا، وكأنهم يسلمون برسالته مع أنهم فى غاية الإنكار لها: تهكما به، واستهزاء برسالته، وإلا لقالوا . أبعث الله هذا رسولا، أو : أهذا الذى يزعم أنه بعثه الله رسولا»[2].

﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ..﴾

ألا ترى ما في هذا القول من أهل الشرك من تناقض ؟ لقد كانوا منذ لحظات يسخرون من رسول الله-ﷺ- ويتهكمون به وبرسالته، والآن هم يعترفون له بقوة الحجة وسطوع البرهان، ونصاعة البيان، ووفرة الشواهد والدلائل حتى زلزل معتقداتهم الباطلة، وهدم فى نفوسهم أفكارا عاطلة وكادوا- لفرط ماشاهدوا وكثرة ماسمعوا وصدق ما أتى به هذا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه- أن يتركوا معتقداتهم وأن يدخلوا فى رحاب الإيمان لولا مواريث الجاهلية التى كبلتهم. وعمى القلب الذى أصابهم، وانطماس البصيرة الذى صدهم عن هذا الخير.. إنها شهادة من هؤلاء المعاندين بما بذل رسول الله-ﷺ- من محاولات لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وما تحمل من تعب ومشقة في سبيل انقاذهم من وهدة الضلالة إلى رفعة الإيمان، وانظر إلى الكلمات التى عبرت عن هذه المعانى : فـ «كاد» يدل على قرب وقوع مابعده، والإضلال الذى زعموه، والذي كاد يقع، لهم، يعنى التحويل الكلى لا عن عبادة آلهتهم إلى العبودية للواحد الأحد فحسب بل تحويلهم وصرفهم عن هذه الآلهة بكل وجه من الوجوه فلا

(١) البحر المحيط : لأبى حيان ٦/ ٥٠٠.

(٢) انظر : تفسير البيضاوى ٢/ ١١٥، وأبي السعود ٣/ ١٨٢.

يبقى لها أثر لا في قلوبهم ولا في مشاعرهم، واختيار كلمة «آلهة» دليل على مدى الحب والتعلق الذى كان مهيمنا عليهم فجعلهم عبادا لهذه الآلهة، وكان لابد لهم من محاولات ومحاولات في التخلص من هذا النور الغامر الذى انبعث من هذا النبي العظيم ﷺ، لذلك جاهدوا أنفسهم واستثاروا معتقداتهم، وبذلوا غاية مافى وسعهم ليحتفظوا بهذه الآلهة وما نسج حولها من عقائد زائفة، وهذا ما نلمحه فى قولهم «لولا أن صبرنا عليها» كما ترى استعمال « نا» فى قولهم : ليضلنا، آلهتنا، صبرنا، وهى ترشدك إلى أنهم تجمعوا تحت لواء الباطل، وانساقوا وراء ما أوحت به الشياطين، ولو كانوا يطلبون الحق لجلس كل واحد منهم مع نفسه أو اختار صديقا له وصاحبا ونظر فيما جاء به هذا الرسول، وسوف يقتنع لامحالة بأن ماجاء به هو الحق وحينذاك ينال عز الدنيا وسعادة الآخرة حين ينضوى تحت أعلام هذا الدين القويم، ولعل هذا هو ما أرشدهم له كتاب الله عز وجل حيث يقول : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾[1] ، وكان الكثير منهم تحدثه نفسه حين يخلو بها بأن هذا النبى صادق فيما بلغ عن ربه وأن ماجاء به هو الحق فإذا ما عاد إلى مجالس القوم ورأى ماهم عليه من العداوة والبغض لدين الله أنساق كالأعمى يهرف بما لايعرف، وينطق بما ينطق به الآخرون، إنها الطاعة العمياء والانقياد الأعمى الذي أودى بأصحابه فى الهلاك قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾[2] ، وقال تعالى :

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾[3]

---

(١) سورة سبأ : ٣٤/ ٤٦.

(٢) سورة الأحزاب : ٣٣/ ٦٧ ، ٦٨.

(٣) سورة غافر: ٤٠/ ٤٨ ، ٤٩.

إلى غير ذلك من الآيات التى تبين لنا كيف قادهم جهلهم وحمقهم إلى مناصبة الداعى إلى الله هذا العداء كله، وكان الأحرى بهم أن يلتفوا حوله وأن يحملوا رسالته، وأن يكونوا له أنصارا وحماة، فكم فى ذلك من عزة لهم وفخار. ولكنهم عموا عن الطريق، وضلوا سواء السبيل، ولذلك كانوا أهلا لهذا التهديد والوعيد، ذلكم حيث تقول الآية التى معنا: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا﴾ فهذا استئناف للرد على ما أثاروه من أوهام، وما تخيلوه من إضلال، وما حاولوه من إغلاق منافذ الإدراك حتى لا تستجيب لهذا الداعى لهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم.. وهذا الرد لايناقش معهم قضية، ولا يسوق لهم الدليل، فكم ناقش وكم ساق من الأدلة، ولكنه يرد عليهم مهددا ومخوفا، ويأتى فى هذا التهديد بـ «سوف» لتقول لهم : بأنه وإن طال الزمان واستمر الطغيان، فإن الله يمهل ولا يهمل قال تعالى :﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴾[١]

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)﴾[٢]

وقال تعالى :﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾[٣]

وفي الصحيحين عن رسول الله -ﷺ- أنه قال « إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ فماهم فيه من بسطة فى العيش وسعة فى الرزق. ووفرة في المال لن يدوم، إذ لابدأن يفارقهم أو يفارقوه، وما هى إلا أيام تمر حتى ينكشف لهم المستور، ويبعثر من في القبور ويحصل مافى الصدور، ويعرضون على

(١) سورة آل عمران : ٣/ ١٧٨.
(٢) سورة الرعد : ١٣/ ٣٢.
(٣) سورة الأعراف : ٧/ ١٨٢ , ١٨٣.

القوى القـادر والإله القاهر، فـيعلمـون حين يعلنون مافي الآخـرة من ألوان الذلة والصغار والمهانة والاحتقار والنكال والبوار من الذى كان على الهدى ومن الذى كان علي الضـلال، وأنت تلمح معى اختـيار كلمة «يـعلمون» وتقـيـيد هذا العلم برؤيتهم للعـذاب، وكأن كل مرحلة من مـراحل العذاب من لحظات احتـضارهم وقبض أرواحهم وما كان من أمـرهم وهـم يشاهدون الموت الزؤام في موقعة بدر، إلى حيث تقلب وجوههم في النار، فى كل لحظة من هذه اللحظات ينكشف لهم علم جـديد لاشك فـيـه ولاشبـهـة أنهم كـانوا فى ضـلال مبين، وأن هذا الذى استهـزأوا به وسخروا من دعوته كان على الحق، وكم في التـقابل بين الضلال في «إن كاد ليضلنا» والضلالة فى :«من أضل سـبيلا» من عظيم المعنى، إذ لم يشأ أن يقـول لهم أنتم أهل للضـلال لا هذا الرسـول الكريم الذى نـسبـتم إليـه إنه كـاد يضلكم، إنما ترك لهم الحكم الذى سينطقـون به لامحالة فى موقف لايجـدى فيه الندم ولايصلح فـيه الاعـتراف بالحق، ذلكـم حيث يقع بهم العـذاب، والتعـبيـر القـرآنى عن وقوع هـذا العذاب ـ « حين يرون العـذاب» له مـعناه ومـغزاه، فـهم يشاهدون الـعذاب يرونه واقعـا بهم رأى العين، يرونه فى كل مرحلـة من مراحل الآخرة من حين احـتضارهم إلى أن يكبـوا على وجوههم فى النار، ومـابعد ذلك من ألوان الآلام والنكال.

وهم فى كل مـرحلة يـنطقـون بملء فـيـهم فى حـسـرات وزفـرات وعـويل يشهـدون على أنفسـهم بأنهم ضلوا السـبيل، ويتلاومـون ولكن بلا أمل: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)﴾[١] .

---

(١) الأعراف ٧/ ٣٨، ٣٩.

﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا؟؟﴾ :

هذا إيناس لرسول الله-ﷺ- وتسرية له، حيث انتقل من الحديث عن المشركين إلى الحديث إلى حبيبه ومصطفاه، وأنه لحديث حبيب إلى القلب، قريب من الفؤاد، يدل على مدى احتفاء الله برسوله-ﷺ- وعنايته به، وهو خطاب يستثير العجب ويدعو إلى الدهشة ، ويعرى أهل الشرك من كل زيف وبهتان، ويضع يد رسول الله-ﷺ- على موطن الداء وسبب البلاء، وفى التعبير بالإفراد بعد الجمع مايقول : بأنك لو استقصيت القوم فردا فردا لتبحث فى كل واحد عن سر إنكاره وجحوده واستهزائه بك وتمسكه بما عنده من الباطل لما وجدت لهذا من سبب سوى الهوى الذي سيطر على القلوب والمشاعر فكان الإله المعبود من دون الله :يأمرهم هواهم وينهاهم فلا يمتلكون إلا أن يأتمروا وينتهوا، ولهذا نجد من أمرهم العجب العجاب« أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زمانا من الدهر في الجاهلية فإذا وجد حجرا أحسن منه رمى به وعبد الآخر، فأنزل الله الآية ﴾[1] ، إنه الهوى الذى جعل الرجل فى الجاهلية ينتقل من عبادة حجر إلى عبادة حجرا آخر، لا دليل له فى هذا أو ذاك إلا هواه، بل إن هذا الهوى لايقتصر على هذا، إنما يدفع أصحابه إلى ألوان من الحماقات والجهالات دون ضابط من خلق أو دين :« أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة قال – فى بيان معنى الآية: كلما هوى شيئا ركبه، وكلما اشتهى شيئا أتاه، لايحجزه عن ذلك ورع ولاتقوى »[2] .

ولذلك عظمت جريمة عبادة الهوى لأنها تدمير للكيان البشرى وتحطيم لكل خلق نبيل، وانحراف عن الجادة، وانغماس في الباطل، وعمى فى البصيرة، وإنكار للحقيقة، وحجاب عن الفضيلة: أخرج الطبرانى عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ :«ماتحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع»[3].

---

(١) الدر المنثور في التفسير للمأثور: للإمام السيوطى ط الأولى – دار الفكر – بيروت جـ٦ ص٢٦٠.

(٢) المرجع السابق ٦/ ٢٦٠. (٣) المرجع السابق ٦/ ٢٦١.

ومن قاده الهوى ، وسيطر عليه الشيطان، ثم لايعرف للهداية سبيلا ولا للحق طريقا، وليس في سلطان أحد من الخلق أن يدفعه إلى الهدى، ولا فى قدرة مخلوق أن يرده عن الردى فقد هوى ،هذا إلى الهاوية «أفأنت تكون عليه وكيلا؟» كأن الله يقول لنبيه-ﷺ- :«أبعد ماشاهدت من غلوه فى طاعة الهوى وعتوه عن اتباع الهدى نقسره على الإيمان شاء أو أبى »[1] وهذا كقوله تعالى :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[2] وقوله :﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات التى تخفف عن رسول الله ﷺ بعض مايجد من هم وحزن لعدم إيمان قومه فإن أمر الهداية ليس له إنما هو مذكر ومرشد ودال على ربه، وما حمله ربه مسئولية الرسالة لتذهب نفسه عليهم حسرات، ولا ليقتل نفسه إلا يكونوا مؤمنين، ولا ليشقى وينقطع ألما، ولا ليكون وكيلا عليهم يحفظهم من الكفر، ويفرض عليهم الإيمان، ويتولى عنهم بين يدى الله الحساب، إنما هم أحرار فيما يختارون، والواقع يقول لك يا نبى الله : هؤلاء قوم صموا عن الطريق واتخذوا أهواءهم آلهة تعبد من دون الله ومثل هؤلاء لاتنفعهم موعظة ولا يفيدهم بيان.

﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ ان هم إلا كالأنعام بل هو اضل سبيلا﴾.

وفى هذه الآية ينتقل من حال إلى حال أشد وأعظم، الحال الأول هو إتباع الهوى الذي أرداهم وأهلكهم، والحال الثانى هو انغلاق منافذ الفهم والوعى والإدراك فيهم، وانحطاطهم إلى دركات الحيوان الأعجم بل إلى مادون ذلك، وكأنه يبين السبب الذى جعلهم يعبدون أهواءهم، فهذا السبب هو أنهم لم يستفيدوا مما وهبه الله لهم من السمع والعقل ولعلك رأيت من يسمعك إذا

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢١ للجلد الثالث.

(٢) الغاشية ٨٨/ ٢١, ٢٢.

(٣) سورة ق : ٥٠/ ٤٥.

تكلمت، ومن يعقل كلامك إذا تحدثت، ومن له قدرة على إدارة الأمور وتصريفها في ذكاء وحنكة، فحسبت هذا ممن يسمع ويعقل، وهذا في الواقع مجرد وهم وظن، فإن السمع باب مفتوح على المسموعات فإن لم يستفد مما يسمع فكأنه غير موجود، والعقل آلة لإدراك المعلومات وتنظيمها والانتفاع بها فإن ذهب النفع فكأنه لا عقل، وهؤلاء المشركون لم ينتفعوا بأسماعهم وعقولهم حيث صموا آذانهم عن الحق، وأغلقوا قلوبهم وعقولهم عن الفهم الصحيح وعاشوا في ظلمات الجهل والكفر والضلال فكيف يعدون من أصحاب السمع والعقل ؟ إنها آلات تراها فيهم ولكنها لم تؤد وظيفتها لهم باعتبارهم من بني الإنسان المستخلف في أرض الله المكلف بحمل الأمانة التي ناءت بحملها السموات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها وأشفقن منها، فلم تبق لهذه الآلات وظيفة تؤديها إلا كما تراها في الأنعام، ولذلك يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «مثل الذين كفروا كمثل البعير والحمار والشاة، إن قلت لبعضهم «كل» لم يعلم ماتقول غير أنه يسمع صوتك، كذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شر، أو وعظته لم يعقل ماتقول غير أنه يسمع صوتك»[1] .

والتعبير القرآني ﴿إن أكثرهم﴾ يفيد أن القلة هي التي تسمع وتعقل، فإن الإيمان رفعة وسمو، والأكثر من الناس لاترفعه همته إلى هذه المنازل العالية، ولذلك ترى أن الصفوة دائما في كل زمان ومكان هم القلة القليلة والبقية عوام الناس ممن لايدركون من حياتهم إلا شهوات عارضة يتمتعون بها، ولحظات عابرة بمضمونها في لهو ولعب، ولهذا قال تعالى :

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[2] ، وقال :﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾[3] ، والذين يصبرون في مجال الابتلاء والشدائد قلة، يذكر الله لنا في قصة الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى وما كان منهم من طلب حثيث لنبي

---

(١) انظر : الدر المنثور في التفسير المأثور ٦/ ٢٦١.

(٢) سورة سبأ : ٣٤/ ١٣.

(٣) سورة ص : ٣٨/ ٤٣..

من أنبيائهم أن يبعث الله لهم ملكا يقاتلون تحت قيادته فى سبيل الله، يقول تعالى :

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[1]

وأراد قائدهم أن يختبر قدرتهم على تحمل المشاق فقال لهم ماذكره ربنا:

﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾[2] .

وانظر معى إلى :﴿ إن هم إلا كالأنعام﴾ لترى أنه لم يجد تشبيها يشبههم به إلا أن يشبههم بالأنعام فى هذا الأسلوب المانع الذي يقصرهم على هذه الصفة، وحين يذكر هذا ترى صورة إنسان فقد ما يميزه فى عالم الإنسان لينتقل إلى عالم الحيوان الذي ينقاد دون عقل فإذا تم هذا أضرب عنه وانتقل إلى صورة أشد وقال: ﴿بل هم أضل سبيلا﴾.. لما أنها تنقاد لصاحبها الذي يتعهدها وتعرف من يحسن إليها ومن يسىء إليها، وتطلبماينفعها وتجتنب مايضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها وتأوى إلى معاطفها ومرابضها، وهؤلاء لاينقادون لربهم سبحانه وخالقهم ورازقهم ولايعرفون إحسانه تعالى إليهم من إساءة الشيطان المزين لهم اتباع الشهوات الذى هو عدو مبين ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع، ولايتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والمورد العذب الروى، ولأنها إن لم تعتقد حقا مستتبعا لاكتساب الخير، لم تعتقد باطلا مستوجبا لاقتراب الشر بخلاف هؤلاء حيث مهدوا قواعد الباطل، وفرعوا عليها أحكام الشرور، ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة علي أنفسها لاتتعدى إلى أحد وجهالة هؤلاء مؤدية إلي ثوران الفتنة والفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد، ولأنها غير معطلة لقوة من القوى المودعة فيها، بل صارفة لها إلى ماخلقت له فلا تقصير من قبلها في طلب الكمال وأما هؤلاء فهم معطلون

---

(١) سورة البقرة : ٢/ ٢٣٦.

(٢) سورة البقرة : ٢/ ٢٤٩.

لقواهم العقليـة مضيعون للفطرة الأصليـة التى فطر الناس عليها [١]، وصدق الله حيث قال :﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسـمعون أو يعقلون؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيـلا﴾ وحيث قال: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾[٢] .

(١) روح المعانى : للألوسى ١٩/ ٢٥.

(٢) سورة الأعراف : ٧/ ١٧٩.

الفهرس

م	الموضوع	الصفحة
١	تقديم	٥
٢	بين يدي السورة	٧
٣	عمَّ تحدثت سورة الفرقان	٨
٤	التفسير	١٥
٥	الآيات من ١-٣	١٥
٦	الآيات من ٤-٦	٤٨
٧	الآيات من ٧-١٠	٥٨
٨	الآيات من ١١-١٦	٧٦
٩	الآيات من ١٧ - ١٩	٩٢
١٠	الآيات من ٢٠	١٠٥
١١	الآيات من ٢١- ٢٤	١١١
١٢	الآيات من ٢٥ - ٢٩	١٣٦
١٣	الآيات من ٣٠ - ٣٤	١٥٠
١٤	الآيات من ٣٥- ٤٠	١٦٩
١٥	الآيات من ٤١-٤٤	١٨٤

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٩٦/٥٠٦٣

الترقيم الدولي :977-5524-30-x